روايات تاريخ الإسلام

فتح الأندلس

تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح
الإسلامي ووصف أحوالها، وفتحها على يد
طارق بن زياد، ومقتل رودريك ملك القوط

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بولفار نزيه البزري - ص.ب: ٣٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٣٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ ١ ـ

الأندلس إحدى مقاطعات إسبانيا، واسمها في الأصل «وندلوسيا» نسبة إلى «لوندال» أو «الفندال» وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان، فلما فتحها العرب سموها الأندلس، ثم أطلقوا هذا الاسم على إسبانيا كلها.

وكانت هذه البلاد جزءاً من مملكة الرومان الغربية إلى القرن الخامس للميلاد، فسطا عليها «القوط» وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من أعالي الهند إلى أوربا طلباً للعيش والمرعى، وأقاموا في بواديها.

وقد سيطر القوط على مملكة الرومان الغربية قبل سيطرة العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون وأنشأوا الممالك في فرنسا وألمانيا وانجلترا وغيرها من دول أوربا الباقية إلى الآن.

وكان في جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين «فيسيقوط». فسطت على إسبانيا في القرن الخامس وانتزعتها من الرومانيين، وأنشأت فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الإسلامي سنة ٩٢ هـ (٧١١م) على يد طارق بن زياد القائد الشهير.

وكانت عاصمة مملكة القوط في إسبانيا مدينة «طليطلة» على ضفاف نهر التاج في أواسط إسبانيا، وكانت في ذلك العهد مدينة عامرة، فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والأديار، كما كانت مركز الدين والسياسة، وفيها كان يجتمع مجمع الأساقفة كل عام ينظر في الأمور العامة.

وكان ملك الإسبان عام الفتح الملك «رودريك» الذي يسميه العرب «لذريق»، وهو الذي اغتصب المُلك اغتصاباً سنة ٧٠٩ م مع أنه لم يكن من العائلة المالكة، مما جعل أبناء الملك السابق ينقمون

عليه. وكانت إسبانيا تنقسم يومئذ إلى ولايات أو «دوقيات» يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى الدوق أو الكونت، ويرجعون في أحكامهم جميعاً إلى الملك المقيم في طليطلة.

وطليطلة واقعة على أكمة يحيط بها نهر التاج من الشرق والغرب والجنوب بما يشبه حدوة الفرس، ووراءه جبال متسلسلة تحجب الأفق عن أهل المدينة، وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب، وغابات السنديان والصنوبر، وفي منتصف المدينة الكنيسة الكبرى التي جعلها المسلمون بعد الفتح مسجداً، وهي من الفخامة والمناعة على جانب عظيم. وكان الناظر إذا ألقى نظرة على أبنية طليطلة من شاهق تبين فيها من ضروب الأبنية مزيجاً من الطرز الرومانية والقوطية. وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات الأخرى مغارس الفاكهة والأثمار وسائر أصناف الأشجار، إذا أطل الواقف من إحدى نوافذ منازلها أشرف عليها كلها.

وكان في جملة قصور الملك رودريك قصر شرقي المدينة فوق أكمة تشرف على ضفاف النهر، تحيط به حدائق واسعة تحوي صنوف الأشجار والرياحين والأزهار، على مرتفعات تتخللها مجاري الماء على غير نظام مما يزيدها جمالاً، ويحدق بها كلها إلا من جهة النهر سور حوله الحراس في منازل بنوها لهم بجانب أبواب البستان.

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يستطرق إلى البستان من جهة وله باب مستقل من جهة أخرى، وعدة قصور متفرقة في جوانب ذلك البستان، بعضها للحاشية وبعضها للأمراء، ومن بينها قصر كبير كان يقيم فيه أولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات، جرياً على العادة المتبعة عند ملوك القوط في ذلك الزمان. فقد كان من عاداتهم أن يجتمع في بلاطهم في طليطلة أبناء ولاتهم

هؤلاء وبناتهم يقيمون هناك ويربون في البلاط الملكي معاً، يتعارفون ويتعاشرون فيشبّون على ما يرضاه الملك ويتأدبون في خدمته ثم يتزوجون.

ففي صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد كان أهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيد الميلاد، والناس يتقاطرون إلى الكنائس والأديار يهنىء بعضهم بعضاً، وأكثر الكنائس ازدحاماً في ذلك اليوم الكنيسة الكبرى لأن أكبر أساقفة طليطلة يصلي فيها ولأن الملك رودريك كان سيحضر القداس بنفسه ومعه حاشيته وكبار رجال دولته، ولذا غصت الكنيسة على سعتها وامتلأ فناؤها وما جاورها من الشوارع والاسطح بالناس، على اختلاف الأعمار والأجناس، تطلعاً إلى رؤية الملك ومشاهدة موكبه الحافل، إذ كان لا يزال قريب العهد بالملك وقلما رآه أهل طليطلة من قبل فكيف بأهل المجاورة؟ فاغتنموا جميعاً فرصة ذلك العيد لمشاهدة الرجل الذي اختلس الملك من «غيطشة» ملكهم السابق.

وقد خرجت النساء من بيوتهن لمشاهدة موكب الملك رودريك، إلا فتاة من أهل البلاط الملكي اغتنمت اشتغال الملك ورعيته بذلك العيد لتخلو إلى نفسها وتفكر في أمرها. وكانت هذه الفتاة من بنات الكونتات حكام الولايات، وتقيم في القصر الذي يجمعهن جميعاً بجوار قصر الملك، فنقلها الملك منذ بضعة أيام إلى القصر الصغير المتصل بقصره. وهو إكرام حسدها عليه كل رفاقها ورفيقاتها، ولكنه كان سبباً كبيراً في تعاستها وانشغال بالها، فلما خرج الملك ورجال دولته وسائر أهل البلاط للاحتفال بالعيد اعتذرت هي بانحراف صحتها.

وكان ذلك اليوم صاحياً زاهياً، يندر مثاله في فصل الشتاء،

وقد أطلت الشمس من وراء الآكام وأرسلت أشعتها على نهر التاج وما على ضفافه من الحدائق وفي جملتها حديقة قصر الملك، فبخرت ما كان على الأوراق والأزهار من الطل، وكان يوماً يحلو للناس الخروج فيه من المنازل إلى البساتين لاستقبال أشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة، ولذا اغتنمت الفتاة غياب الملك وحاشيته ونزلت تتمشى في طريق تلك الحديقة وقد تدثرت برداء من الحرير الأحمر مبطن بالفرو اتقاء البرد، غطى أكتافها ومعظم جسمها إلا ذيل ثوبها (الفستان) الأرجواني المزركش بالقصب فإنه ما زال يتلألأ وراءها في أشعة الشمس. وأما رأسها فقد كان مكشوفاً وعليه شبكة من الحرير الأبيض تضم شعرها الذهبي ضمة واحدة وترسله إلى ظهرها مستعرضاً كأنها خارجة من الحمام على عادة الرومان التي اقتبسها عنهم القوط في تلك العصور. وكان ذلك الشعر الذهبي يتلألأ من خلال تلك الشبكة خصوصاً إذا وقعت عليه أشعة الشمس في أثناء مرور الفتاة بين الأشجار. على أن اكتساءها بذلك الرداء لم يخف جمال قامتها ورشاقة مشيتها. وأما وجهها فقد كان ممتلئاً ناصع البياض، مشرباً بحمرة، يكاد يشف عما تحته، وقد زاده الانحراف والذبول هيبة وجمالاً، وفيه عينان تجمعان إلى الصفاء والزرقة شيئاً لا يعبر عنه بغير السحر، وفم مع صغره لا يبدو إلا مبتسماً ابتسام الجلال والحشمة.

سارت الفتاة في الحديقة ومعظم أشجارها عارٍ من الورق، وأكثر رياحينها خالٍ من الأزهار، كأنها تشارك فتاتنا الذبول والانكسار، بينما كانت الأرض وكأنها بساط من العشب الأخضر، مرصعة ببعض الأزهار التي تتفتح في الشتاء. فمشت الفتاة وهي لا تبالي بما قد يعترضها في طريقها من الأغصان المدلاة، هذا يلطم

كتفها وذاك صدرها أو رأسها، وبين يديها امرأة عجوز تحوم حولها وتراعي حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها، وهي ليست أقل منها قلقاً ولكن الزمان حنكها، ومرور الحدثان علمها أن الأحوال لا تدوم على حال!

وكانت الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر، ثم ترسل نظرها من خلال الأشجار إلى ما يطل عليه ذلك البستان من الحدائق البعيدة وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الأشعة كأنها جبال من الفضة، والفتاة تارة تنزل في وادٍ وطوراً تصعد على تل، والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك فتتناولها ولا تتكلم كأنما حكم عليها بالسكوت!

وبعد برهة انتهت إلى أكمة منبسطة تطل على النهر، يكسوها عشب قصير كأنه بساط من الديباج وقد تطاير عنه الندى بوقوع الأشعة عليه، فراقَ لفتاتنا الجلوس عليه والتعرض لأشعة الشمس التماساً للدفء، وللتمتع بمنظر السماء الأزرق الصافي، فالتفتت إلى العجوز وقالت بصوت مختنق لطول السكوت: «ما قولك يا خالة؟ ألا نقعد على هذه الأكمة نتمتع بهذا الطقس الجميل..؟».

فهرعت العجوز وهي تصلح نقاباً كانت قد لفت به رأسها وحول أذنيها تجنباً للبرد وقالت: «اقعدي حيثما تشائين يا حبيبتي». قالت ذلك وأسرعت إلى كرسي من خشب كان في بعض طرق الحديقة وجاءتها به فأبت القعود عليه وقالت: «أفضل هذا العشب فإن العقود عليه حسن في مثل هذا اليوم!». فقعدت العجوز بين يديها وهي لا تزال تراقب حركاتها، وقلبها يحوم حولها، وقد سرّها ارتياحها إلى مناظر الطبيعة، فجعلت ترغبها في تسريح نظرها فيما تشرفان عليه من مجرى النهر وما وراءه من التلال التي تكسوها غابات

الصنوبر والزيتون والسنديان، وما يتخلل الغابات من بيوت متفرقة هنا وهناك وهي تقول: «تأملي يا فلورندا هذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك واتركي عنك الأوهام».

وكانت تلك التعزية سبباً في هياج شجون فلورندا فقالت: «لقد أذكرتني يا خالة بأمر أحاول تناسيه.. كيف ينشرح صدري وأنا فيما تعلمين من انشغال زاده انتقالي إلى هذا القصر..؟».

قالت: «وما يخيفك من ذلك الانتقال وقد أصبحت أقرب إلى قصر الملك وأعز جانباً؟».

فقالت وهي تنظر إلى آخر ما يقع نظرها عليه من مجرى النهر كأنها ترى قارباً بعيداً: «إن ذلك الانتقال هو الذي أخافني.. ويا ليته نقلني إلى أطراف المدينة، بل يا ليته أرجعني إلى والدي!». قالت ذلك وشرقت بدموعها فاشتغلت عن النظر إلى ذلك القارب بما جال في خاطرها من أمر والدها وبعدها عنه ووقوعها في ذلك الخطر.

وكانت العجوز خالة أم فلورندا، وقد احتضنتها من طفولتها وربتها في بيت والدها، حتى إذا آن مجيئها إلى بلاط الملك على عادتهم الجارية كلفها أبوها أن تكون معها، فقضت في عشرتها بضعة عشر عاماً، لم تكن تزداد خلالها إلا حباً لها وانعطافاً نحوها لما فطرت عليه من الجمال واللطف. فلما رأتها تبكي انفطر قلبها وقالت: «أما الرجوع إلى والدك فإنه ميسور، ولكن بقاءك هنا لا أرى فيه بأساً خصوصاً لأجل الفونس».

فلما ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت البغتة على وجه الفتاة وكأنها كانت في غفلة وأفاقت، فدقّ قلبها وصعد الدم إلى وجهها فزال ذبول لونها، ثم تنهدت والتفتت إلى العجوز وقالت: «دعيني من الفونس.. حتى الفونس نفسه من أسباب شقائي وقد كنت كما

تعلمين أحسبه سبب سعادتي. دعيني أبكي».

فقالت العجوز: «ما لي أراك تحسبين الشقاء محدقاً بك من كل ناحية وأنت من أسعد خلق الله؟ كيف تقولين أن الفونس من أسباب شقائك وهو خطيبك ويتفانى في سبيل مرضاتك؟».

قالت: «أعلم ذلك وهو الذي يزيد بلبالي! أحبه ويحبني، ولكن ما الفائدة من هذه المحبة!؟ إن الذنب ذنبك يا خالة.. أنت علقت قلبي به، وكنت خالية لا أعرف القلق. سامحك الله!».

قالت: «لم أندم على ما بذلته من الجهد في تقريب قلبيكما لأنكما متناسبان خَلقاً وخُلقاً. وأنتما من عائلة واحدة. ولما سعيت في ارتباطكما برباط الخطبة حسبت أني أوصلتك إلى أوج السعادة، لأن الفونس كان لا يلبث أن يصير ملكاً على إسبانيا كلها فتكونين أنت مكلة القوط، ولم يخطر لي أن يحصل ما حصل من الانقلاب فيسعى أهل المطامع والأغراض في إهلاك أبيه وإخراج الملك إلى أحد قواده». ولما بلغت إلى هنا خفضت صوتها والتفتت إلى ما حولها مخافة أن يسمعها أحد ثم عادت إلى إتمام حديثها فقالت: «فإذا كنت تعدين خروج الملك من يديه شقاء فلا ألومك!».

فقطعت فلورندا كلام خالتها وقالت: «لا.لا، ليس ذلك سبب شقائي وإنما هو انقطاع الفونس عن المجيء إليَّ.. ها قد مضت أشهر ولم أشاهده، وأظنني لن أشاهده بعد أعوام خصوصاً بعد انتقالي إلى هذا القصر، أعوذ بالله من هذا الانتقال، إن قلبي يحدثني بسوء سيصيبني منه، ولذا تريننى منذ انتقلت إليه وأنا منحرفة الصحة لا يهنأ لي عيش».

قالت: «أراك واهمة يا حبيبتي فما في هذا القصر إلا ما يدعو إلى انشراح صدرك. وأما سبب انقباضك فإنما هو شوقك لألفونس،

وهذا ما لا ألومك فيه وإن يكن معذوراً في تغيبه، لأن الملك يراقب حركاته وسكناته خوفاً منه، لعلمه بما اختلسه من قبضة يده!».

وكان القارب الذي وقع نظر فلورندا عليه في أعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور ثم عاد فظهر من بينها على مقربة من حديقة القصر. وحالما وقع نظر فلورندا عليه خفق قلبها لأنها رأت فيه الفونس واثنين من رجاله، فلم تعد تعلم ماذا تقول، واكتفت بالإشارة إليه فاقترب من الضفة ونزل الفونس إلى البر، وأشار إلى الرجلين فنزل أحدهما ومشى في جهة أخرى وظل الثاني في القارب. وكان الفونس حالما وقع نظره على فلورندا قد سار إليها وعليه لباس القواد الرسمي، المؤلف من سروال منتفخ قصير مبطن بالفرو إلى الركبة، وحول صدره دراعة مقفلة من الأمام، وفوقها قباء قصير أرجواني اللون وحول خصره منطقة من جلد عريضة، وعلى رأسه قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطير ومن تحتها شعره الأسود يسترسل إلى كتفيه.

وكان الفونس في العشرين من عمره، ولم يستطل شعر عارضيه وشاربيه بعد. وكان أبيض الوجه أسود العينين، إذا نظرت في عينيه تبينت فيهما الحب والوداعة مع النباهة ولم ترَ فيهما شيئاً من المكر. وكان قد علق بحب فلورندا مذ كان أبوه على عرش إسبانيا وهو يومئذ ولي عهد المملكة لأنه أكبر أخوته. وكانت فلورندا تستبعد حصولها عليه يومئذ، ولكن خالتها العجوز سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة عليها بسبب القرابة التي بينهما، فنجحت وتعلق الفونس بفلورندا تعلقاً شديداً، وكان يتردد عليها كثيراً، ويجالسها كل يوم تقريباً، ثم انشغل عنها بعد وفاة والده بما انتابه من ضياع الآمال، فضلاً عن أن رودريك الملك الجديد وضع

عليه العيون والأرصاد، فخاف المجيء إليها، ولكنه كان يترقب الفرص لرؤيتها كما كان يسأل عن أحوالها حتى سمع بانتقالها من القصر القديم إلى القصر الملاصق لقصر الملك وأنها تقيم فيه وحدها، فهاجت فيه عوامل الغيرة ولم يعد يستطيع صبراً عن مقابلتها للتمتع برؤيتها واستطلاع فكرها، فإذا رآها لا تزال على عهدها أسرع في عقد قرانه بها، لأنه كان يظنها زهدت فيه بعد خروج المُلك من يده. واتفق احتفال أهل طليطلة بعيد الميلاد في تلك الفترة، وخرج الملك في موكبه إلى الكنيسة الكبرى والفونس في جملة البطانة، فخطر له وهو في أثناء الطريق أن يتخلف عن الموكب خلسة ويمضي إلى فلورندا، إذ كان قد بلغه انحراف صحتها فرجح أنها لا تخرج إلى الصلاة في ذلك اليوم، فاختار المجيء في القارب لئلا يراه أحد في أسواق المدينة. وجاء معه في القارب اثنان من خاصته، فلما نزل إلى البر أرسل أحدهما لاستقدام فرسه حتى يعود عليه راكباً إلى الموكب قبيل خروج الملك من الصلاة، واستبقى الآخر في القارب لعله يحتاج إليه، ولما وقع بصره على فلورندا لم يتمالك أن أسرع نحوها وهو يثب وثباً!.

أما هي فلما رأته قادماً بغتت وظهرت البغتة في عينيها، وأسرعت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها، وأرادت أن تقف لملاقاته فلم تستطع من شدة التأثر، وامتقع لونها وشخصت ببصرها إليه وهي لا تصدق أنها تراه!. وأما هو فلما دنا منها ولم تقف له ولا رحبت به تحقق عنده ما كان يظنه من زهدها فيه، وبعد أن كان مسرعاً بلهفة المشتاق تباطأ، وندم على مجيئه وتطفله. لكنه ما لبث أن رأى العجوز تهرول إليه وهي تتعثر بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهي تقول: «أهلاً وسهلاً بحبيب القلب الفونس». فاطمأن قلبه، فمشى حتى اقترب

من فلورندا فإذا هي لا تزال جالسة وقد التفت بالرداء ويداها مختبئتان فيه، حتى إذا وقف بين يديها رفعت بصرها إليه بنظرة خرقت أحشاءه، وقرأ فيها ما لو كتب على القرطاس لملأ عدة صفحات! قرأ فيها العتب والتعنيف، وقرأ الشوق والوجد، وقرأ فيها الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام، فلم يستطع جواباً على تلك المعاني إلا بالجثو على ذلك البساط الأخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان: «السلام يا فلورندا السلام!». ومدّ يده وأحنى رأسه كأنه يسألها إحساناً فظلت هي شاخصة إليه، ويداها لا تزالان مختبئتين في ذلك الرداء، ولبث الاثنان برهة وعيونهما تتخاطب وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشي عينيها، فحجب عنهما وجه الفونس فأخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها، فسبقها الفونس إلى استخراج منديله ومسحهما به ثم مسح به وجهه وتنشق رائحته وتنهد تنهداً شديداً، وأعاد يده فمدها إلى فلورندا فلم تمد يدها إليه، ففهم أنها تتعمد ذلك دلالاً وعتباً فلم ينتظرها، بل مدّ يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت لها فرائص الاثنين كأنما مستهما كهرباء قوية!

مضت فترة وهما يتخاطبان بالألحاظ، ولهما من قراءة الأفكار ما يغنيهما عن الألفاظ. وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الأزهار والاستتار بين الأغصان رفقاً بعواطفهما وإغضاء عما قد يبدو منهما في مثل هذه الحال. وظل الفونس ساكتاً وقد عوّل على الصبر حتى تكون فلورندا البادئة بالكلام، فقضيا برهة واليد في اليد، والعين على العين، والقلبان يتسارعان كأنهما يتفاهمان بالخفقان، وقد غشي الأعين ماء لامع هو من أكبر دلائل الهيام!

ثم فتحت فلورندا الحديث بنغمة الدلال والعتاب قالت: «ما الذي جاء بك يا الفونس؟».

قال: «لا أدري ما الذي جاء بي يا حبيبتي. فهل تعلمين أنت؟ أما الذي أعلمه فهو أني أسير هواك، وأني حيّ برضاك ميت بجفاك. حبيبتي فلورندا: هل عندك مثل ما عندي؟ نعم أعلم أنك كنت تحبينني، ولكن هل أنت باقية على ذلك أو على بعضه، أم غيّرك ما غيّر أحوالنا وأضاع آمالنا؟».

فأدركت أنه يشير إلى خروج الملك من يده، فسحبت أناملها من بين أنامله بلطف، وأظهرت أنها تحول وجهها عنه، ونظرها لا يزال ثابتاً في نظره كأنها تقول له: «أهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين؟». ففهم الفونس مغزى تلك الإشارة فقال لها: «لم أكن أشك في صدق مودتك وقد امتزج قلبانا ـ ولكنني حسبت سوء حظي غيّرك، وإني بعد إن خسرت أبي وملكي جرني سوء الطالع إلى خسارة ما هو أثمن من ملك العالم كله!». قال ذلك وقد أبرقت عيناه وانبسطت أساريره، وهو لا يزال ينظر إليها ويتوقع أن يسمع قولها فعادت إلى السكوت، والتفت بردائها وحولت نظرها إلى مجرى النهر وأصغت إلى صوت هديره، فاستولى على الحديقة سكون لم يكن يتخلله إلا خرير الماء وزقزقة العصافير، فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز فإذا هي قادمة وفي يدها بعض الأزهار فناداها وهو يقول: «تعالي يا خالة كلمي فلورندا، عساها أن تتعطف عليَّ بكلمة أبرّد بها لظى وجدي!».

وكانت العجوز قد وصلت إليهما فقدمت الزهور إلى فلورندا وأجابت الفونس قائلة: «إذا كنت لا تفهم بلا كلام فما أنت من أهل الغرام! أتحتاج مع ما تراه في فلورندا إلى إيضاح؟ وهل تظن ما يليق بالشبان من التصريح يليق بالفتيات أيضاً؟». ثم التفتت إلى فلورندا وقالت: «هذا هو الفونس، كلميه واسأليه، وقد سمعت منك شكاً

في محبته فهل رأيت صدق قولي في ثباته؟».

فرفعت فلورندا بصرها إليه وقد أخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً حتى ظهر ذلك جلياً فيما اعترى عينيها من الذبول واللمعان، فشخصت ببصرها إليه برهة وهو يكاد يختطفها ببصره وقد نسي مصيبته في الملك وضياع حقه فيه، وهانَ عليه أن ترضى عنه فلورندا ولو خسر العالم بأسره! وفيما هو غارق في تلك الهواجس سمعها تقول: «هل شككت في حبي يا الفونس؟».

قال: «نعم يا منيّتي. والمحب كثير الشكوك!».

فأطرقت وهي تقول: «صدقت إن المحب كثير الشكوك. فقد خامرني مثل ما خامرك كما قالت خالتي، ولكن..».

فقطع الفونس كلامها وقال: «لا أرى مسوغاً لشكك فيَّ، وأنت تعلمين أني متفان في هواكِ.. وأما أنا فيحق لي أن أرتاب في بقاءك على عهدي لما أصابني من نوائب الزمان، فقد كنت ولي عهد هذه المملكة فأصبحت مثل سائر رجالها».

فلما سمعت ذلك ابتدرته بالجواب قبل استيفاء كلامه قائلة: «لما أحببتك يا منيّتي إنما أحببت الفونس ولم أحب ولي عهد مملكة القوط. إن الحب لا يعتبر الرتب ولا المناصب، والقلوب يا الفونس تتعاقد وتتحد، وهي لا تُبصر ولا تُقيس، ولا تكيل ولا تزن. وهي لا تتعارف بالتوصيات ولا تعرف المجاملات، ولا تفرق بين الحقوق والواجبات.. القلب يا الفونس لا يرى علامات الشرف، ولا يهوى التيجان ولا يخاف الصولجان.. القلب يا حبيبي لا يهوى إلا القلب!».

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبانَ الاهتمام في محياها، وأطرقت وسكتت وفي ملامح فمها أنها لم تستتم الكلام بعد، فلم

يشأ الفونس أن يقطع سلسلة أفكارها فظل صامتاً وهو ينظر إليها نظر المستزيد فلما رأته يتوقع كلامها قالت: «على أني آسفة لخروج هذا الأمر من يدك، لا لأني أحب أن أكون ملكة، ولكني..». قالت ذلك وغلب عليها الحياء والغضب معاً، فتزايد احمرار وجهها وقطبت أساريرها والتفتت نحو القصر كأنها تخاف رقيباً، وسكتت. فاشتغل خاطر الفونس بذلك السكوت وأدرك بعض مرادها، ولكنه تجاهل وقال لها: «ولكن ماذا يا فلورندا يا حبيبتي؟ قولي، أفصحي!».

قالت وهي تخفض صوتها: «ولكنني لولا هذا التبديل لم أكن أقاسي هذه المتاعب! لم أكن لأجد نفسي بين أنياب الأسد، وملاكي الحارس بعيد عني!». وخنقتها العبَرات ولكنها استمرت في الكلام فقالت: «ولم يكن لهذا المختلس سبيل إلى إقلاق راحتي!».

فقطع الفونس كلامها وقد ظهرت عليه البغتة واتقدت الغيرة في قلبه وقال: «بماذا أقلق راحتك؟ هل خاطبك في شيء؟ هل بدا لك منه سوء؟ أخبريني، قولي..».

قالت: «كلا لم يبدِ منه شيء، ولكنني لا أحسب نفسي في مأمن خصوصاً بعد أن نقلني إلى هذا القصر ولم أفهم لهذا النقل معنى. ومن هنا بقاء الملك في يدك أدعى إلى سروري وسعادتي».

فأدرك الفونس الأمر الذي تعرض هي به مع ما توخته من المبالغة في تلطيف العبارة، وعلم أنها تقرعه لتقاعده عن المطالبة بحقوقه. وكان لا يزال إلى تلك الساعة جاثياً بين يديها فلما سمع قولها أحس كأنها صبت ماء غالياً على يديه، فوقف وقد غلب عليه الهيام وهان عليه كل شيء في سبيل إرضائها وقال: «يحق لك أن تعيريني يا فلورندا إذا كنت متقاعداً عن هذا الأمر، ولكن لكل أجل كتاب. وقد كنت أمسكت عن زيارتك على ألا أزورك إلا بعد أن

أحقق رغائبك، فطال سعيي ولم أصل إلى المرغوب فلم أعد أطيق الصبر على بعدك. وقد كنت خائفاً من فتورك ولكني رأيت فيك من الثبات في الحب ما زادني ثباتاً في مسعاي. فاعلمي يا فلورندا أن ما يتوكأ عليه هذا المختلس من أحزاب الروم عصابة ضعيفة، وإنما تمكن الأساقفة من تنصيبه رغبة في خدمة رومية، ثم إن أحزاب المملكة ضده، وفيهم القوط واليهود وكل مَن يكره الظلم. وليس هذا محل الإفاضة في هذا الشأن، ولكنني أقسم لك برأس أبي وإن كان مائتاً.. أن رودريك هذا لا يلبث أن ينزل ويعود الملك إلى أصحابه».

وكانت فلورندا تسمع كلامه وهي تنظر في وردة من ورود الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها، فتشاغلت بنثر أوراقها وهي تصغي لما يقول الفونس. فلما بلغ إلى قوله: «ويعود الملك إلى أصحابه»، رمت ما بقي بين أناملها من تلك الوردة، ورفعت بصرها إليه كأنها تتثبت من قوله أو تتفهم حقيقة ما يريد، ففهم مرادها فازداد تهوراً في تصوره، وأوهمه غرامه أنه قادر على كل شيء فمد يده ومس أطراف شعره المسترسل على كتفيه وقال: «وإذا كنت لا تثقين بقولي فإني أشهدك على نفسي وأشهد هذه الخالة أيضاً أن بقاء هذا الشعر حرام عليَّ إن لم أفِ بقولي».

فتحققت فلورندا أنه يُقسم صادقاً، ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينه وبين تلك الأمنية من العقبات، فأرادت أن تخفف من عهده فقالت: «لا حاجة بنا إلى هذه الأقسام، لا تعرض نفسك للخطر من أجل الملك فإنه مجد باطل. وإنما المراد أن نكون معاً في مأمن من أهل الاعتداء، ولو في كوخ من أكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون في الحرث والزرع!».

فأراد الفونس أن يجيبها فسمع صفيراً فبغت، والتفت فسمع

قرع الطبول وقرقعة اللجم فعلم أن موكب الملك راجع من الكنيسة. وقد وصل الموكب إلى القصر وهو لا يزال مستغرقاً في حديثه مع فلورندا، فندم وتحقق أنه أخطأ ولا بد من أن يُسيء رودريك الظن به. ورأته فلورندا قد بغت وسمعت هي مثل ما سمع فأدركت أنه أبطأ عن الاحتفال فقالت له: «اذهب الآن بسلام وليكن الله معك...». فأمسك يدها وودعها وهو يقول لها: «ادعي لي فإنك من الملائكة ودعاؤك مُستجاب واذكريني في صلاتك عساي أن أوفق لمرضاتك». فأجابته بإشارة من أهدابها وحاجبيها، فتحول نازلاً نحو القارب ليبعد به عن الحديقة ثم يركب فرسه إلى القصر من طريق آخر. وظلت فلورندا واقفة وهي تشيعه ببصرها حتى توارى فعادت إلى هواجسها والعجوز بين يديها، فرجعتا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام في نفسها بعد ذلك الحديث، وقد ندمت لتعريضها بأمر الملك وخافت أن يجر ذلك إلى حبيبها الأذى.

أما رودريك فقد سار بموكبه إلى الكنيسة في ذلك الصباح وفي نفسه شاغل من أمر الفونس لأنه كان يتوقع أن يراه في الموكب بين الحاشية. وكانوا قد زيّنوا الكنيسة للملك زينة باهرة بالرياحين وأضاءوا الشموع وأوقدوا البخور حتى انتشرت رائحته فيما جاور الكنيسة. وكانت أصوات المرتلين والمصلين تُسمع لمسافة بعيدة، والناس يتزاحمون لمشاهدة مركبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضاً، والمطلون من الأسطح والنوافذ أكثر من المارين في الأسواق.

ولما أقبل الملك بموكبه خرج الأساقفة لاستقباله ووراءهم وبين أيديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع، وبعضهم يحمل الصليب أو الكأس، وما إلى ذلك من شارات النصرانية. فترجل الملك عن بعد وترجل من كان معه، فكان أول من استقبل

الملك رئيس الأساقفة مُحيّيا، فانحنى الملك على يده وقبّلها وقبّل صليباً مرصعاً كان فيها. ومشوا في فناء الكنيسة الخارجي والأساقفة ورجال الكهنوت أمامهم حتى أقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فاجتازوا مدخلها، وهو يتألف من ثلاثة أبواب أوسطها أعظمها، عتبته العليا بشكل قنطرة مثلثة عليها نقوش محفورة تمثل الملائكة وبعض القديسين والأنبياء. فمشى الملك وعلى رأسه تاج من الذهب يشبه تاج الرومان وشعره مسترسل على كتفيه وظهره، وشعر لحيته وشاربيه مسترسل إلى صدره، وكل أشراف المملكة بين يديه بالشعور المسترسلة والقبعات المتشابهة، والكل مبتهجون بما يشاهدون من الزهو في ذلك العيد. وساروا في صحن الكنيسة بين أعمدة فخمة من الرخام النقي أو المرمر، منصوبة في ثلاثة صفوف من الغرب إلى الشرق يزيد عددها جميعاً على ثمانين عموداً، وعلو الكنيسة من صحنها إلى أعلى قبتها ٤٦ متراً، وطولها يزيد على مائة متر، وقد زادها فخامة في ذلك اليوم ما علقوه فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل المُنارة بالزيت أمام الصور، وقد تصاعد البخور وعلت أصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم عن سعي الكهنة في إسكاتهم.

ما زال الملك ماشياً حتى استقر على كرسي خاص به بجانب الهيكل، واستقر سائر حاشيته في مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب. أما الملك فكان يفعل مثل فعلهم وعيناه شائعتان في حاشيته من الجماهير كأنه يفتش عن ضائع. وكان في كرسي عن يمينه قسيس كان يلازمه دائماً فيقيم معه في قصره، ويصلي له صلاة النوم وصلاة الصبح، وهو الذي يعرفه ويرشده ويعزيه. وكان الملك لا يذهب في احتفال إلا اصطحبه، ولا يبرم أمراً إلا بمشورته، اسمه الأب «مَرْتين» وقد طعن في السن وشابَ شعره، ودقّ عضله، وتجعّد جلد

وجهه، واستطالت أسرّة جبهته، وغارت عيناه وزادهما إرسال شعر حاجبيه فوقهما غوراً واختفاء. وقد تساقطت أسنانه وانخفضت شفتاه حتى أصبح فمه وادياً بين جبلين. وكان في شبابه وكهولته سريع الكلام فلما صار أهتم خالط كلامه تمتمة تتعب السامع في تفهم ما يقول! ثم هو قصير القامة منتصبها مثل قامة الشبان، شديد التعلق بكرسي رومية لأنه رُبِّيَ فيها فشبّ روماني المبدأ والغرض، ولم يكن يحب جنس القوط على الإطلاق، وكان يحقد على «غيطشة» وأولاده بنوع خاص، لأن غيطشة كان يكرهه لشدة تعصبه لرومية، فكان لذلك من أكبر المساعدين على تنصيب رودريك، وكان رودريك لا يقطع أمراً إلا بمشورته. وكان في جملة مشوراته أن يضيق على الفونس ولا يسمح بغيابه عن القصر، وأن يكون دائماً بين يديه خوفاً من أن يُنشىء الأحزاب للمطالبة بالملك.

فلما وصل الملك إلى الكنيسة في ذلك اليوم كان أول شيء نبّهه إليه «مَرْتين» أن الفونس لم يكن في جملة فرسان الموكب. فتفرس الملك فيمن حوله فلم يجده بينهم فانشغل خاطره، ولكنه ما لبث أن شغل عن ذلك برسوم الصلاة وما تقتضيه من الانتباه لحركات الكهنة في أثناء القداس، على أنه كان يعود برهة بعد أخرى إلى البحث عن الفونس خلسة.

— ٢ —

انقضت الصلاة وخرج الملك إلى موكبه، وعاد إلى البحث عن الفونس فلم يجده، فركب ودعا الأب مَرْتين للركوب معه فقضيا مسافة الطريق يتساران في سبب تغيب الفونس ذلك اليوم. فلما دنا الموكب من القصر رأى الأب مَرْتين الفونس مقبلاً من ناحيته، مسرعاً على جواده، وكان عالماً بعلاقته بفلورندا فأدرك أنها هي سبب تغيّبه،

ولكنه اقتصر على تنبيه الملك إلى قدومه.

ولما وصل الملك إلى قصره ترجّل عند الباب الكبير وصعد بضع درجات عريضة من الرخام تؤدي إلى فناء القصر، ثم إلى باحة قائمة على أساطين تستطرق إلى بهو متفرع يؤدي إلى أجزاء القصر المختلفة وفي جملتها قاعة المجلس. فدخل الملك وقسيسه من طريق خاص يؤدي إلى تلك القاعة، ودخل رجال الدولة وفيهم وفود المهنئين من الطريق العام، فجلس الملك على عرش مرتفع من الفضة قوائمه بشكل قوائم الأسد والملك في الملابس الرسمية وعلى كتفه بردة من الديباج موشاة بالذهب، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة، وفي يده صولجان من الذهب أيضاً ينتهي بصليب مرصّع.

وكان رودريك في نحو الأربعين من العمر، ممتلىء الجسم، بارز الصدر والبطن، قوي البدن، تلوح في وجهه أمارات البسالة، عيناه جاحظتان كبيرتان، وحاجباه غليظان وشعر شاربيه طويل يزيد على طول شعر لحيته ورأسه، فجلس على عرشه وفوق العرش صورة كبيرة تمثل السيد المسيح مصلوباً، وعلى جدران القاعة صور دينية عديدة وجلس بجانبه الآب مَرْتين، وبين يديه رجال خاصته، ثم توافد الناس لتقديم التهاني وفي جملتهم الفونس الذي دخل وحيّى الملك وهنأه كما فعل الآخرون، وجلس في جملة الجالسين، فلما هموا بالانصراف أراد أن ينصرف مثلهم فأشار إليه رودريك أن يبقى، فأوجس خيفة من ذلك الاستبقاء ولكنه صبر، حتى إذا خلا المجلس ولم يبق في القاعة غير الملك والقسيس ناداه الملك فوقف بين يديه فقال له: «ما الذي أخّرك عن مرافقة الموكب في هذا الصباح يا الفونس؟».

فبغت الفونس ولم يكن مستعداً للجواب، لأنه لم يكن يظن

الملك يهتم لغيابه هذا الاهتمام ولكنه تجلد وأجاب: «كنت في شاغل عاقَني عن القيام بفروض الصلاة بين يدي جلالة الملك».

قال الملك: «من الغريب أن يتفق لك هذا الشاغل في تذكار عيد الميلاد، وفي ساعة خروج الموكب.!». قال ذلك، وحوّل نظره إلى صورة في الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها وتشاغل بتمشيط طرف لحيته بأنامله، فقال الفونس: «نعم إنه اتفاق غريب، ولكنه وقع ولا حيلة في وقوعه، وإني أتأسف لذلك».

وكان الأب مَرْتين في أثناء ذلك مشتغلاً بتلاوة بعض الصلوات أمام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لا يسمعه أحد، ولما فرغ من صلاته عاد وتزمل بردائه وأصلح قلنسوته، وجلس بجانب الملك وأصغى لما يدور بينهما. فلما رآه الفونس مهتماً بالأمر اختلج قلبه لعلمه بما يحمله له من ضغينة. أما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبله، ولكنه رأى من الحكمة أن يؤجل مناقشته إلى أن يقف على رأي القسيس فأراد أن يصرفه، ولكنه سمع القسيس يقول له: «يظهر أن انشغالك كان في قصر جلالة الملك، أو بجوار قصره». قال ذلك وتنحنح وتشاغل بمسح فمه بمنديله، فزاد استياء الفونس منه ولكنه خاف إذا أجابه أن يصرح بشيء آخر.

وأما الملك فإنه توسم في عبارة القسيس شيئاً كان يتردد في ذهنه فأراد أن يقف عليه منه على حدة، فلم يصبر على الفونس حتى يجيب، بل التفت إليه لفتة الاستخفاف والتهديد والإغضاء معاً وقال: «انصرف الآن يا بُني، واحترس أن تفعل ذلك مرة أخرى».

فأحس الفونس عند ذلك بفرح سكن له جأشه، وكأن ثقلاً كبيراً نزل عن صدره فتحول نحو الباب، وخرج وهو لا يكاد يرى شيئاً أمامه لعظم ما قام في نفسه من أسباب القلق. ولم يكد يخرج من

باب القصر حتى انتبه لنفسه، وتمثل له مركزه وما آل إليه أمره بعد خروج الملك من يده. فقد كان على عهد أبيه إذا مرّ من هناك تسابق الناس إلى تحيته، ولا يبقى أحد لا يقف له، وها هو ذا اليوم يمر والناس يتزاحمون في فناء القصر فلا ينتبه له أحد إلا الأصدقاء.. حتى هؤلاء أصبحوا يحاذرون الجهر بصداقته خوفاً من أن يسيء الملك ظنّه بهم!

خرج الفونس وقد هبّت في نفسه عوامل الغيرة، وكانت ألفاظ فلورندا لا تزال ترن في أذنيه فتذكر وعده إياها باستعادة الملك فزاده غيظه منه تمسكاً بوعده، فركب جواده وسار تواً إلى منزله وهو غارق في بحار الهواجس وقد هانَ عليه ركوب المخاطر في سبيل الانتقام لوالده واسترضاء فلورندا.

أما رودريك فلما خرج الفونس من مجلسه تظاهر برغبته في الاستراحة، فدخل غرفته الخاصة حيث جاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمي وألبسوه ثيابه الاعتيادية، وهو لا يخاطب أحداً منهم في شيء لاشتغال خاطره بالعبارة التي سمعها من الأب مَرْتين عن الفونس والقصر! فلما فرغ من لبس الثياب دعا الأب للغداء معه فجاء، وبينما هما على المائدة لم يخاطبه الملك في شيء لوجود الملكة معهما وهو يحب أن يبعد أمثال هذه الأمور عن ذهنها حتى لا تنتابها الغيرة، فلما فرغوا من الطعام قال الملك: «يا أبتاه أطلب إليك بعد ختام المائدة بالصلاة أن ترافقني إلى غرفتي..». ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لأن زوجها كثيراً ما كان يخلو بالأب مَرْتين مثل هذه الخلوة، للمخابرة أو المشاورة أو الاعتراف أو غير ذلك. فلما خلوا في الغرفة قال رودريك: «ما قولك في صاحبنا اليوم..؟».

قال: «إذا كنت تعني الفونس فأرى أن جلالة الملك قد بالغ في

الحلم والرأفة في معاملته.. كيف يتغيب عن موكب جلالتك لأعذار ما أنزل الله بها من سلطان؟». قال ذلك في عجلة، وبنغمة الاستغراب، بغية التأثير في الملك، ولو لم يكن رودريك قد ألف لهجته وتمتمته لما فهم منها شيئاً!.

قال الملك: «ولكنني سمعتك تشير إلى عذره إشارة لم أفهمها جيداً».

فأدرك الأب أن الملك يحتال في استطلاع ما بين الفونس وفلورندا وهو يتجاهل ويتظاهر بأنه يسأل سؤالاً بسيطاً، فسايره الأب على فكره وأجابه بنغمة البساطة قائلاً: «لم أقل شيئاً، وإنما قلت أنه تأخر في القصر..».

قال: «وأي قصر؟!».

قال: «وأي قصر؟.. قصر جلالة الملك.. كأن مولاي لا يعلم علاقته بذلك القصر..!».

قال وهو يبالغ في التجاهل: «لا أعلم أن له علاقة بهذا القصر بعد أن خرج الملك من أيديهم إلى يدي..!».

قال: «لا أعني علاقته بالملك.. بل أعني علاقته بفلورندا ابنة الكونت جوليان، التي أمر جلالة الملك بنقلها إلى القصر الصغير منذ بضعة أيام...».

فلما ذكر اسم فلورندا زفر الملك وخفق قلبه حباً وغيرة، ولكن أنفة الملك ثبتت عزيمته فتجلد كأن الأمر لا يهمه وقال: «أهي علاقة قرابة؟.. أم ماذا..؟».

قال: لا يُخفى على جلالة الملك أن بين الكونت جوليان حاكم سبتة والد فلورندا وبين غيطشة قرابة أظنها نسائية، ولكنني أعني

قرابة الفونس من فلورندا بنوع خاص...».

قال: «أي قرابة؟..».

فضحك مَرْتين وقال: «كنت أحسب الملك عارفاً بذلك، لأن خطبتهما مشهورة من قبل تولي جلالتكم عرش إسبانيا..».

فلما سمع رودريك ذلك عظم عليه الأمر، لأنه كان يحب فلورندا كثيراً ولم يكن يعلم بهذه الخطبة.. ولكنه لم يكن يخاف خروجها من يده اعتماداً على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها، وعوّل على أن يطمعها بالمال والسلطان، أو يتهددها حتى تترك الفونس وتعيش معه. ولم يشأ أن يطلع القسيس على ما يجول بفكره، فتظاهر باقتناعه بهذا الجواب ووقف، فأدرك القسيس أن الملك يريد الانصراف فوقف هو أيضاً وانسحب..

وكان بين غرفة الملك والقصر الذي تقيم فيه فلورندا ممر ليس من سبيل إليه سواه. فقد بُنِيَ على هذه الكيفية لمثل هذه الغاية، فعوَّل رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تقلع عن محبة الفونس، ولم يرَ أن يستقدمها إلى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك وهو إنما ينوي معاشرتها خفية عنها، فأغلق الباب المستطرق إلى قصره وفتح الباب المؤدي إلى قصر فلورندا...

وكانت فلورندا بعد ذهاب حبيبها قد انتقلت هي والعجوز من الحديقة إلى القصر وأخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً، ولكنها لم تلبث أن انشغلت بمراجعة ما دار بينها وبين الفونس في ذلك الاجتماع فندمت لما فرط من أقوالها المهيجة له على طلب الملك، وعمدت إلى الخلوة بنفسها لعلها تهتدي إلى ما يخفف هواجسها، فدخلت غرفتها وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج وتحجبها عنه شجرة من شجر اللوز قد تعاظمت أغصانها وتشامخت، حتى أصبحت

فلورندا إذا جلست إلى نافذتها لا ترى النهر إلا من خلال الأغصان التي كانت قد تجردت في ذلك الفصل من أوراقها، فما كادت ترسل نظرها خلالها إلى النهر وما وراءه حتى رأت القارب قد بعُد عن المكان فأرسلت أفكارها في فضاء الهواجس.

أما العجوز فإنها تحولت إلى أيقونة بجانب سرير فلورندا فيها صورة المسيح مصلوباً فجثت أمامها وقبّلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب إلى المسيح أن يحفظ الفونس ويوفقه، ويتم له الزواج بفلورندا، ولما فرغت من صلاتها قبّلت الصورة وخرجت، تاركة فلورندا في هواجسها، وأغلقت الباب وراءها، وأوصت الخدم ألا يقربوا الغرفة لئلا يزعجوها، على أن الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود إلى الطبقة العليا من ذلك القصر، بل كانوا يقيمون في الطبقة السفلى، فإذا أرادت فلورندا حاجة بعثت إليهم مع العجوز.

واستغرقت فلورندا في هواجسها أمام النافذة حتى نسيت نفسها وتعبت من التفكير، ثم أحست بالنعاس فاتكأت على سريرها وهي لا تزال في الحالة التي قابلت بها الفونس، فرأته في منامها قادماً نحوها ووجهه يطفح نوراً وأحبت أن تقبّله فلم تستطع، فانزعجت، وأفاقت وهي منقبضة النفس. وبينما هي تمسح عينيها لتتحقق أنها في المنام سمعت وقع خطوات، فنظرت فإذا بالعجوز داخلة من الباب وفي وجهها علائم الخوف، فجلست فلورندا وقد بغتت وقالت: «ما بالك يا خالة! ما وراءك؟».

قالت: «ما ورائي إلا الخير.. لا تضطربي!». وسكتت.

فازداد قلق فلورندا وصاحت بها: «ماذا جرى هل أصاب الفونس سوء؟!».

قالت: «معاذ الله.. ولكن الملك يدعوك إليه».

فلما سمعت ذلك اضطربت جوارحها، ونسيت هواجسها، وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت: «أين هو؟ وما الذي يبغيه مني؟». قالت: "لا أدري يا سيدتي، ولكني كنت في غرفتي أصلح بعض شأني فرأيت الملك بنفسه داخلاً دخول السارق فبغت لرؤيته، فسألني عنك وطلب إليَّ أن أدعوك إلى الغرفة الشمالية من هذا القصر، على أن تأتي حالاً بالحالة التي تكونين فيها!".

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذي كانت تخافه، ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جأشها ودنت من الأيقونة فقبّلتها، وصلّت إلى الله أن يشجعها وينقذها من مخالب الشرير، وطلبت إلى خالتها أن تصلي عنها أيضاً، ثم التفت بالرداء كما كانت ومشت وهي تتوسل إلى الله من أعماق قلبها أن ينجيها من هذه التجربة - ولا يرتاح المرء في مثل هذه الحالة إلا بالتوسل إلى القوى العلوية غير المنظورة!

مشت فلورندا كالذاهب إلى القتل! فلا غرو إذا اصطكت ركبتاها وارتعدت مفاصلها وودت أن تكون تلك الغرفة على مسافة أميال منها.. على أنها تشجعت باتكالها على الله حتى إذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات، وإذا بالملك قد خرج لاستقبالها إلى الباب وهو يبتسم لها ويرحّب بها، وقد خيّل له أن ابتسامته ستجعلها طوع إرادته، وأنه يكفي أن يظهر ارتياحه لمجالستها لتتفانى هي في إرضائه!

أما هي فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة، والانفة والعفة يتسابقان إلى قلبها، والغضب والخوف يتجليان في وجهها، وهو يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس إلى جانبه، فقالت وأمارات الحشمة والرزانة بادية في محياها: «لا يليق بمثلي أن تجلس

في حضرة الملك».

فقال وهو يضحك: «اجلسي يا فلورندا، فإني لم أدعك إليَّ لأحملك مشاق التجمّل ولكنني أردت أن ألاقيك وأنت في راحة وسعادة، اجلسي».

قالت: «العفو يا مولاي...».

فقطع كلامها وأمسك بيدها وأجلسها، فأحست لما لمست يدها يده كأن شيطاناً يمسها، فأجفلت، وجذبت يدها من يده، وجلست وهي تحاذر أن يلمس ثوبها ثوبه، فأحس رودريك باجتذاب يدها وكان قد شعر بلمس تلك اليد عكس ما شعرت هي به، فشق عليه ما بدا من نفرتها ولكنه حمله منها محمل الحياء فابتسم وقال: «لا ألومك يا فلورندا لما يبدو في وجهك من البغتة إذ تقفين لأول مرة بين يدي ملك الاسبان، ولكن اعلمي يا ملكة الجمال أني لم آتِ إليك بنفسي إلا لأدعوك إلى السعادة. ولا أريد أن تخاطبيني كما تخاطبين الملك، بل خاطبيني كما تخاطبين رجلاً يحبك ويهواك، ويريد أن يجعلك أسعد فتاة في هذا العالم!».

فلما سمعت فلورندا قوله تحققت قصده، ولكنها أحبت التخلص منه بالحسنى فوقفت وهي تقول: «حاشا لمثلي أن تكون غير خادمة حقيرة بين يدي ملك الاسبان الذي يتمثل الناس بشدة بطشه..!».

فقطع كلامها وقال: «وما يمنع أن تكوني حبيبتي أيضاً؟ بل أن تكوني مولاتي ومالكة زمامي وزمام مملكتي؟». قال ذلك وقد ثارت عواطفه واحمرت عيناه ورجفت شفتاه وهو يحاول التلطف بالكلام والاشارات، ولكن الخشونة ما زالت غالبة على لفظه وخلقه!

فقالت: «كلا يا مولاي لا يمكن أن أكون كذلك. وأرى

جلالة الملك قد فرط فيما وقق إليه في دنياه فإن هذا الموقف لا يليق بمثلي!».

فظنها لا تصدق عظم محبته لها، وإنها تخاف أن يكون عاملاً على مخادعتها، فوقف هو أيضاً وقال: «يظهر لي أنك لم تصدقي قولي.. ويحق لك أن تستغربي ما يبدو من تفريطي.. ولكنني أعترف لك يا فلورندا أنك قد مكلت قلبي وروحي، وتسلطت على كل جوارحي، فتعطفي عليَّ وتلطفي بالقبول».

قال ذلك وهو ينظر إليها وقد انحنى نحوها انحناء المتذلل المستعطف وبسط يديه وهما ترتعدان من شدة الهياج.. أما هي فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة فظلت على هدوئها وثبات جأشها وقالت بصوت هادىء: «أقبل ماذا؟».

فتوسم من سؤالها قرب قبولها فقال: «أن تكوني شريكة حياتي فتعيشين معي عيش السعادة والرفاء، وتكونين أنت الآمرة الناهية».

فنظرت إليه نظر التوبيخ والاحتقار وقالت: «وجلالة الملكة؟».

وكانت تلك العبارة أشد وقعاً من الصاعقة على رأسه ولم يكن يتوقع تلك الأنفة من فلورندا، لأنه لم يكن يعرف قيمة العفة ولا يدرك قيمة الحرية الشخصية، ولذلك كان يظن نفسه إذا ابتسم لفلورندا ابتسامة ترامت عند قدميه وسلّمت نفسها له، وقد فاته أن العفة أثمن مما في خزائن الملوك، وأسمى مما على عروشهم، وأرقى مما تبلغ إليه مدنيتهم، بل هي سيف قاطع تقف به الفتاة أمام الملوك وتحسب أنها أقوى منهم سلطاناً وأعز شأناً! ولذلك كان موقف فلورندا بين يدي رودريك موقف الملك أمام الملك، ولم يكن تواضعها في أول الأمر إلا رغبة في التخلص بالحسنى، فلما رأت استرساله في القول أجابته بكلمة اضطربت لها كل جوارحه، كلمة ذكرته ارتباطه

بزوجته الرباط المقدس الذي لا يجيز له مخاطبة سواها بمثل ذلك...

فساءه أن تخجله بتلك العبارة لما تتضمنه من التوبيخ والتعنيف، ولكنه تجاهل مرادها وظل على أسلوبه بالملاطفة فقال: «يا للعجب من جهالتك وغرورك..! أدعوكِ إلى السعادة والشرف، وأمهد لك الطريق إليهما وأنت تقيمين العقبات؟! ألا تعلمين يا فلورندا أن الأمر الذي أدعوكِ إليه ليس في هذه المملكة ولا في غيرها فتاة إلا وتنذر النذور للحصول عليه؟! تعقلي، وارجعي إلى رشدك، واعلمي أنك ترفضين سعادة لا ينالها إلا القليلات، وشرفاً تتطاول إليه أعناق ربات الحجال! وهل تجهلين أنكِ إذا أطعتني تنالين عزاً لم يحلم به أحد من أهلك، وأنك إذا ظللت على غيّك أسأت إلى أبيك، لأنني إذا رأيت منك الرضاء بما عرضته عليك جعلت والدك من أقرب المقربين من البلاط؟».

فلما سمعت قوله لم تصبر عن الغضب وأحست بسلطان لها يفوق سلطانه فخاطبته بما لا يُخاطب به الملوك وقالت وهي تشير بإصبعها إلى نفسها: «تزعم يا رودريك أنك تدعوني إلى السعادة والشرف، وأنت إنما تدعوني إلى الشقاء والدناءة؟ إنك بمخاطبتك إياي بهذا القول ولو تلميحاً قد أهنتني واستصغرتني. بل إنك بتوهمك قبولي ما تعرضه جعلتني أدنى خلق الله!.. فأقلع عن ذلك ودعني وشأني، فإنك صاحب عز وسلطان، ولك الرقاب والأموال، وأما أنا فليس لي إلا هذه الجوهرة.. أفتسلبني إياها؟.. وهل تظن أنك إذا أردت ذلك تستطيعه؟». وارتعشت يدها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة التأثر فاستطردت قائلة: «كلا لا يستطيع أحد أن يسلبني هذه الجوهرة، فإنها أثمن من خزائن العالم بأسره.. وهي سلاحي وترسي ودرعي، وهي سبيلي إلى السعادة الأبدية!».

فعظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رقصت لحيته في صدره، ولكن هيبة الحق وسلطان العدل غلبا على غضبه فلم يجسر على إهانتها. على أنه لم يقطع الأمل في قبولها فأراد مطاولتها بأن يخلط الجِد بالهزل فقال: «وهل ذلك الغلام أحق بكِ مني؟».

فلم يزدها قوله إلا عزيمة وثباتاً، وقد أدركت أنه يريد الحطّ من قدر الفونس فقالت: «مهما يكن من أمره فإنه نصيبي في هذا العالم، وهو خطيبي بشرع الله».

فازداد استغراباً لجسارتها وحدثته نفسه أن يجافيها ويستخدم القسوة في معاملتها، ولكنه أجّل ذلك إلى فراغ جعبة حيله من إقناعها بالملاطفة فقال لها: «يظهر يا فلورندا أن صغر سنك لا يزال غالباً على عقلك، ولولا ذلك لم تفضلي غلاماً لا شأن له ولا مقام على ملك ملوك الإسبان! ولكنني أعذرك على طيشك، وأبيح لك التفكير في أمرك حتى ترجعي إلى صوابك، ولا ترفضي النعمة التي أبذلها لك.. فلا تضيعي هذه الفرصة بما تتمسكين به من الأوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة.. وهذا آخر ما أبذله لك من النصيحة.. فتدبري أمرك».

فلما رأت أن التوبيخ لم يجد معه نفعاً/عمدت إلى إقناعه بنفس برهانه فسكنت اضطرابها وقالت بنغمة التعقل والرزانة: «يقول جلالة الملك أني أتمسك بالأوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة، فما قوله إذا علم أن جلالة الملكة تراود شاباً عن نفسه، وتطلب إليه أن يعيش معها ويكون شريك حياتها..!؟».

فلما سمع رودريك قوة حجتها مع ما في ذلك البرهان من التحقير له هاج غضبه، ولاح له أن يستخدم العنف في إقناعها، وهَمّ أن يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوي عن تمسكها بالفونس،

لأنه ظنها لم ترفض إلا لاغترارها به وتوهمها فيه القوة أو الثروة، وما زال يعتقد أنها إذا تحققت فقر ألفونس وضعفه تتركه وتطلب الكفة الراجحة، فلا ترى أفضل لها من ملك الاسبان.. وإنما توهم رودريك ذلك لأنه لا يفهم معنى الحب الطاهر ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية. وما درى أن القلبين إذا تعاقدا كانت السعادة كلها في تعاقدهما دون أن يكون للغنى أو الشرف دخل في ذلك، وتوهم أيضاً أنه إذا حقر ألفونس في عيني فلورندا يزهدها فيه فجاءها من هذا الباب وسكت عما سألته عنه من حيث امرأته فقال: «ألا تعلمين يا فلورندا أن الفونس من بعض أتباعي، وأن زمامه في يدي أفعل به ما شئت؟! يظهر أنك لا تعلمين ذلك.. ولعلك لا تزالين على ما كنت تعلمينه قبل خروج الملك من يده...».

لم يكن ذلك الطعن في الفونس إلا ليزيدها تمسكاً به وتفانياً في محبته، ولكنها خافت إذا أجابته جواباً عنيفاً أن يغضب عليه ويعمل على إيذائه. فأحبت أن تقنعه باللطف لعلها تخفف من غضبه، ريثما يفتح الله عليها بالفرج فقالت: «إذا صح أن الإنسان لا يجب أن يحب غير الذي يكسبه مالاً أو شرفاً، فما الذي حبب جلالة الملك في هذه الفتاة الحقيرة حتى أراد أن يجعلها سيدة أهل عصرها كافة؟ وإذا كانت القاعدة أن نهمل الفقراء وألا نحبهم فما أجدر مولاي الملك بأن يرذلني ويطردني من حضرته لأني لا أعد شيئاً بجانب سلطانه ورفعة مقامه!.. فأرجو مولاي أن يفعل ذلك فإنه أولى بمنصبه وأحفظ لكرامته...». قالت ذلك وقد توردت وجنتاها من عظم تأثرها وهياج عواطفها واصطكت ركبتاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف، ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة أطراف جدائلها بين أناملها ولبثت تنتظر جواب رودريك الذي تبين رباطة جأشها وقوة حجتها فرأى أن

يأتيها بالحيلة ويترك العنف إلى ما بعد فراغه من الحِيَل. . ذلك أنه لما آنس تمسكها بالفونس وتعلقها به تبادر إلى ذهنه أن إبعاده عنها يغيّرها ويحملها على قبول سواه، فتظاهر بأمر طرأ على خاطره بغتة فقال: «لا أزال أعتقد اغترارك بالوهم، وقد طرأ عليّ أمر يستعجلني إلى القصر الآن وما ذاك من حسن حظك، لأني أترك لك بذلك فرصة تعملين الفكرة فيها لعلك ترجعين إلى رشدك. فإذا لم ترجعي بعد هذه الفرصة فلا تلومي إلا نفسك!». قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة وترك فلورندا وحدها.

أما هي فقد سرّها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلاً للنجاة، فمشت نحو غرفتها وقد فاضت أشجانها وعاد إليها الخوف وتزايد اضطرابها، فلقيتها العجوز بباب الغرفة فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ولكنها ظلت سائرة حتى أقبلت على أيقونة المسيح فجثت أمامها وقرعت صدرها وقد خنقتها العَبَرات، وتحوّل تجلدها ورباطة جأشها بين يدي رودريك إلى الحزن والكآبة ولم ترَ لها فرجاً بغير البكاء فجعلت تتضرع إلى صاحب تلك الأيقونة بدموع حارة، وبعبارات صادرة عن قلب طاهر يتدفق محبة وتقوى.

فلما رأتها العجوز جاثية جثت إلى جانبها وصلّت معها وكلما قالت فلورندا عبارة أمنت العجوز لها. وكان في جملة صلاتها قولها: «أبعِد عني أيها المخلص هذه التجربة، وغيّر قلب هذا الملك ليرجع إلى طاعتك ويشعر بفظاعة الأمر الذي هو عازم على ارتكابه. . أرشدني يا رب إلى سبيل أنجو به من هذه الاشراك. . واحفظ عبدك الفونس من كل شر، واحرسه، وكن معه. . واجمعنا أيها المخلص لنعيش معاً بتقوى الله ومرضاته. . تحنن على هذه المسكينة الغريبة. . هذه الفتاة التعسة التي ليس لها ملجأ سواك. . أنت ملجأ البائسين والضعفاء. .

لا تسمح يا رب بوقوع هذا الشر في تذكار ميلادك المجيد..».

وكانت كلما قالت عبارة تقرع صدرها وخالتها تقول: «آمين» وهما تذرفان الدموع الثخينة. فلما فرغتا من الصلاة نهضتا، وأحست فلورندا بانبساط نفسها وارتياح ضميرها، وشعرت كأن الأخطار قد زالت عنها وقد ألقت متاعبها عند الله.. ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل الإيمان الوطيد. فإن أحدهم إذا أحدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر، وأذهب آثارها بالصلاة، والبكاء من أقوى مذهبات الانقباض، فكثيراً ما يشعر الإنسان بضيق فإذا بكى زال ذلك الضيق. ويغلب هذا الشعور في النساء أكثر مما في الرجال.

فلما زال اضطراب فلورندا جلست تفكر في سبيل نجاتها واستغرقت في الأفكار والعجوز جالسة القرفصاء تنظر ما يبدو منها.

— ٣ —

فلنترك فلورندا في تأملاتها ولنرجع إلى ألفونس، لنرى ما كان من أمره بعد ذهابه إلى منزله، ولم يكن منزله بعيداً عن قصر الملك، فلما وصل إليه ترجل وسلم الجواد إلى بعض الخدم وهمّ بالدخول، فأحس بشيء استوقفه فوقف لحظة ثم دخل حتى أتى غرفته، فرأى خادمه الخاص واقفاً ببابها ينتظر قدومه ليبلغ أوامره إلى مَن يريد.

وكان ذلك الخادم كهلاً قصير القامة، جاحظ العينين، أعقف الأنف، بارز الذقن، ذا لحية قصيرة منفصلة إلى شعبتين مخروطتي الشكل، بارزتين نحو الأمام، دبّ الشيب في طرفيهما ولا يزال أصل اللحية عند الذقن أسود أو هو كستنائي اللون.. وكان اسمه يعقوب. ولم يكن له عناية بتسريح شعره فكان الإهمال ظاهراً في لحيته حتى لقد تحسبها جذاذة نعجة تلبد صوفها وتشبك ثم نبشت أطرافها! على أن وجه الرجل كان على الإجمال مضحكاً لبروز الأنف وجحوظ العينين

وبروز اللحية على تلك الصورة. وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لا ينفك وجهه ضاحكاً. وكان قد رُبِّيَ في بيت غيطشة قبل تملكه، فلما ملك قربه منه وكان يثق به ويعهد إليه بأموره ويسر إليه كثيراً من آرائه، وأهل القصر يحسدونه على ذلك التقرب خصوصاً لأنه غير قوطي، لم يكونوا يعرفون أصله ولا كيفية وصوله إلى ذلك المنصب! حتى إذا ما دنا أجل غيطشة أوصى أولاده به وأوصاه بهم، خصوصاً الفونس، فقد أوصاه بالاعتماد على يعقوب في كل مهماته. وكان الفونس قد تعود احترامه والوثوق به من عهد والده ويعقوب يتفانى في خدمته. وقد لا يظهر لمن يراه لأول وهلة أنه ذو رأي أو همة لما يبدو في وجهه من ملامح المجون مع خفة الروح، ولكنه كان في مقام الجد من أكثر الناس جداً وهمة!

فلما وصل الفونس إلى غرفته استقبله يعقوب ضاحكاً وفتح له الباب فدخل دون أن يكلمه على خلاف عادته من ممازحته ومداعبته، فأدرك يعقوب أنه في شاغل مهم فوقف لا يخاطبه في شيء لئلا يعترض مجاري أفكاره أو يثقل كلامه عليه.. أما الفونس فأول شيء فعله عند دخوله الغرفة أن خلع قبعته عن رأسه، ونزع سيفه وعلقه على الحائط، وجلس على كرسي من الخشب بجانب نافذة تطل على مغارس طليطلة عن بعد. وأرسل بصره في ذلك الفضاء وما زال النهار صاحياً والجو صافياً.. لبث برهة لا يتكلم ثم التفت بغتة وصاح: «يعقوب!». فإذا هو بين يديه. فقال له: «هل جاء عمي إلى هنا في أثناء غيابي..؟».

قال: «كلا يا مولاي إنه لم يأت.. ألم تجده في الكنيسة..؟».

فتذكر الفونس الصلاة فتبادر إلى ذهنه أن عمه كان في جملة المصلين لأنه مطران (متروبوليت) ولكنه عاد فتذكر أنه بالنظر لما بين

عائلته وبين عائلة الملك من التباعد سار للصلاة في كنيسة أخرى. فقال ليعقوب: «أتظنه سار إلى الكنيسة؟ ولماذا لم تذهب أنت للصلاة أيضاً..؟».

قال: «كنت مشتغلاً بأمور البيت.. وقد صلّيت هنا.. ألا يكفي ذلك؟..».

قال الفونس وكأنه تذكر أمراً كان قد ذهب عن خاطره: «سامحني فإني نسيت وصية والدي ألا أسألك عن الصلاة.. ما رأيك في عمي المطران؟ إني في حاجة إليه». قال: «مر، وأنا أستقدمه على عجل ولو كان في رومية!». قال ذلك وتبسم فأدرك الفونس أنه يلمح إلى ما بينهم وبين رومية من التنافر. فاستحسن منه هذا المجون وقال له: «لا أظنه بعيداً بهذا المقدار.. إليَّ به».

فخرج يعقوب إلى غرفة الخدم فبعث خادماً يفتش عن المطران في الكنيسة وآخر يفتش عنه في بيته، وثالثاً في مكان آخر من مظانه، ورجع وهو في شاغل من أمر الفونس ولكنه لم يتجاسر على استطلاع أمره. فلما وصل إلى الغرفة أخبر الفونس بما فعله وظل واقفاً وهو يلاعب أطراف لحيته بين أصابعه وينتظر أمره، فلم ينتبه الفونس له لاستغراقه في هواجسه، وقد تزاحمت الأفكار في مخيلته وأكثرها بروزاً أمر الملك وكيف استبد رودريك فيه واستخف به، وكيف أنه بعد أن كان مطمح أنظار وجهاء المملكة أصبح مثل أحقرهم.. وفكر في وسيلة لانتزاع الملك منه فإذا هو قاصر من كل وجه، لا مال عنده ولا رجال، ولا شيء يقاوم به. ثم تذكر فلورندا وأنه عاهدها على إخراج الملك من يد رودريك، فكيف يرجع عن عهده عاجزاً مقهوراً؟! فتجسم لديه المصاب وثقل عليه الفشل، وندم على ما فرط منه بين يدي حبيبته من القسم، فضاق صدره، وصغرت نفسه، وغلب عليه

اليأس، فتناثرت الدموع من عينيه بالرغم منه والدمع يفرج الكرب حيث لا يرى المرء مخرجاً من ضيقه!

وكان يعقوب ما يزال واقفاً فسمع تنهد الفونس، ثم لحظ من بعض الحركات أنه يبكي، فأدرك أنه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه في خلوة فانسل دون أن يشعر به الفونس حتى جلس على كرسيه بجانب الباب، وقد اشتغل خاطره بالفونس فعزم على استطلاع أمره من المطران بعد مجيئه وقد كانت له عليه دالة كبرى.

ومضت برهة ثم عاد أحد الرسل وأنبأ يعقوب بقدوم المطران، فتذرع بذلك لمخاطبة الفونس فدخل عليه وأخبره بقدوم عمه. وكان الفونس قد فرغ من بكائه وذهب بعض انقباضه، فلما علم بقدوم عمه لم يسعه إلا الابتسام لشدة ما كان له من الثقة فيه لاشتهاره بسداد الرأي والتعقل، مع محبته لالفونس.

وكان اسمه أوباس (عباس) وهو طبعاً مثل الفونس يعتبر رودريك مختلساً، وكان قد بذل جهده في عدم انتخابه فلم يفلح، لأن حزب الأساقفة الرومانيين غلب على رأيه، ولأنه المطران الوحيد من أمة القوط، بينما سائر أساقفة طليطلة من الرومان أو الذين ينتمون لرومية، ولذلك غلب رأيهم.. وكان أوباس منذ تولي رودريك معتزلاً الأعمال إلا عند الضرورة. وكان في ذلك اليوم قد صلى صلاة العيد في منزله، ثم خرج بعد الصلاة للجلوس في حديقة المنزل لأنه لم يكن يطيق أن يرى رودريك في ذلك الموكب بدلاً من ابن أخيه، فلما جاءه الرسول يدعوه إلى الفونس لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعاً.

وكان أوباس حيوي المزاج، طويل القامة طويل الأطراف، عريض المنكبين والجبهة بارز الوجنتين والفكين، واسع الصدر، أسمر

اللون، غزير الشعر، خصوصاً شعر لحيته فقد كان مرسلاً على صدره إلى أسفل منطقته. وأصحاب هذا المزاج في الغالب أقوياء الإرادة مع علو الهمة وقوة البدن وعظم الهيبة. وهم كبار في كل شيء مارسوه من الحرب أو التجارة أو السياسة، لأنهم يمتازون غالباً عن أصحاب الأمزجة الأخرى ويفوقونهم في كل شيء. وكان أوباس مع ذلك بطيء الخطوات كثير التفكير، قليل الكلام جهوري الصوت، وكان قوله سديداً ورأيه صائباً.

وبعد قليل سمع الفونس خطوات عمه وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها فوقف لاستقباله، فلما دنا من باب الغرفة تقدم إليه وقبل يده فباركه، وتقدم يعقوب فقبل يده فباركه وهو يبتسم له مع أنه كان قلما يبتسم لأحد، ثم دخل الغرفة مع الفونس الذي أسرع بإغلاق الباب التماساً للخلوة، فنزع المطران قلنسوته فاسترسل شعر رأسه إلى كتفه وكان غزيراً جداً ولم يوخطه الشيب مع أنه في نحو الخمسين من عمره.

ونظر أوباس في وجه الفونس فرآه يبتسم، ولكنه تبين الدمع في عينيه وأثر الانقباض في أسرته فأثر منظره في نفسه فقال له: «ما لي أراك كاسف البال يا بُني..؟».

فلم يتمالك الفونس من إرسال دمعتين أخريين وهو لا يزال مبتسماً ولكنه تجلد وقد ارتاح لرؤية عمه فقال: «لا أظنني أشكو إليك أمراً لا تعرفه.. بل أظنك تشكو مثل شكواي أيضاً..».

فقال: «فهمت مرادك يا ولدي.. ولكن هذا الأمر الذي تشكو منه قد أصبح قديماً فلا بد من أمر حدث لك وجدد أحزانك».

قال: «صدقت يا عماه.. وأما ما جدد أحزاني فوقوفي بين يدي ذلك الوحش الكاسر في هذا الصباح وقفة خادم بين يدي

سيده.. وقفت وقد استصغرت نفسي حتى حسبتني ذبت حياء، ولا أدري ماذا كان يصيبني لو طال وقوفي.. ولما خرجت من القصر رأيت رجال الحاشية لا يعبأون بمروري بعد أن كانوا إذا مررت يتسابقون إلى تقبيل يديّ..!».

فقال أوباس: «وما الذي دعا إلى وقوفك هذا الموقف وعهدي برودريك قلما يدعوك إليه؟!».

فقال: «لأني تأخرت عن موكبه في هذا الصباح، فلم أدركه إلا وهو راجع من الكنيسة».

قال: «ما كان أغناك عن هذا التأخير فلم تكن تسمع تعنيفاً ولا تتحمل ملاماً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً... وما الذي أخّرك عن الاحتفال؟».

فلم يخجل الفونس أن يقص على عمه سبب تأخره لأن عمه مطلع على ما بينه وبين فلورندا من المحبة المتبادلة، وهو الذي وضع عربون الخطبة بينهما فقال له: «سبب تأخري أني زرت فلورندا في هذا الصباح بعد أن طالَ غيابي عنها. وأنت تعلم انقطاعي عن ذلك القصر وضواحيه منذ ابتُليت بمصيبة أبي. وكنت أحسب فلورندا تغيّرت فزرتها لأتحقق أمرها فطال الحديث حتى نسيت الموكب، فلم أنتبه إلا وهم عائدون من الكنيسة، فأسرعت للانضمام إليهم ولم أكن أظن الملك يرقب حركاتي إلى هذا الحد. فلما دخلت عليه استبقاني ما بعد خروج المهنئين وعنّفني تعنيفاً لم يكن شديداً في ذاته، ولكنه وقع على رأسي وقوع الصاعقة..».

قال ذلك وكادَ يشرق بدموعه، فلم يبال أوباس بهذه الدموع لاستصغاره مثل تلك الظواهر - ظواهر الضعف البشري - بل ظل ساكتاً في انتظار بقية الحديث. أما الفونس فلما رأى عمه لا يزال

مصغياً له استطرد الكلام فقال: «ومما زادني قهراً أن ذلك القسيس الهرم كان يحاول إيقاعي في الشرك حتى نبه رودريك إلى علاقتي بفلورندا... وكنت اقرأ سوء القصد خلال عينيه الغائرتين، ومن وراء ألفاظه المختلطة...».

قال: «أراك يا الفونس متهيّج العواطف كثيراً ولا فائدة من ذلك.. ولا عبرة بلفظ تسمعه أو إشارة تراها، فإنها حركات طائرة في الهواء. وما هي من الحقيقة في شيء.. فخفف عنك وارجع إلى صوابك، وابحث في الأمر بحثاً معقولاً».

فعجب الفونس لقول عمه، وشعر بصغر نفسه وضعفه، ولكنه لم يستطع امتلاك عواطفه فقال: «وكيف لا نعبأ بالأقوال.. وكيف أستطيع الصبر على الإهانة والاحتقار؟! أترضى يا عماه أن نكون أرقاء لذلك المختلس؟!». قال ذلك والحدة بادية في صوته، فأجابه أوباس بصوت هادىء: «لا».

قال: «فكيف تقبل هذه المعاملة وتقول إنها حركات طائرة في الفضاء؟ إنني لا أستطيع الصبر على ذلك.. إن الموت لخير من الحياة مع هذه الإهانة!».

فقال أوباس: «لا أقول إن الإهانة حركات في الهواء، ولكنني أرى الكلام الصادر عن الحدّة والغضب بلا روية، أشبه بحركات طائرة في الهواء لا فائدة منها..».

فخجل الفونس من ذلك التوبيخ اللطيف ولكنه ظل مندفعاً في تيار العواطف فقال: «أتلومني يا عماه على غضبي وقد قتلوا أبي واختلسوا ملكي، ثم ضيقوا عليّ في ذهابي ومجيئي كأني بعض عبيدهم!؟ ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك..؟».

قال وصوته لم يرتفع: «أريد أن تنظر في الأمر بعين العقل

وبالرويّة، لأن الحدة تذهب الرشد وتسوق إلى الخطأ. وربما يخيّل لك إذا رأيت هدوئي وصبري أني أقل منك استنكافاً من أحوال هؤلاء. ولكنني أفكر كثيراً وأقول قليلاً.. وسترى متى سكن جأشك ودار الحديث بيننا إني قضيت العامين الماضيين وأنا أسعى في الأمر الذي لم يخطر ببالك إلا اليوم.. وأنت إنما ذكرته على أثر انفعالك وغضبك، بعد أن لاقيت خطيبتك وعنفتك على ضعفك. وأما أنا فإني لا أندفع بالغضب، ولا أغضب للكلام الفارغ، ولكني أنظر بعين الحقيقة.. فقد كنت أتوقع منك هذه الحمية في أول يوم خرج فيه الملك من يدك، بقطع النظر عما يلحق بك من الإهانة، أو ما قد تسمعه من التعريض أو التوبيخ..!».

فلما سمع الفونس كلام عمه تهيب واتعظ لما آنسه فيه من الرزانة والجد وقوة العزيمة، وشعر بصغر نفسه لما تحمله من الضغط في السنتين الماضيتين دون أن يشكو فأراد أن يصلح ما بدر منه من دلائل الضعف فتحمس وقال:

«لقد أصبت يا عماه.. إني تهاونت في هذا الأمر ولم أكن أحسبك على هذا العزم، أما الآن فأشر عليّ. أشر عليّ بالذي أفعله لاسترجاع ما اختلسه هذا الرجل منا».

وكان أوباس منذ شرع في هذا الحديث قد أخذت علامات الانقباض تبدو في محيّاه فازداد هيبة وجلالاً، واستغرق في الأفكار وقد أرسل بصره من النافذة إلى الفضاء، فكان الناظر في وجهه يتبين استغراقه في الهواجس من ثبات بصره على لا شيء، كأنه ينظر إلى صور تمثلت في مخيلته منها المخيف المغضب، والمفرح المنشط.. وكانت ظلال تلك العواطف تتجلى في عينيه البراقتين، ولو أحسن الفونس الفِراسة لقرأ أفكار عمه في عينيه وأسرته، وكفى نفسه مؤونة

الاستشارة والمداولة. ولكنه لم يكن على شيء من ذلك فلما فرغ من كلامه صبر لسماع ما يقوله عمه، فإذا هو ما زال غارقاً في الهواجس وهو يلاعب أطراف جدائل شعره بأنامله كأنه لم يسمع شيئاً من ابن أخته. فتهيب الفونس منظره، ولم يجسر على أن يشوش عليه أفكاره فظل صامتاً.

مضت لحظات قليلة وكلاهما صامتان ثم فتح أوباس الحديث فقال: «هل أدركت يا الفونس المشروع العظيم الذي تعرض نفسك له وما هو الأمر الذي تطمح أنظارك إليه..؟».

قال: «كيف لا..؟ إني ألتمس أمراً هو حق لي لا ينازعني فيه أحد».

قال: «فهمت ذلك.. ولكن هل دبرت الطريقة التي تستطيع التغلب بها للقبض على أزمة الأحكام..؟».

قال: «أعرض لديك رأيي وأنت صاحب الرأي».

قال: «قل».

قال: «لا يُخفى على عمي العزيز أن القوة التي ساعدت رودريك على تسنم ذروة الملك إنما هي قوة الرومان خصوصاً الأساقفة. وأما رجال القوط أهلنا وعشيرتنا فإنهم لا يريدونه، وهؤلاء جماعة كبيرة إذا اتحدوا هم ورجالهم وأتباعهم تألف منهم جند كبير يغلب جند رودريك، فلا يصعب علينا إذ ذاك إخراج الحكم من يده، إما بالتنازل وإما بالقتال».

فابتسم أوباس ابتسامة مغتَصَبة دلت على استخفافه برأي ذلك الشاب قليل الاختبار ثم قال: «صدقت يا ولدي إن القوط أكثرهم على دعوتنا، ولكن هل تظنهم إذا دعوتهم إلى الحرب ينهضون؟ لا

أظن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حدود الكلام. ولا لوم عليهم، فهم يخافون على أرواحهم وأموالهم، على أن أكثرهم لا يرون بأساً من بقاء رودريك وغيره من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم في المذهب، فإنهم جميعاً تابعون لكنيسة رومية، وقد تغلب الأساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم، حتى نسوا جنسيتهم».

وكان أوباس يتكلم بصوت هادىء وتأن ولم يبدِ الهياج في عينيه إلا لما وصل إلى هذا القول، على أن الرزانة ظلت غالبة على حركاته. ولكنه سكت هنيهة والفونس ينظر إليه ويتوقع إتمام الحديث، فقال أوباس وهو يجدل شعر لحيته بين أنامله على سبيل التشاغل: «سامح الله ريكارد، فإنه هو الذي جرّ علينا هذا البلاء!».

فلم يفهم الفونس معنى هذا الكلام، أي أن ريكارد أحد ملوك القوط وكان من رجال الحرب والسياسة، حكم إسبانيا زمناً طويلاً في أواخر القرن السادس للميلاد.

فقال: «ما الذي ارتكبه ريكارد يا عماه حتى استوجب هذا الملام، والذي أعلمه أنه هو الذي حفظ لنا مملكة الإسبان ودفع الإفرنج (الفرنك) عنها؟».

قال: «صدقت يا ولدي إنه نجانا من الفرنك، ولكنه ألقانا فيما هو أعظم خطراً منهم».

قال: «وما هو ذاك؟».

قال: «ألا تعرفه؟ ألا تعرف أن ريكارد هو الذي أضاع جنسيتنا، وحلّ جامعتنا؟!».

ولم يفهم الفونس مراده فقال: «لا يا مولاي، فكيف كان

ذلك؟».

قال: «ألا تدري يا الفونس أن ريكارد هو الذي جعل مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) مذهب حكومة إسبانيا؟».

قال: «نعم. ألا تظنه فعل حسناً؟».

قال: «نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة أيضاً، وقد ربينا في حبها ولا بأس منها. ولكنني أنظر في الأمر من وجهه السياسي. أنظر فيه من حيث جامعتنا القومية. فقد جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون، وكانت هذه البلاد في حوزة الرومان فانتزعوها من أيديهم بالقوة وتسلطوا عليها. ولا يُخفى عليك أن مذهب أسلافنا الذي جاءوا به إلى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية، بل هو المذهب الأريوسي نسبة إلى أريوس الشهير. وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية، ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مائتي سنة ونحن على مذهب آريوس، وأهل البلاد على مذهب كنيسة رومية.

«ولا أخفي عليك أن ملوكنا الأقدمين لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يفقهوا علاقة الدين بالسياسة، ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترجاع سلطانهم بطريق الدين، فجعلوا يتدخلون في مصالح الدولة رويداً رويداً، ويبثون مذهبهم في الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض القرن، فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة أجداده واعتنق المذهب الكاثوليكي وجعله مذهب الحكومة الإسبانية، فاقتدى به رجال دولته وسائر أشراف المملكة، فتم النفوذ لرومية حتى أصبح مجمع الأساقفة الذي يجتمع في هذه المدينة يدير دفة الملك كما يشاء، وربما أتوا بالأوامر من رومية نفسها. وما زالت الكاثوليكية ديانة هذه المملكة إلى اليوم، ولم يبقَ

للآريوسية إلا أثر قليل جداً. ولا ريب عندي أن الذين استبدلوا الكاثوليكية بمذهبهم في أول الأمر إنما صنعوا ذلك مسايرة لريكارد لا عن اقتناع بالبرهان، لأن مذهب آريوس أقرب إلى أحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية».

فلما وصل أوباس إلى هنا أحس بأنه أفرط في الكلام بين يدي ذلك الغلام، وقد تحقق تفريطه مما بدا في وجه الفونس من دلائل الاستغراب لما غرس في ذهنه منذ طفولته من تقبيح الآريوسية، حتى إنه كثيراً ما سمع تقبيحها من عمه نفسه. وأدرك أوباس ما جال في خاطر ابن أخيه فاستدرك قائلاً:

«لا يغرب عن ذهنك يا ولدي إني لا أحبب إليك الآريوسية دون سواها، فإننا لا نفضل مذهباً على مذهبنا الحالي، ولكنني أخاطبك بلسان السياسة لا الدين، لأبيّن لك نتائج الخطأ الذي ارتكبه ريكارد سامحه الله. لأنه باعتناقه المذهب الكاثوليكي أضاع الجنسية القوطية ـ لأن الدين يا عزيزي أثبت الجامعات وأشملها. إذ قد يجتمع القوطي والفندالي والروماني واليوناني والسكسوني والعربي وغيرهم في بلد وهم أخلاط، فإذا تمذهبوا بمذهب واحد ضاعت جنسياتهم الأصلية بتوالي الأزمان وصاروا أمة واحدة!

«وهناك جامعة أخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب، أعني بها جامعة اللغة. فهذه أيضاً شاملة ولكنها في الغالب تابعة للدين. ألا ترى أننا بعد أن اعتنقنا المذهب الكاثوليكي أصبحت اللغة اللاتينية هي المتغلبة في كنائسنا ومجالسنا، لأنها لغة ذلك المذهب، وأخذت لغتنا القوطية في الانقراض أو الضياع؟ فلو ظللنا على الآريوسية واستبقينا لغتنا وعممناها في الشعب وحولنا أهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكي إلى مذهبنا الآريوسي، لكانت لغتهم لغتنا،

ومذهبهم مذهبنا، وصاروا من أنصارنا. ولكننا غفلنا عن ذلك فانعكس الأمر، وأصبح أولئك الرومان بعد أن أخرجونا من مذهبنا ولغتنا يحاولون إخراجنا من سلطتنا بما اكتسبه الأساقفة الرومانيون من النفوذ في أمور الدولة، حتى لا ترى في أوربا كلها مجمعاً دينياً له على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لمجمع طليطلة على حكومة إسبانيا!

«وأول مَن أحسّ بهذا الخطر من ملوك القوط والدك طيب الله ثراه. فإنه سعى في إنقاذ حكومته من نفوذ رومية حتى لقد سمعته يصرّح برغبته في الخروج من مذهبها أو سلطانها الكنائسي، وكان معظم أساقفة إسبانيا ممن تثقف في رومية وأشرب حبها وحب أسقفها الأكبر، فأكبروا غرض والدك وما لبثوا أن أنفذوا أغراضهم التي أتحاشى التصريح بها لأنها تؤلمني كما تؤلمك، ونصبوا رودريك هذا وهو روماني الغرض وإن ادعى أنه قوطي الأصل. وكان ذلك إفساداً لما كان المرحوم والدك قد أسسه».

وكان الفونس يسمع هذا الكلام بإصغاء وقد التذ بسماعه لذة عظيمة لما آنسه فيه من الفلسفة والحكمة مما لم يكن يخطر له من قبل. فلما بلغ إلى خروج الملك من أبيه لم يتمالك أن سأل قائلاً: «كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وأبناء غيطشة أحياء..؟».

قال: «حجّتهم في ذلك أن حق الملك عندنا انتخابي وليس وراثياً. إذ لو كان وراثياً لكنت أنت أولى الناس بهذا الأمر. على أن كونه إنتخابياً لا يقضي بحرمانك منه، وكان يجب أن ينتخبوك لأنك ابن الملك، وقد فعلوا ذلك غير مرة. ثم لولا ما ظهر خلال انتخابهم رودريك هذا من الأغراض القومية التي مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا».

ثم استأنف أوباس الحديث كأنه أفاق من غفلة وقال: «أراني

خرجت من دائرة الموضوع الأصلي. وخلاصة ما قدمته لك أن الذين تعدهم قوطاً وترجو أن ينصروك في قيامك ضد هذا الرجل، قد ضاعت جامعتهم الجنسية في الجامعة الدينية واللغوية، فربما كانوا أقرب إلى نصرته منهم إلى نصرتنا، فمثل هؤلاء لا يعتد بأقوالهم، ولا يعتمد على أحزابهم».

فلما سمع الفونس نتيجة البحث خاب أمله، لأنه إنما كان يتوقع شد أزره بأهل عترته. فلما تحقق ضياع أمله أحسّ بضعف عزيمته، وظل مطرقاً لا يُبدي حراكاً ولسان حاله يقول: «عجزت عن الحيلة!».

فلما رآه أوباس مطرقاً أدرك ضعف عزيمته فأراد أن يسبر غوره فقال له: «كأنك يئست من النجاح؟».

قال: «كيف لا أيأس وقد فرغت يدي من الرجال فضلاً عن فراغها من المال، ولم يكتف هؤلاء باختلاس الملك ولكنهم أخرجوني منه صفر اليدين. فهل تعلم إلى أين ذهبوا بأموال والدي؟».

قال: «إن أموال والدك قد أخذت بحق، لأن الملك رسيسويت الذي تولى هذا العرش منذ نحو ستين سنة سَنّ قانوناً يقضي برجوع أموال الملك وكل ما يقتنيه إلى خزانة المملكة، فلا ينبغي لنا أن نبالغ في إلقاء التبعة على عدونا بالباطل. أما السبيل إلى بلوغ منانا، فإذا ظننت قد فرغت يدك من الحيل فأخبرني لأبدي رأيي، وأرجو أن يكون سديداً».

فاستغرب القونس تنازل عمّه بهذه العبارة، وأشار بيديه وعينيه معبراً عما عجز لسانه من تفويض كل الأمر إلى عمه، لأنه أكبر عقلاً وأوسع اختباراً. فأصلح أوباس مجلسه استعداداً لحديث طويل، والتفت إلى ما حوله كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وإن كان على ثقة من

انفرادهما هناك. ثم وجه كلامه إلى الفونس قائلاً:

«اعلم يا بني أن الإنسان إذا عزم على أمر فلا بدّ له من النظر في عواقبه قبل الإقدام عليه، وإلا كانت العاقبة وخيمة. أنت تعلم أن الناس في إسبانيا طبقات منها: طبقة الأشراف، وهم أرباب الأموال والمناصب، ومنهم حكام الولايات وحكام المدن وأصحاب العقارات وغيرهم، ومنها رجال الأكليروس، ومنها طبقة المستخدَمين وهم رجال البلاط وخَدَمة الحكومة، ومنها أهل الحرف وهم من أواسط الناس وسكان المدن. وهناك الخدم والعبيد وهم كل ما بقي من أهل المملكة. ولا يُخفى عليك أن هؤلاء هم القسم الأكبر ومنهم حراث الحقول وخدَمَة المنازل ومعظم رجال الحرب. فإذا شئنا أن ننهض لانتزاع الحكم من هذا الرجل فلا بدّ لنا من الاستعانة ببعض هذه الطبقات. فلنبحث في أيها أقرب إلينا».

«إن الأشراف إما رومانيو الأصل، أو قوطيون. فالرومان طبعاً ضدنا. وقد بيّنت لك حال القوط فهم قد أضاعوا فوتهم في مذهبهم الجديد. فالأشراف لا فائدة لنا منهم، وكذلك أهل البلاط. أما الأكليروس فأنت تعلم أنهم علة هذا التغيير. وأهل الحرف بالنظر إلى إقامتهم المستطيلة في المدن قد أضاعوا الحماسة اللازمة في مثل هذه النهضة، زد على ذلك أن كلا منهم مشتغل بعمله وتجارته ويخاف ضياع أمواله القليلة، إذ لا يُخفى عليك أن بلاد أوربا كلها تقريباً مؤلفة من المدن والحقول. فأهل المدن لا يكادون يهتمون بما هو خارج مدنهم، وكل مدينة تهتم بنفسها، ونحن لا يكفينا القيام بأهل مدينة واحدة لأن رودريك صاحب جنود وأعوان، وسيستنجد بحكامه في الولايات، فنذهب ضياعاً.

«بقي علينا النظر في الطبقة الأخيرة من هذا الشعب وهي طبقة

الخدم والعبيد، فهؤلاء هم الجانب الأكبر ولا تستغني عنهم سائر الطبقات، ومع ذلك فإنهم مستبدون فيهم استبداداً عظيماً. ولا يُخفى عليك أن معظم هؤلاء العبيد إنما دخلوا في الرق على أثر الحروب، وهم رجال أشداء خصوصاً بعد أن تعودوا العمل وعانوا الشقاء لاشتغالهم في الحقول. فإن عقارات الأشراف وبيوتهم وأموالهم كلها في قبضة هؤلاء العبيد، عقارات الأشراف وبيوتهم وأموالهم كلها في قبضة هؤلاء العبيد، ومع ذلك فإنهم مظلومون يقاسون من أسيادهم عذاب الذل ـ وناهيك بعذاب الرق ـ وأنت تعلم أن هؤلاء الأرقاء لا ينقصون عن أسيادهم شيئاً من المواهب الطبيعية ولكنهم تعودوا الخضوع لهم والخوف من أصواتهم، حتى أصبحوا أطوع لهم من أيديهم. فكل ما للعبد فهو لسيده، لا يقدر أن يعمل عملاً إلا بأمره حتى الزواج!. وكل ما اكتسبه العبد بالقصد أو بالاتفاق أو بالتجارة أو بالحرب ـ حتى أولادهم ـ فإنهم كلها لسيده الذي له أن يبيع العبد أو أمتعته أو أولاده بدون معارض!.

«على أن أولئك الأسياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية مكافأة على عمل عظيم صدر منهم. غير أن هذه الحرية قلما تمتاز من الاستعباد فإن المعتق لا يزال تحت أمر سيده، فإن عمل عملاً فلسيده نصف ما يكسبه من ذلك العمل. وإن أراد أن ينتقل من خدمته وجَب عليه أن يرد له كل ما معه من الأسلحة أو الأثاث. ولا يعد ذلك المعتق من زمرة الأحرار الأصليين إلا في الجيل الرابع من أولاده.. ولست أطيل الكلام عليك لأنك تعلم كثيراً من أفعال هؤلاء الأرقاء، ولكنك قلما فكرت فيما يقاسونه من الخسف والظلم، وربما لم يخطر لك أنهم من جبلة مثل جبلتنا. ولا لوم عليك لأنك شببت وأنت تراهم على هذه الحال».

فلما بلغ أوباس إلى هنا وقف وتنحنح، وتفرس في الفونس ليرى أثر أقواله فيه فرآه منصتاً بكل جوارحه لسماع ما يقوله عمه، فعاد أوباس إلى حديثه فقال: «فالأمر الذي أوجه التفاتك إليه يا ولدي إن أقوى طبقات الشعب هم أولئك الأرقاء المظلومون، وهم أكثر عدداً وأقوى أبداناً وأصبر على الشقاء، فإذا اتخذناهم أعواناً لنا في هذه النهضة قلبوا المملكة رأساً على عقب. وقد لا نحتاج إلا إلى تظاهرهم بالقيام، وإذا اتحدوا أرعبوا الملك وحكامه وأشراف مملكته فننال المراد بلا حرب ولا سفك دماء. ولكن ما الذي يجمعهم، أو كيف يمكننا أن نجعلهم حزباً لنا؟».

وكان الفونس يتطاول بعنقه لسماع حديث عمه وقد رأى الصواب بادياً في كل كلمة من كلماته، لكنه لم يكن يتوقع منه هذا الاستفهام، ولذلك ارتبك في الجواب! أما عمه فإنه لم يطرح السؤال عليه لاستماع الجواب، ولذلك عاد يقول: «إعلم يا بُنَي أن الوسيلة التي يجب أن نتخذها لجمع كلمة هؤلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا إنما هي من أفضل الوسائل وأشرفها، بل هي فضيلة تبقى لنا ذكراً مدى الدهور ويحسدنا عليها كل مَن ملك هذه البلاد قبلنا، وننال عليها الجزاء الحميد من الله سبحانه وتعالى. أتعلم ما هي؟».

فلم يهتم الفونس بالجواب هذه المرة، لأن ملامح عمه كانت تشير إلى أن الجواب آت. ثم قال أوباس: «إن الوسيلة يا بُنَي لجمع كلمة هؤلاء إنما هي أن نهبهم الحرية ونجعل لكل مَن ينضم إلينا منهم حقاً في نيل حريته بعد أجل معين، وإذا نال تلك الحرية كان كسائر الأحرار مرة واحدة لا يقاسمه أحد في أتعابه أو مكاسبه، على أن يكون ذلك مرتهناً برجوع الملك إليك، وإنك متى توليت عرش إسبانيا هويت الاعتاق، وسهلت الطريق إليه على كيفية ترغب أولئك

المظلومين في نصرتك».

فسُحِرَ الفونس بما سمعه من عمه، وأحس بما بينهما من التفاوت في المدارك والقوى، وخيّل له أن الأمر قد تم له ما يروم حتى أصبح كأنه يرى زمام الملك ويهم بالقبض عليه!. ولم يكن الفونس بليد العقل إلا بين يدي عمه، وذلك لما له من السلطان على عقله ورأيه، فلم يتمالك أن تناثرت من عينيه دمعتان من دموع الفرح وانحنى على يد عمه ليقبّلها، فاجتذب أوباس يده وهو لا تهزه عاطفة فرح ولا غضب، ولكنه أطلق ضحكة اصطنعها، ثم ألقى يده على كتف الفونس وقبض عليها بقوة، فأحس هذا بشدة تلك القبضة، وتوقع أن يسمع شيئاً بعدها، فإذا بأوباس يقول: «رأيتك اقتنعت بما سمعته ولم تعمل فكرتك للبحث فيما يحول دون عملنا هذا من الحواجز!».

فأجفل الفونس وخاف ضياع آماله بعد أن أوشك أن يعتقد نيل بغيته، وفكر فيما عسى أن تكون تلك الحواجز التي قد تقف في سبيل ذلك المشروع. ولكنه قبل أن يهتم بالجواب سمع عمه يقول: «لا أظنك تجهل ما يحتاج إليه مشروعنا هذا من الأموال للإنفاق على الجند، وابتياع الأحزاب، وإنشاء المعاقل وإغراء الأعداء».

فلما سمع الفونس ذلك عاد إلى اليأس لعلمه بخلو يديه ويدي عمه وسائر أهله من مال يكفي لهذا العمل، واستغرب اغتراره برأي عمه الأول وتخيّله وصوله إلى الغرض المقصود مع أن مسألة المال لم تكن لتخفى عليه، وقد كان قبل هنيهة يشكو إلى عمه خروجه بعد موت أبيه صفر اليدين! على أنه إنما اغتر بذلك لشدة اعتقاده - منذ طفولته - بسداد رأي أوباس، لأنه ما برح منذ كان يدب ويحبو يرى عمه يأتي إلى أبيه بلباس الكهنة والكل يحترمون رأيه ويهابونه فشب على

الاستسلام له، فإذا قال أوباس قولاً سلم هو به واعتقد صوابه بلا روية ولا تبصّر. . وكذلك كان شأنه معه فيما دار بينهما في ذلك اليوم، فلما سمع الفونس ذكر المال تحقق أنهم يتداولون عبثاً ولم يتمالك أن بدا أثر القنوط في وجهه فظل ساكتاً وفي سكوته ما يغني عن الجواب!

أما أوباس فلما رأى ابن أخيه قد سقط في يده وضاقت المذاهب عليه، ابتسم ابتسامة أخرى وقال: «هل يئست يا ألفونس؟ ما أسرع ما ترجو وما أسرع ما تقنط! لا تيأس يا بُنَي أني لا أدع ثقتك العمياء في عمك تذهب هدراً. وإني لم أقض هذين العامين نائماً. نعم إني أخاطبك على سبيل المداولة ولكنني في الحقيقة أعرض عليك مشروعاً رتبته وسبرت أغواره ودبرت كل شؤونه، ولولا ذلك لم أرض بالخوض فيه معك!». قال ذلك ونهض، فنهض الفونس معه وهو لا يدري معنى ذلك النهوض، ولكنه أصبح لا يطيق صبراً عن سماع تتمة الكلام ليرى ما دبره عمه من الوسائل للحصول على المال. على أنه لم يجسر على سؤاله فظل صامتاً في انتظار الجواب. أما أوباس فإنه تناول قلنسوته ووضعها على رأسه، فظنه الفونس يهم بالخروج، ولكنه ما لبث أن سمعه ينادي «يعقوب». وما عتم إن رأى يعقوب داخلاً يهرول ولحيته وأنفه يسبقانه حتى وقف بين يدي أوباس وفي وجهه ابتسامة تدل على ما في نفسه من الاطمئنان. فلما دخل جلس أوباس وأشار إلى الفونس أن يجلس ففعل، ثم قال ليعقوب: «إجلس».

فأظهر يعقوب البغتة وقال: «حاش لي يا مولاي أن أجلس بين يديك أو يديّ سيدي، (وأشار إلى الفونس) وإنما يكفيني أن تأذن لي في الوقوف».

فضحك أوباس ـ ويندر أن يضحك لغير يعقوب ـ ومدّ يده إليه حتى أمسك بإحدى شعبتي لحيته وشده بلطف حتى أقعده على طنفسة في أرض الغرفة، ثم تظاهر بالإجفال وأرجع يده ومسح أطراف أنامله بمنديله وهو يقول: «متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب، أما آن لك أن تغتسل؟!».

فلّما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغتة، وذهبت عنها ملامح المجون وبدا الجَد في عينيه وقال: «سيادتكم أعلم مني. ولكنني أرجو أن يكون ذلك قريباً!».

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب، خصوصاً بعد أن رأى ذلك التغير في وجه يعقوب، ولكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول: «وأنا أرجو ذلك أيضاً. ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة، فهل تدفعها؟».

قال: «نعم إني لا أدّخر مالاً ولا ولداً ولا نفساً في سبيل غسلها كما تعلم!».

فلم يزد الأمر لدى الفونس إلا غموضاً وإبهاماً، ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى، ولا لتلك الألغاز مغزى، وشق عليه أن يتحول موضوع المداولة من الجَد إلى الهزل وهو لا يعرف عمّه يميل إلى المزاح إلا قليلاً، وأكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب، فحمل كلامهما محمَل المزاح وظلّ ساكتاً يتوقع العود إلى الموضوع الأصلي.

أما أوباس فقال: «إني أعلم ذلك يا يعقوب وقد آن لي أن أسعى في غسل لحيتك، فهل أنت واثق من المال مهما كبُر مقداره؟».

قال: «نعم يا سيدي وأنت تعلم ذلك».

قال: «قد كنت أعلمه، ولكن هل حدث تغيير أو تبديل؟».

قال: «كلا يا مولاي. نحن على ما نحن عليه».

فأطرق أوباس مدة طويلة لا يتكلم، واستغرق في الأفكار كأنه يحل معضلة، ويفكر في أمر طرق ذهنه في تلك الساعة، ثم وقف فوقف يعقوب والفونس. فقال للأول: «أحب أن أراك الليلة في منزلي».

فأشار بيديه وعينيه وشفتيه أن «سمعاً وطاعة». وخرج وأغلق الباب وراءه.

توقع الفونس بعد خروج يعقوب أن يسمع من عمه ما يزيل ذلك القلق عنه، فلما رآه جلس، جلس مثله، وأصاخ بسمعه وهو ينظر إليه كأنه ينصت لما يقوله، فسمعه يقول: «طب نفساً يا الفونس. إن المال تحت يدي عند الطلب، ولا بدّ من جلسة أخرى أشرح لك فيها التفاصيل وأرتب الخطة التي يجب أن نسير عليها في هذا العمل الخطير».

فقال: «ولكنني لم أفهم علاقة ذلك بخادمنا هذا وبلحيته!».

قال: «ستطلع على سر ذلك الليلة إن شاء الله.. هل تأتي معي منذ الآن إلى منزلي فنتناول الطعام معاً؟ ولكن لا.. فإني أفضل أن تبقى هنا لأخلو بنفسي وأرسم الخطة التي يجب اتباعها في هذا المشروع». قال ذلك ونهض وتحول نحو الباب وهو يمشي الهوينا على عادته، والفونس يقتفي أثره ليودعه عند خروجه. وقبل وصولهما إلى باب الغرفة سمعا قرعاً عليه ثم دخل يعقوب وفي يده كيس صغير من الحرير الأرجواني، مسطح الشكل كان فيه كتاباً، وقد عقد بشريط من الحرير الأزرق، ما كاد الفونس يراه حتى خفق قلبه لعلمه أنه من فلورندا، إذ كثيراً ما كانت ترسل إليه الكتب فيه فأسرع إلى الكيس وتناوله وسأل يعقوب عمن حمله إليه فقال: «أحد خدم القصر

الملكي».

وكان قد شرع في فضه قبل سماع الجواب، فلما فتحه استخرج منه قطعة من الخشب مربعة الشكل، قد كُسِيَ سطحاها بالشمع وكتب عليها حفراً بقلم من حديد ـ وقد كانت هذه إحدى وسائل المكاتبة في تلك الأيام قبل اختراع الورق بأجيال ـ فتناولها وتحول نحو النافذة وقد نسِيَ وداع عمه وأخذ يتلوها بنفسه، ولم يكد يصل إلى آخرها حتى ارتعشت أنامله، وتغيّرت سحنته. وكان أوباس لما رأى الكتاب توسم فيه جديداً فتغافل عن الفونس ريثما يقرأه، لكنه ما لبث أن رآه يقلبه ويعيد تلاوته وهو يوجهه نحو النور الداخلي من النافذة ويتفرس في الكتابة بعينيه كأنه يشك في قراءتها، وقد امتقع لونه وارتعدت أنامله وبانَ الغضب في أسرّته، فظل أوباس ينظر إليه ثم أغلق الباب ليخلو به من جديد. وكان الفونس قد شعر بحركة إغلاق الباب فانتبه، فإذا عمه يمشي نحوه في هدوء وينظر إليه نظرة خففت ما قام في نفسه على أثر تلاوة الكتاب، فحاول التجلّد تشبهاً بما كان عليه عمه من سعة الصدر، ولكن التأثر كان غالباً على منظره، فتقدم نحو عمه وبيده ذلك الكتاب فقدمه له وهو يقول: «ويلاه لا ننجو من شر إلا ونقع فيما هو شر منه. وكل مصائبنا من ذلك المختلس السافل!».

فمد أوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة، وتفرس فيه فإذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بألفاظ قوطية حفراً في الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه:

«حبيبي ألفونس

«إن الأمر الذي خفته من انتقالي إلى هذا القصر قد أوشك أن يقع، فأنا في خطر بين براثن الأسد، إلا إذا أسرعت إلى إنقاذي! أنت

تزعم أنك تحب فلورندا فأسرع إلى إنقاذها قبل أن تفوت الفرصة. وإلا فإن ما بقي من حياتها لا يتجاوز ساعات قلائل إذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر. فإذا لم يكن لي نصيب من النجاة فإني أستودعك الله، وأطمئنك إني ذاهبة شهيدة العفاف والطهر. فاذكرني بين يدي إلهي، وموعدنا الأمجاد السماوية في أحضان الآباء القديسين.

«كتبته فلورندا المسكينة»

فلم يكن أوباس أقل تأثراً لما قرأه من الفونس، ولكنه كان أثبت منه جأشاً وأصبر على الطوارىء. وقد أحسّ أنه مسؤول عما قد يصيب فلورندا من السوء وهو الذي وضع عربون الخطبة بينها وبين الفونس الذي لم يعد يستطيع صبراً فقال: «أعذرني يا عماه فقد نفد صبري ونسيت كرسي الملك، وأنت الذي باركت عربون الخطبة بيننا فأنت مطالب بإتمام العقد، فضلاً عما أنت مكلّف به من ذلك بواجب القرابة. ومهما يكن من الأمر دبرني برأيك».

فالتفت إليه بهدوء ورزانة ويده على لحيته يسرحها بأصابعه وقال: «طب نفساً يا ولدي... إنني مخرج فلورندا من قصر الملك وهي في خير إن شاء الله». ثم أطرق وأعمل فكره وهو يصعد بحاجبيه ثم يقطبهما بما يدل على استغرابه وحيرته ثم قال: «إني لأعجب من أمر هذا الرجل واشتغاله عن أمور رعيته بما لا يرضي الله ولا عبيده، ولكن ذلك من الأدلة القاطعة على قرب سقوطه وذهاب ملكه، لأن الله لا يؤيد ملكاً يخالف وصاياه!». وكان الفونس غارقاً في بحار الهواجس، وقلبه يتقد غيرة على فلورندا. ولما تشاغل عمه عنه بمناجاة نفسه أعاد النظر في كتابها فوقف بصره عند قولها: «إني ذاهبة شهيدة العفاف والطهر!». وفكر فيما ينطوي تحت

هذه العبارة من المعاني المثيرة للغيرة، ثم سمع عمه ينادي يعقوب، ورأى هذا يدخل وقبعته في يده قائلاً: «لبيك يا مولاي».

قال: «هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يمكننا الوثوق من أمانتهما إذا كلفناهما القيام بمهمة، ولو كانت ضد هذا الطاغية صاحب كرسي طليطلة اليوم؟!».

قال: «أنا يا سيدي».

قال: «إنا ادخرناك لمهمة أخرى، ولكننا نحتاج إلى شابين أو ثلاثة تثق بأمانتهما ونشاطهما وبسالتهما. لأن الأمر يحتاج إلى الإقدام والشجاعة والأمانة».

فأطرق يعقوب وقد أمسك طرف لحيته بأنامله وجعل يفتله بين السبابة والإبهام حتى أصبح مثل طرف الحبل لما كان يتخلل الشعر من الأوساخ! . فعل ذلك وهو مستغرق في الأفكار، ثم حرك أنامله بغتة فأعاد اللحية إلى ما كانت عليه والتفت إلى أوباس وفي وجهه أمارات البِشر وقال: «قلما أثق بأحد من هؤلاء، وإن يكن معظمهم نشأوا في بيت مولاي وعاشوا على مائدته، لأن الإنسان أضعف من أن يضحي نفسه في سبيل صدق ضميره. ولكنني أعرف اثنين فقط أظنهما أهلاً لهذه الثقة».

قال: «ومَن هما؟».

قال: «هما أجيلا، وشنتيلا».

فقال أوباس: «وكيف اخترت هذين وليس منهما من ربي في بيت الملك؟».

قال: «اخترتهما لاعتقادي باقتدارهما على هذه المهمة، ولأنهما ما زالا طامعين في الارتقاء، إذ لا يُخفى على مولاي أنهما كانا من

طبقة العبيد وقد حررهما المرحوم أخوك وألحقهما بحاشيته لما آنسه فيهما من الكفاءة والشهامة. وقد ظهر لي بعد تخلصهما من العبودية أنهما طامعان في المزيد من شأن من يذوق طعاماً لا يعرفه، فإذا استطابه زاد في اشتهائه فطلب منه المزيد. وهذان الشابان ولدا في مهد العبودية ونفساهما من أنفس الأحرار، فرأى الملك المرحوم عظم نفسيهما في حديث يطول سرده فمنحهما الحرية وألحقهما حاشيته. فإذا كان في المهمة التي تنتدبهما لها ما يحقق أمنيتهما، تفانيا في سبيلها وإلا اعتذرا عنها دون أن يخونا».

قال: «أراك بارعاً في فلسفة الأخلاق، وإذا كان الغروب تعال إلى منزلي وهما معك».

قال ذلك وحوَّل وجهه إلى الفونس، ففهم يعقوب أنه يطلب خروجه فخرج. أما الفونس فكان قد عاد إلى هواجسه فلما أقبل عمه إليه سأله: «بماذا نرد على هذا الكتاب؟».

قال: «اكتب إليها أن تكون على أهبة السفر في الساعة الثانية بعد الغروب، وإنك ستلاقيها في القارب بجانب القصر!».

فتناول الفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليه أيضاً وكتب إليها ويده ترتجف ما معناه:

«إلى مليكة القلب فلورندا

«لبيك يا حبيبتي، إني موافٍ القصر في الساعة الثانية من الليل القادم. فتهيئي للخروج بما تستطيعين حمله، واشرفي من النافذة المطلة على النهر، فإذا رأيت نوراً مثلثاً فاعلمي أنني في انتظارك. تشددي وقوي قلبك ولا تخافي».

«كتبه محبك الذي يفديك بروحه»

وطوى الكتاب وخاطه، وجعله في الكيس الأرجواني وختمه ودفعه إلى يعقوب على أن يرجعه إلى الرسول الذي جاء به، ويوصيه بالاحتفاظ به لئلا يطّلع عليه أحد. فتناول يعقوب الكتاب وخرج.

وكانت الشمس قد تجاوزت الأصيل، فأخذ الفونس يتأهب للخروج مع عمه إلى منزله للمفاوضة هناك فيما يفعلونه، ولشدة ما أصاب الفونس من البغتة كان ما زال مستغرباً ما سمعه عن يعقوب من الأسرار المكتومة. وكان الطقس قد تبدل فتلبدت الغيوم وتغلب البرد، فلبس الفونس قباء من الفرو السميك، والتف عمه بردائه الأكليريكي وكان البرد قلما يؤثر فيه. وفيما هما يتأهبان للخروج وكلّ منهما يفكر في أمر على حدة، فُتِحَ الباب بغتة ودخل يعقوب، وفي يده أسطوانة من جلد بلون القرمز، فعلم أوباس أن فيها كتاباً من رودريك فقد كانت كتبه إلى عماله وأمرائه تُكتب على الجلد وتُلف وتوضع في أسطوانة من جلد العجول المدبوغ بلون القرمز. فلما وقع نظر الفونس على تلك الاسطوانة تقدم لتسلمها فاعترضه عمه وتناولها وقال ليعقوب: «مَن جاء بها؟».

قال: «جاء بها شرذمة من فرسان الملك وقد سألني رئيسهم عن سيدي الفونس هل هو هنا فأردت استمهاله لأعود إليه بالجواب فابتدرني قائلاً: «اخبرني حالاً فإني مأمور بإيصال هذا الكتاب إليه على جناح السرعة حيثما كان، فقلت إنه هنا، فدفع إليَّ الكتاب وقال إنه ينتظر».

فنظر أوباس في ختم الاسطوانة فإذا هو ختم الملك نفسه ففضه وأخرج الكتاب فإذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الأوامر، وكانت الرسالة مطوية فنشرها وقرأ ما فيها، والفونس واقف إلى يساره يتطاول لقراءتها، فإذا هي أمر رسمي من رودريك

إليه يقول فيه ما معناه:

"من رودريك ملك القوط.

«باسم الأب والابن والروح القدس

«إلى الشجاع الباسل عزيزنا الفونس، سلام، وبعد، فقد بلغنا أيها العزيز أن بعض العبيد والمَوالي في كوتنية (...) قد تمردوا وتواثقوا على مقاومة حكومتنا هناك. فإذا أتاك كتابي هذا فأسرع إلى مقر جنودنا في طليطلة، فإن فرقة من الجند في انتظارك لتذهب تحت قيادتك إلى تلك المدينة لإخماد الثورة. ولا بدّ من العجلة ويدلك على استعجالنا أننا كتبنا هذا الأمر في يوم العيد الذي لا يجوز العمل فيه، فلا تتوان في إنفاذ أمرنا هذا والسلام.

«كُتب في قصر طليطلة في الخامس والعشرين من شهر ديمسبر سنة ٧١٠».

وما جاء الفونس على آخر الكتاب حتى اسودت الدنيا في عينيه وصاح لشدة هياجه: «لا أذهب. لا أذهب..!».

فالتفت أوباس إليه لفتة الاستصغار وقال له: «كيف لا تذهب؟ وهل تستطيع ذلك؟ ألا ترى أنه كُتب إليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة، فإذا عصيت أمره جررت على نفسك البلاء؟!».

قال: «وأي بلاء أجرّه على نفسي؟».

قال: «إذا تخلفت عن المسير اتهمك بالعصيان وأمر بالقبض عليك. وليس عندك من الرجال ما تدفع به قوة الحكومة الآن، فلا تكون النتيجة إلا إيقاع الأذى بك وبنا كلنا إذ يرى المجمع المقدس مسوغاً لذلك بعصيانك؟ فالحكمة تقضي علينا بالملاينة والمسايرة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا».

ولم يكن الفونس يجهل ذلك ولكن غضبه لفلورندا ولخروجه من طليطلة وهي في ذلك الضنك أغلق ذهنه، فلما سمع كلام عمه قال له: «ولكن ما العمل؟ وكيف أجتمع بفلورندا؟».

قال: «اترك أمرها إليَّ، فسأتولى إنقاذها الليلة وأخفيها في مكان، ثم أكتب إليك حيثما تكون ونرى ما تأتي به الحوادث. ولا تجزع بل أبشِر بما ترجوه من وراء سفرك هذا من تمهيد السبيل لمشروعنا. اتكل على الله، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

فالتفت الفونس إلى يعقوب وقال له: «أخبر حامل الرسالة أني ذاهب بعد قليل».

قال: «قلت لك يا مولاي إنهم كوكبة من الفرسان، وقد علمت أنهم مأمورون ألا يعودوا إلا بك».

فقطع أوباس كلام يعقوب وقال لألفونس: «اذهب يا بُنَي. إذهب الآن وأنا أتولى كل شيء في غيابك، ولكني أنصح لك أن تصطحب يعقوب وتعتمد عليه، وسوف يطلعك على أمور تهمك؟».

فقال يعقوب: «سمعاً وطاعة». وأسرع إلى ثيابه فلبس منها ما يصلح للسفر، وكذلك فعل الفونس... وخرجا وألفونس يتجلد وقد ألقى كل حمله على عمه.

— ٤ —

فلندع الفونس يتأهب للسفر، ولنعد إلى قصر رودريك حيث تركنا فلورندا في غرفتها تفكر في أمرها بعد الفراغ من الصلاة وتسليم أمرها إلى الله.. فقد خرج رودريك من عندها وهو يضمر لها الشر العاجل، وكان أول شيء فعله أنه لقي الأب مَرْتين في غرفته يتلو بعض الصلوات. وكان مَرْتين قد شعر بذهاب الملك إلى قصر فلورندا وتحقق أنه لا يعود من هناك إلا وهو مقتنع بوجوب التخلص

من الفونس أو إبعاده، فلما لقيَه عائداً آنس الغضب والانفعال في عينيه وجبينه، حتى لقد يعجب الذي يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة وهو إذا غضب لا يبالي بقتل المئات!. ولكن الحب.. الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل. الحب يذلل الأسود ويستأسر الجبابرة، وهو الذي يبعث إلى الشفقة والحنو! فإذا رأيت رجلاً في خلقه جفاء وخشونة فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد. نعم إن حب رودريك لم يكن خالصاً من شوائب المنكر، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره في القلب، لأن سبب الحب واحد، وإن كان أثره يظهر في الناس مختلفاً باختلاف أخلاقهم وأحوالهم.

ولا يبعد أن يكون رودريك قد هَمّ بقتل فلورندا وهي تعنفه وتقاومه، ولكنه أمسك نفسه طمعاً في استرضائها واستبقائها، فتحمل من عواقب الكظم ما ظهرت آثاره في وجهه، حتى خيّل لمَرْتين لما رآه أنه في أعلى درجات الغضب، فاستقبله ضاحكاً، فتجلد رودريك وحيّاه وهو يحاول إخفاء انفعاله عبثاً، ولم يرَ خيراً من أن يشاغل الأب بالحديث فقال له وهو يُظهر الاستخفاف: «يظهر أن لذلك الغلام مأرباً عند بعض أهل القصر!».

فأجاب الشيخ وهو يتلجلج على عادته: «كأني بالملك لم يفهم إشارتي إلى ذلك في هذا الصباح؟».

قال: «بلى فهمت، ولكنني..» وسكت، فأدرك القسيس أنه يضمر شيئاً فظل ساكتاً وهو ينقر بسبابته على شفته الغائرة، وعيناه تنظران إلى الملك كأنه يتوقع تتمة حديثه. أما رودريك فلم يرَ بأساً من اطلاع مَرتين وهو مستودع أسراره على قصده، إلا حبه فلورندا فإنه نوىَ البقاء على كتمانه، حياء من الناس وخوفاً من امرأته، وهو يعلم تسلط القسوس على النساء فخاف أن يقع حبّه لدى القسيس موقع

الاستهجان فيطّلع الملكة عليه فتقف في سبيله! على أنه أراد اطلاع مَرْتين على ما بقي من عزمه فقال: «أرى أن أسعى في إبعاد هذا الشاب عن هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر وأهله».

فطأطأ الشيخ رأسه استصواباً كأنه رأى الجواب بتلك الإشارة أهون عليه من التكلم ثم قال: "وإذا أبعدته فقد ننتفع بخدمته ونتخلص، ولكن الحيّة لا تموت إذا ظلّ رأسها سالماً".

فعلم رودريك أنه يشير إلى أوباس ويود إبعاده فقال: «إن إبقاء رأس الحية بين أيدينا أسلم عاقبة لنا، خصوصاً إذا كان الذنب بعيداً!». ففهم مَرْتين إشارته وسكت. فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب وبعث به إلى الفونس كما تقدم، وصبر حتى أنبأوه بنفاذ أمره وأن الفونس جاء المعسكر وتهيأ للسفر.

وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وأقبل الظلام، وكأن إقباله زاد ذلك الملك تعامياً عن فظاعة ما نواه ولم يعد يستطيع صبراً إلى اليوم التالي، فتناول طعام المساء مع امرأته، وأكثَرَ من تعاطي الخمر على المائدة تشاغلاً عما ثار في نفسه من النيران الشيطانية فهانَ عليه ارتكاب كل فظيعة ولذلك قالوا: «السِكْر رأس كل المعاصي!».

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفه ودارت الخمر في رأسه، وتحول تواً إلى غرفته والقسيس لا يزال على المائدة مع امرأته، فلما دخل الغرفة أغلق بابها وراءه وفتح الباب الآخر وسار في الممر نحو غرفة فلورندا!.

أما فلورندا فكانت بعد إعمال الفكر قد كتبت ذلك الكتاب إلى الفونس، ودفعته إلى العجوز فأرسلته مع خادم تعتقد إخلاصه، ولبثت تنتظر الجواب، فشغلها ذلك الانتظار عن كل فكر. وظلت على هذا الحال ساعة ظنتها شهراً أو سنة، فكانت تارة تطل من

الباب، وأخرى من النافذة المشرفة على النهر، وآونة تدعو خالتها وتستفتيها في سبب التأخير، وهذه تهون عليها حتى عاد الرسول بذلك الجواب فخفق قلبها سروراً، وكان أول شيء فعلته أنها قبّلت الأيقونة وشكرت الله على إجابة صلواتها، وأخذت تجمع ما خفّ حمله من الحلي ونحوها، والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس، فعند ذلك تركت كل شيء وتحولت إلى النافذة فجلست إليها وأخذت ترسل بصرها إلى مجرى النهر تنتظر ظهور النور المثلث، مع علمها أن الأجل المضروب ما زال بعيداً، ولكن القلق أوهمها قربه! وكان الطقس قد برد، وتلبدت الغيوم فاغبرت السماء وعصفت الرياح، وأومض البرق وقصف الرعد، ولم يمض قليل حتى تساقطت الأمطار. ولكن ذلك كله لم يشغلها عن التفرس في النهر وركبتاها ترتعدان وجلاً وفرحاً. وكانت كلما لاحَ برق ظنته مشعال حبيبها. وقد تنفرج الغيوم فيقع بعض ظل الكواكب في مجرى النهر فتحسبها نوراً مثلثاً، وربما كانت عشرين كوكباً فتظن تعددها ناتجاً عن تكسّر سطح النهر بالأمواج، أو تتوهم السبب في ذلك اعتراض بعض أغصان الحديقة بينها وبين النهر، خصوصاً الأغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة!.

وفيما هي تعلل نفسها بقرب الفرج، وقد وجهت كل حواسها وعواطفها إلى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر، انتبهت بغتة فسمعت وقع أقدام رودريك في الممر، فخارت قواها، وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها، وأحست بما يحدق بها وكانت في غفلة عنه، فجلست على البساط وجعلت تتضرع إلى الله أن يساعدها وينقذها هذه المرة. ولم تجد أمامها إلا خالتها فسألتها: «أليست هذه خطوات الملك؟». ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز

ثم عادت وهي تقول: «الملك يدعوك إلى تلك الغرفة».

فصاحت فلورندا: «ويلاه ما هذا المصاب يا إلهي!؟». ولطمت وجهها وأخذت في البكاء، فتقدمت العجوز إليها وجعلت تخفف عنها وهي لا تدري بماذا تعزيها هذه المرة. على أنها لم ترَ خيراً من الرجوع إلى المعزي الأكبر ـ وهو الدين ـ فقالت: «اتكلي على الله وهو الذي أنقذك في المرة الماضية وسينقذك الآن، وما عليه أمر عسير».

وكانت فلورندا من أهل الإيمان الوطيد كما رأيت، فتضرعت إلى الله أن يساعدها هذه المرة أيضاً، والتفتت إلى خالتها وقالت لها: «أتوسل إليك يا خالة أن تصلّي من أجلي وتطلبي إلى الله أن ينقذني من هذه التجربة».

فقالت: «إني باقية هنا جاثية أمام هذه الأيقونة إلى حين رجوعك، لأني لو صحبتك ما نفعتك، ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده!».

فاطمأن بال فلورندا لهذه العبارة ومشت كالشاة التي تُساق إلى الذبح، وهي تقدم قدماً وتؤخر أخرى حتى دخلت تلك الغرفة. وكان رودريك جالساً في صدرها جلوس مَن لا يهمه النهوض، ورأت في وجهه من دلائل الغضب ما لم تره في المرة الماضية، وقد احمرت عيناه واكمدّ لون وجهه من السِكر، وأسرع تنفسه واشتد. فظنت فلورندا لأول وهلة أنها ترى هذه الملامح في وجهه بسبب نور المصباح، على أنها لم تكد تقع عيناها عليه حتى أسرع قلبها بالخفقان، ولكنها استعانت بالله وتجلدت، وتقدمت حتى وقفت على بضعة أذرع منه وأطرقت. وكانت قد ضفرت شعرها ولملمته وغيّرت ثوبها تأهباً للسفر. فرأى رودريك فيها ما زاد شغفه بها، وتضاعف ذلك

الشغف لتنبه عواطفه بالمسكر فخاطبها وهو لا يزال جالساً وقد مدّ رجليه، وبسط ذراعيه على الوسائد في الجانبين فقال: «هل حدثتك نفسك بشيء جديد؟».

فظلت ساكتة ولكنها بالغت في الإطراق، فأعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيه كأنه يتحفز للنهوض قائلاً: «أجيبي يا فلورندا، يظهر أنك أدركت السعادة التي أدعوك إليها، خصوصاً إذا علمت أني أنقذتك من يديّ ذلك الغلام الذي كان يغريك بحبه، وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك!».

ثم وقف بسرعة تمازجها عربدة، وأخذ يسرح لحيته قائلاً: «لماذا لا تجيبينني؟ كأنك تخجلين من الندم بين يدي الملك! ألا فاعلمي أني سامحتك على ما مضى..» قال ذلك وخطا نحوها ويمناه مرفوعة كأنه يهم أن يلقيها على كتفها تحبباً!

أما فلورندا فلما رأته يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها تتحامى بهما، ونفرت منه كأنه ذئب كاسر يهم بافتراسها، فتراجع رودريك وأظهر الاستغراب وهو يقول: «ما بالك تنفرين كأنك تخافينني، ادني مني، إنني أريد رضاك؟!».

وكانت فلورندا لا تزال في ريب من أمره، فأرادت أن تحقق ظنها. وكانت الأمطار قد تعاظم تساقطها، واختلطت أصواتها بأصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف وقصف الرعود، وفلورندا في غفلة عن كل ذلك لعظم ما قام في نفسها من الخوف. على أنها لما عوّلت على مخاطبته انتبهت لما يحول بين صوتها المنخفض وبين أذنه من هذه الأصوات المختلطة فقالت بصوت عالٍ لكنه مرتعش: «قد قلت لمولاي الملك إن هذا الموقف ليس موقفي، وأن الله قد جعل نصيبي سواه».

فقال لها: «كأنك لم تفهمي كلامي! قلت لك إن الغلام الذي تسمينه نصيبك قد مضى ولا سبيل إليه».

فلما سمعت قوله توهمت أنه قتله فصاحت وقد وقف شعرها وارتعشت وأحست كأنه صبّ ماءً غالياً على بدنها وقالت: «ماذا تقول؟ ماذا فعلت بألفونس. ماذا؟ هل قتلته؟».

فلما رأى رودريك ما أصابها خاف أن يقضي عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسه ولو ساعة فقال: «لا. لم أقتله ولكنه بين يديّ. وحياته طوع إرادتي، إذا شئت قتلته بكلمة ولا أتكلف لذلك خطوة واحدة! يظهر أنك لا تزالين تجهلين مَن هو الذي يخاطبك، ومَن هو ذاك الذي تسمينه نصيبك؟ نعم إني لم أقتله بل اكتفيت بإبعاده، ولكن إذا بقيت على إصرارك أقتله، وإذا ظللت على غيّك بعد قتله أقتلك أنت. وأنا الآن لا أسترضيك ولا أستعطفك بعد ما رأيته من وقاحتك، واعلمي أن هذه الساعة هي الحد الفاصل بين تمنعك وبين ما أريد!». قال ذلك بصوت عالٍ ومشى مسرعاً إلى باب الغرفة وأغلقه ورجع وهو يقول: «فاختاري الحائط الذي تريدينه واخرجي منه!». ثم ألقى نفسه على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنه ثور يخور، وقد زادت عيناه احمراراً وأوداجه انتفاخاً.

وعندما سمعت فلورندا تصريحه بالمنكر، وتحققت دنو الخطر، التفتت إلى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع أو تستنجد رفيقاً ـ فعلت ذلك وهي لا تعلم لماذا فعلته وهمت بالجواب. فقطع رودريك كلامها قائلاً: «عمن تبحثين؟ إننا في غرفة ليس معنا ثالث. وليس على وجه البسيطة مَن يستطيع أن يحول دون مرادي. فأقبلي طائعة. إنه أحفظ لحياتك وأدعى إلى سعادتك!».

وكانت فلورندا لما سمعت قوله «وليس معنا ثالث» قد تذكرت

ما كانت تقرأه وتسمعه من أقوال الكتاب المقدس، من أن مَنْ يتكل على الله لا يفشل، وإن الله موجود في كل مكان، فأحست باطمئنان كأنها محاطة بملائكة يحرسونها، وتشجعت ونظرت إلى رودريك وهي تتفرس فيه وقالت: «تزعم أننا منفردان، وإن الجو خالٍ لك، وقد فاتك أن الله موجود في كل مكان لا يدع لأحد سلطاناً يغلب سلطانه! ثم إني سمعتك تهددني بالقتل. فاقتل ثم أقتل! اقتلني فإني لا أبالي بحياتي. ولكن أتوسل إليك ألا تمس الفونس بسوء.. آه يا الفونس..!» قالت ذلك وخنقتها العبَرات وأطلقت لنفسها عنان البكاء.

فلما سمعها رودريك تبكي لم يزدد إلا حنقاً خصوصاً بعد أن سمع ذكر الفونس. على أنه لما رأى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبيبها ورغبتها في بقائه، تراءى له أن يعرض عليها استبقاءه فقال: «إذا كانت حياة الفونس تهمك بهذا المقدار، فإني إكراماً لعيونك أبقيه، وأرقيه، وأجعله من أسعد أهل طليطلة. ولا يكلفك ذلك إلا أن تُقلعي عن عنادك!».

فابتسمت استخفافاً بذلك الرأي وقالت: «إن الأمر الذي يرضيك مني بذله إنما هو أثمن ما لدي في هذا العالم! أثمن من حياتي! بل أثمن حتى من الفونس نفسه. لأني بدون ذلك الإكليل المجيد وتلك الجوهرة الثمينة لا أستحق نظرة من الفونس ولا من سواه. بل لا أساوي شيئاً! وهل تظنني لولا ذلك أستطيع مخاطبة الملك بهذه الجسارة؟».

فرأى رودريك أنها تطيل الجدال ولا يجد ما يدفع به حجتها، ولا هو يريد الاقتناع بقولها لأن ميوله البهيمية غلبت على عقله وإرادته.. وقد يكون - وهو يجادلها ويراودها - مقتنعاً بأنه يلتمس أمراً

منكراً وأنها مصيبة بتوبيخه، ولكنه لا يملك عنان شهواته.

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الإرادة. فلما سمع تقريع فلورندا أدرك خطأه، ولكنه تجاهل وتعامى وتصامم، وعاد إلى المغالطة، فأظهر الغضب ووقف بغتة وقال لها: «أراكِ تحبين المدافعة بلا فائدة، ولم يبقَ لي صبر على أقوالك. ألا تشعرين بما تعرضين نفسك له من الخطر؟ ومع ذلك فما لا يمكن أن يكون برضاك لا بد منه رغم أنفك!». قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعها ويده ترتعش. فاقشعر بدن فلورندا وأحست كأنه ممسك ذراعها بقبضة من حديد فصاحت: «ويلك يا ظالم. تباً لك يا فاسق! ألا تخاف يوم الحساب؟ ألا تخاف الله؟ قبح الله ملكاً يتولى إنصاف المظلومين وهو أكبر الظالمين. ولعن الله رجلاً يزعم أنه أقيم لكبح جماح المتمردين وهو لا يقوى على كبح شهواته!». ثم أرسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الأخرى وقالت: «إليك أتوسل أيها المخلص الحبيب، وأعوذ بك من هذا الظالم الخائن!».

وكان رودريك في أثناء ذلك يحاول القبض على يدها الأخرى وهي تحاول التخلص منه، فوقع نفَسَه في وجهها فاشتمت رائحة الخمر فهمّت أن تقول شيئاً ولكن اعترض قولها رعود قاصفة توالت بضع ثوان، أعقبها صوت صاعقة انقضت بالقرب من ذلك المكان، فارتج القصر من أساسه، ونفذ وميض البرق من شقوق النوافذ كأنه حراب من نار! فكان لتلك الحركة تأثير شديد في نفس رودريك شغله لحظة عن فلورندا، وتولاه الرعب لأنه توهم لأول وهلة أن القضاء يتهدده ـ كما يفعل بعض الذين يربون في مهد الدين فيعتقدون أن الأقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم، وأن الطبيعة لا تعمل عملاً إلا وهي تتعمد به خيرهم أو شرهم، على أن ذلك الخاطر لم يمر في ذهنه

إلا مرور البرق ثم عاد إلى ما كان عليه!

وأما هي فإنها اغتنمت تلك الفرصة وانتزعت يدها من يده، وقد اعتبرت انقضاض تلك الصاعقة نصيراً لها عليه إجابة لصوت دعائها فالتفتت إليه وهي تقول: «ألا تعلم أن في الكون مَن ينتصر للضعيف على القوي؟ ألا يستطيع ذلك الجبار أن يُنزل عليكَ وعلى قصرك صاعقة تذهب بكما إلى الموت العاجل؟».

فأفحم رودريك لما رأى الأقدار تزيد حجة فلورندا عليه، ولكنه اعتبر نفسه في موقف انتقام ولم يزدد إلا تمادياً في غرضه، فتقدم إليها وقبض بإحدى يديه على كتفها ومد يده الأخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها برجله. فتشددت هي وانتزعت نفسها من يديه فأفلتها بالرغم عنه لأنه لم يكن ممسكاً بكل قوته، فلما أفلتت منه تعاظم غضبه فهجم عليها هجوم الثور، وهو لا يبالي ما يكون من أمرها!

فلما رأته فلورندا هاجماً والشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط غضبه أيقنت بالخطر العاجل، فعولت على الانتحار قبل وصوله إلى مراده، فجثت على ركبتيها ورفعت بصرها إلى السماء كأنها تستغيث وهي لا تزال إلى تلك اللحظة تعتقد أن العناية الإلهية لا تتخلى عنها! ولكنها لما رأت رودريك يكاد يصل إليها أسرعت هي فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمّت أن تخنق نفسها وهي تقول: «الموت. الموت خير من العار. إليك أسلم روحي يا مخلصي الحبيب». قالت ذلك وضغطت على حنجرتها فانحبس الدم في وجهها وجحظت عيناها ولكنه أمسك يديها وشدهما فأبعدهما عن عنقها، وكانت قد خارت قواها فسقطت وقد ارتخت مفاصلها واستلقت على ظهرها لا حراك بها!

فلما شاهدها رودريك في تلك الحالة تنبهت فيه الحاسة البشرية لحظة، وعمد إلى تلطيف ما بها فجثا بجانبها، وأمسك يدها وأنهضها يريد إجلاسها لتصحو من غيبوبتها، فإذا هي لا تزال مغمضة العينين مسترخية الأعضاء فخفق قلبه، وتحرك ضميره، وتوهم أنها ماتت أو كادت تموت، فتركها وأسرع إلى الباب لعله يجد ماء فيرشها به، ففتح الباب وطلب حجرة فلورندا فاستقبلته العجوز وهي خارجة منها وقد بغتت منذ سمعت فتح الباب لأنها كانت لا تزال إلى تلك اللحظة جاثية تصلي وتطلب نجاة فلورندا من هذا الخطر. وكانت وهي مستغرقة في الصلاة لا تسمع شيئاً مما حولها وقد أقفلت النافذة المطلة على النهر حجباً للعواصف، فلم تتنبه لقصف الرعد وهبوب الرياح إلا كما يشعر الراقد بصوت يسمعه بين اليقظة والمنام، ولكنها حالما سمعت فتح الباب تنبهت كأنها استيقظت من ذلك الرقاد، وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغتة على وجهه وقال: «إليّ بكوبة من الماء. اسرعي حالاً!». قال ذلك وعاد إلى الغرفة فتبعته العجوز بالكوبة وركبتاها ترتعدان من الخوف على فلورندا فدخل رودريك وهو يقول للعجوز: «رشيها بالماء!» فلما رأت العجوز حال فلورندا صاحت: «فلورندا ما الذي أصابك!..». وأسرعت فرشّتها فاستيقظت وجلست وهي تنظر إلى ما حولها، فلما رأت رودريك صاحت: «ويلاه إني لا أزال حية، ولا يزال هذا الشرير أمام عيني. كنت أحسب أني نجوت منه بالموت!».

أما رودريك فأغضى عن ذلك ووجه خطابه إلى العجوز وقال: «أرأيت ما الذي فعلته فلورندا بنفسها لطيشها وغرورها؟ أعرض عليها السعادة فترفضها؟». فلم تجد العجوز جواباً غير البكاء لأنها توهمت أن نجاة فلورندا مستحيلة. على أنها لم تجد سبيلاً غير التزلف،

فجثت أمام رودريك وقالت ودموعها تتساقط: «أتقدم إلى مولاي أن يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشأنها، فإن في قصره وتحت أمره مئات مثلها». فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها فرفسها برجله وهو يقول: «إليك عني يا عجوز النحس. وأنت أيضاً؟». فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذي جاءهما من الفونس فقالت في نفسها لعل مع الفونس رجالاً يصعدون إلينا فينقذونها من بين يديه بالقوة، فهرولت إلى الحجرة وفتحت النافذة فتحاً قليلاً فعصفت الريح في وجهها وبلّلها الماء ونظرت إلى جهة النهر فلم تجد نوراً مثلثاً ولا غير مثلث، فأقفلتها وعادت إلى الصلاة!

أما رودريك فأقفل الباب وعاد إلى فلورندا وهي ما زالت جالسة على البساط في الغرفة، وقد استراحت وعادت إليها قوتها وتصاعد الدم إلى وجهها برد الفعل فعاد إليه الإشراق. ولكن الكآبة ما زالت غالبة على منظرها. فدنا رودريك منها وهو يمد يده إلى منطقته ثم أخرجها وهو قابض بها على خنجر أبرق فرنده وكأنه يقطر سماً، وبيده الأخرى شيء كالخاتم يلمع ثم مدّ يده إليها وهو يقول: «لقد نفد صبري يا فلورندا فها إني عارض عليك السعادة لآخر مرة فإما أن تقبليها، وهذا خاتمي عربون على ذلك، وإما أن أغمد هذا الخنجر في صدرك في هذه اللحظة. أجيبي حالاً..»، فنهضت للحال وتصدت له وهي تقول: "أغمد خنجرك في صدري وأرحني من هذه الحياة. ويا حبذا الموت الذي ألقى به وجه ربي بريئة طاهرة. اقتلني يا رودريك. اقتل!».

فقال لها: «أمعني الفكر ولا تظني أني أقول ذلك للتهديد. إني فاعله حالاً. وإن عقلت وأجبت سؤالي أخذت هذا الخاتم عربون

محبتي لك وكنت أسعد بنات طليطلة!».

قالت: «إني لا أرهب الموت فداء العفاف والطهر. الموت خير لي، إلا إذا رجعت إلى رشدك وندمت قبل فوات الفرصة ـ لأنك نادم في أي حال. فإذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لا ينفعك ندمك شيئاً، وإذا قتلتني فإنك تندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها إلا إصرارها على العمل بوصية الله» ثم حولت وجهها نحو السماء وقالت:

«يا أيها المخلص المجيد. ربي وإلهي. ألا كشفت لهذا الرجل فظاعة ما هو مقدم عليه؟! أقشع غشاوة الجهل عن عينيه».

فضحك رودريك وقطع كلامها وقال: «أظنك تتوقعين قصف الرعد ووميض البرق جواباً على كلامك كالمرة الماضية. كلا. فما نحن في عصر المعجزات!».

وفيما هو يريد إتمام كلامه، والخنجر مشهر بيمينه كأنه يهم بأن يطعنها به، سمع وقد أقدام غريبة في ممر القصر، فأنصت، فسمع تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهي تسرع، فخفق قلبه واقشعر بدنه، وعاد إليه الإحساس الديني الذي ربي فيه، فخيل له أن الله استجاب دعاء فلورندا فأرسل بعض ملائكته لإنقاذها.

قضى رودريك وفلورندا ثواني قليلة في حيرة، وهما واقفان وأبصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون، وفلورندا ترتعش تخشعاً وبغتة. وأما رودريك فإنه أرجع الخنجر إلى مكانه ومشى إلى الباب وهو ما زال يسمع خطوات القادم تقترب. وقبل الوصول إلى الباب سمع قارعاً يقرعه قرعاً عنيفاً ارتجت له جوانب القصر، وارتعدت فرائص رودريك، ولم يتمالك أن أسرع إلى فتحه، ولا تسل عن دهشته واضطرابه لما رأى أوباس داخلاً وهو فيما يعرفه فيه من

الهيبة والزرانة ورباطة الجأش، والماء يقطر من أردانه!

أما فلورندا فتوهمت لما رأته أنه ملاك لابس ثوب أوباس، وظلت واقفة وقد ملكت البغتة كل جوارحها حتى علق ريقها في حلقها وأمسكت تنفسها!. وأما رودريك فلم يسعه عند رؤية أوباس إلا إظهار استغرابه من جسارته إلى هذا الحد فقال له: «ما الذي جاء بك إلى هنا في هذه الساعة؟ وكيف دخلت هذا القصر بغير استئذان؟!». فأجابه أوباس وهو لا يبالي كأنه يخاطب غلاماً وقال: «أما الذي جاء بي فهو أمر يهم المملكة سأعرضه عليكم. وأما دخولي بلا استئذان فجلالة الملك يعلم أن أمثالنا لا يستأذنون في الدخول على الملوك أو مخاطبتهم، وهم يخاطبون الله بلا استئذان!».

ففهم رودريك أنه يعرض بسلطة الأكليروس خصوصاً الأساقفة، فإنهم هم الذين أجلسوه على الكرسي، ولكن أوباس لم يكن منهم للأسباب التي قدمناها، فساءه ذلك التعريض ولكنه كان شاعراً بارتكابه ذنباً عظيماً، والمذنب يغلب عليه الضعف والارتباك ولو كان ملكاً، خصوصاً بين يدي رجل مهيب مثل أوباس، فعمد إلى تغطية ذنبه بالمغالطة، وقد عول على أن يصرف أوباس ثم يعود إلى فلورندا فقال له: «انتظرني في الدار العامة ريثما آتيك».

قال: «لو كان الأمر الذي جئت به يحتمل الانتظار ما جئتك في هذا الليل تحت سيول الأمطار». قال ذلك ومدّ يده نحو فلورندا وهو يظهر أنه يخاطب الملك وقال: «وإذا فتحت النافذة المطلة على النهر تحققت الأمر الذي قلته لك، ورأيت الأمطار بل الثلوج تتساقط، فلو لم يكن مجيئي لأمر ذي بالٍ ما عكّرت على الملك راحته. إني لا أخرج من هذا المكان إلا معك!».

وكانت فلورندا كلها مسامع ولواحظ لما يقول أوباس أو يشير

إليه، فلما سمعت ما ذكره عن النافذة أدركت أنه يشير إلى الموعد المضروب لإنقاذها ففرحت. أما رودريك فالتفت إلى فلورندا وأشار إليها أن «اذهبي إلى غرفتك ريثما أعود» وخرج مهرولاً، وأوباس لا يغيّر مشيته ولا يكترث بانهماك الملك واستعجاله. فلما وصل رودريك إلى آخر الممر التفت خلفه فرأى الباب مفتوحاً فتذكر أنه نسيه بدون إقفال فعاد وأغلقه كأنه يحاذر أن يختطفوا فلورندا من بين يديه، ومشى وأوباس لا يكترث بتلك الحركات حتى وصلا إلى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة، فجلس ودعا أوباس إلى الجلوس فقال هذا: «إن الأمر الذي جئت من أجله لا يصح ذكره في هذه القاعة».

فاستغرب رودريك جوابه وقال: «وأين إذاً؟». قال: «في غرفة منفردة على حدة». فنهض رودريك وقد ساءه هذا النعت ومشى معه إلى غرفة منفردة فيها مصباح نوره ضئيل، فجلس أوباس بين يديه، ولم يستطع هو صبراً فقال: «قل يا حضرة المتروبوليت».

فقال: «جئتك بأمر دعاني الله إلى تبليغك إياه». فأنصت رودريك وتطاول بعنقه لسماع ما يقوله. فقال أوباس بصوت هادىء على عادته: «إن الله خولك سلطاناً على الناس تحكم فيهم، وتنصف مظلومهم، وتضرب على أيدي الظالمين، فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة إلى ما يغضبه».

فبغت رودريك لما في خطاب أوباس من التوبيخ، وقطب حاجبيه إشارة إلى استهجانه تلك الجسارة وقال: «هل عندك كلام في غير هذه الشؤون؟». فأدرك أوباس انفعاله، وإنه إنما يريد تحقيره ورد التوبيخ إليه، فلم يقبل منه ذلك فقال: «لعلك تظن ما أقوله وهماً أو ليس بالأمر المهم!».

فقال رودريك وقد ظهر الغضب في وجهه: «لا أرى ما يسوغ

لك الاعتراض على أعمالي في داخل قصري، فإذا كنت تعلم أمراً يتعلق بالأحكام بين الناس أو بالأمن العام أو بسياسة البلاد فتكلم!».

فابتسم أوباس باستخفاف وقال: «ألا تعلم أيها الملك أنك مطالب بكل حركة تجريها في منزلك وفي الخارج؟ وإن الصعاليك أقرب إلى الحرية في تصرفاتهم من الملوك؟ إنك مؤتمن على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم، وإنما أعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها، أفتتخذه وسيلة لسلبها بنفسك، فإذا جاءك ناصح انتهرته واحتقرته؟ ما هذه أخلاق الملوك المؤمنين!».

فأعظم رودريك تلك الجسارة وازداد حنقاً لرزانة أوباس ورباطة جأشه وقال: «هل كان أخوك أقرب إلى تلك الأخلاق مني؟».

ففهم أوباس أنه يعرض بخروج الملك من أيديهم تحقيراً له فلم يصبر على ذلك، فقال وقد ارتفع صوته ولكنه ما زال هادئاً: «دعنا من ذكر الأموات فلهم مَن يحاسبهم، وإنما نحن نحاسب الأحياء. على أني ما أظن غيطشة لو كان حياً يفعل مثل فعلتك. بل أنا أجله عن الإقدام على مثل هذا المنكر!».

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال: «دع عنك ذلك كله فما هو من متعلقاتك، لأني أعلم بواجباتي منك». قال ذلك وتحول عنه إشارة إلى رغبته في إقفال الحديث، ولكن أوباس ظل جالساً وقال: «لو كنت تعرف واجباتك ما أردت السوء بفتاة طاهرة وأنت ذو امرأة. وبدلاً من أن تستغفر عن هذه الفظيعة تدافع عنها!».

ثم وقف وأتم كلامه قائلاً: «واعلم يا رودريك أن اشتغالك بهذه الأمور وإهمالك كلمة الله ووصاياه، من أول الأدلة على قرب انقضاء هذه الدولة».

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولته التفت إليه وهو يقول: «أراك تهددني بخروج الملك من يدي! إنكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرة واستعنتم بقوات الأرض والسماء!».

قال: «إذا كان لنا نصيب في هذا الملك، فإن قوات السماء تقدر على إخراجه من يدك».

ولم يتم أوباس كلامه حتى رأى باب الحجرة قد فُتح، ودخل الأب مَرْتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كأنه يريد التكلم ويمنعه التلجلج من شدة التأثر. ثم نطق فخرج كلامه مقطعاً موصلاً مختلطاً يشبه قوله: «ت.. ت.. ت.. تهدد جلالة الملك بـ.. بـ.. بإخراج المُلك من يده! يا للوقاحة وق.. ق.. قلة الأدب؟!». ولم يتم الأب هذه الجملة حتى امتلأت لحيته باللعاب المتطاير من فمه، فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيته وجعل يخطر في أرض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم، فأدرك أوباس أنه يتهمه زوراً ليوقع الشبهة عليه، فسكت استخفافاً.

وأما رودريك فإنه سُرَّ لهذه التهمة، وتظاهر بالغضب والانتصار وقال: «لا بأس يكفي الآن ما سمعناه من خير وشر!». قال ذلك وتحول من الغرفة فتبعه الأب مَرْتين، فنهض أوباس وهو لا يبالي بما رآه وإنما همه فوزه بإنقاذه فلورندا من بين يديه!

وكان السبب في مجيء أوباس إلى القصر أنه لما دنت الساعة المعينة جاء أجيلا وشنتيلا إلى منزل أوباس فأمرهما بإعداد قارب للنزول به في النهر، فنزلوا به فتساقطت الأمطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدوه في بادىء الرأي مساعداً لهم على إخفاء خطواتهم، فوصلوا تحت القصر وفلورندا في الغرفة مع رودريك، وخادمتها في الحجرة تصلي وقد

أغلقت النافذة فصعد الشابان ومعهما أوباس لا يبالون بالأمطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلورندا عند تلك الشجرة الجرداء دون أن ينتبه لهم أحد من الحراس ولا الحاشية. فأشار أوباس إلى شنتيلا أن يتسلق الشجرة ويقرع النافذة فتسلقها حتى وقف على الغصن المقابل للنافذة فقرعها بطرف حسامه قرعاً خفيفاً، ثم قوى القرع فلم يجبه أحد لأن العجوز كانت قد خرجت بكأس الماء لترش فلورندا، فنزل شنتيلا وأخبر أوباس بأنه لم يسمع جواباً، فوقف هذا برهة يتأمل وقال في نفسه لو كانت فلورندا مطلقة السراح لم يكن ليشغلها عن هذه النافذة شاغل، فلا بد من أن تكون في ضيق، ولا بأس عليها إلا من رودريك! وتخيّل أنها في أشد الخطر، وأنه إن تأخر عنها قد يقضي عليها، فأمر الرجلين أن يربطا القارب بجانب القصر ويمكثا عنده، وحالما يسمعان فتح النافذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلورندا وما معها.

قال لهما ذلك وتحول إلى باب القصر العام، وسأل الحراس عن الملك فقالوا إنه في القصر، فدخل ولم يعارضه أحد لأن الأساقفة كثيراً ما يدخلون على الملوك خصوصاً أن الأكليروس كانوا أكثر تدخلاً في شؤون إسبانيا مما في سائر ممالك أوربا تقريباً، وعلى الأخص في عهد رودريك لأنه إنما تنصَّب بمساعدتهم.

نعم إن أوباس لم يكن من الذين انتخبوه، ولكن الحرس الواقفين بالباب لا يهمهم التمييز بين أسقف وآخر، وإنما يكفيهم النظر إلى الثوب الأكليريكي، فضلاً عن أن هيبة أوباس تكفي وحدها لاحترامه وإطاعة أوامره، وخصوصاً في تلك الساعة وقد زاده الاهتمام جلالاً ووقاراً.

دخل أوباس من أبواب القصر الواحد بعد الآخر لا يعترضه

أحد، حتى أتى غرفة الملك وكان يعرفها جيداً لأنها كانت لغيطشة من عهد غير بعيد. فسأل الحراس عنه فقالوا إنه دخل غرفته ولا يدخل عليه أحد فيها، فلم يبال بأقوالهم وكان رودريك قد نسيها غير موصدة فدخلها فلم يرَ فيها أحداً، ورأى باب الممر المؤدي إلى قصر فلورندا مفتوحاً فدخل وما في الدار أحد من الخدم، فمشى مشية مَن لا يهاب ملكاً، وجعل يبحث بنظره فرأى تلك الغرفة مضيئة وسمع لغطاً فلم يتمالك أن ضرب الباب ثم دخل، فأدرك من مجرد النظرة الأولى إلى وجه فلورندا أنها مصونة سالمة، ورأى أن يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب إلى حجرتها وتنجو من هناك، فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم.

— ٥ —

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً والأب مَرْتين يتبعه وهو يتمتم ويهز رأسه على مرأى من الملك استغراباً من وقاحة أوباس! وكان يظن الملك لا يفارقه الليلة حتى يتآمرا على الإيقاع بأوباس، ولكنه ما لبث إن رآه قد تحول عنه راجعاً إلى غرفته، فجلس على مقعد في إحدى طرقات القصر ثم نهض ورجع إلى قصر فلورندا وفؤاده يتقد حنقاً وكيداً. ولا تسل عن حاله لما لم يجد أحداً في كل ذلك القصر، ورأى حجرة فلورندا مشوشة خالية من الأدوات الخفيفة الحمل الغالية الثمن!.

عاد رودريك إلى غرفته وهو يكاد يتميز غيظاً، وبعث إلى قيّم قصره في تلك الساعة فجاءه، فابتدره بالسؤال عمن خرج من القصر في تلك الليلة. فاهتم القيّم بالأمر وسأل الخدم فقالوا إنهم يقيمون في الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود مطلقاً، وهم على ثقة أن باب القصر لم يُفتح في تلك الليلة، وإنهم لم يروا أحداً خارجاً من مكان

آخر لأن الظلام كان مخيماً، وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الانتباه لما يحدث خارجاً. فسألوا الحرس فكان عذرهم إنشغالهم بالنوء والعواصف عن كل شاغل، وأخيراً بحثوا في الطريقة التي يمكن الفرار بها فإذا هي النافذة المطلة على النهر، ورأوا على نواتىء الأغصان اليابسة نتفاً من الفرو تناثر من رداء فلورندا.

تحقق رودريك عندئذ أن أوباس شاركها في ذلك الفرار فعزم على الإيقاع به وعاد وقد أنهكه التعب وأثر الفشل في عزائمه، وأحس كأنه أفاق من سكرة فأحب الخلوة، وذهب إلى فراشه فتقلب على مثل الجمر وهو لا يستطيع رقاداً، وقلبه يتقد حنقاً من أوباس فلم يرَ ما يفرج كربه إلا استدعاء مَرْتين مستودع أسراره، فنهض من الفراش حتى لقي أحد الحراس الواقفين ببابه فأمره أن يستقدم الأب على عجل، ولو كان في فراشه!

فذهب الحارس وقرع باب مَرْتين، وكان قد خلع ثيابه وتدثر بقميص النوم وجلس في الفراش وبدأ بصلاة النوم، فوقف الرجل خارجاً حتى فرغ الأب من الصلاة، ثم دخل عليه وأبلغه أمر الملك باستقدامه، ففرح لعلمه أنه لم يدعه إلا للإيقاع بأوباس، فنهض للحال وهو ما زال بذلك اللباس وتزمل فوقه برداء واسع من الفرو، ولم يضع القلنسوة على رأسه وكان شعره منفوشاً أبيض كأنه كتلة من القطن فوق رأسه، ومشى حتى دخل على الملك الذي كان هو أيضاً في نحو ذلك من القيافة الغريبة بعد تقلبه في الفراش، وقد اختلطت ضفائر رأسه بشعر لحيته وشاربيه، وأثر الغضب والفشل في سحنته! فلما دخل مَرْتين عليه شعر بارتياح لرؤيته، فنهض لاستقباله وقبّل يده ودعاه للجلوس بجانبه فجلس وهو يقول: «أرجو أن يكون مولاي الملك قد دعاني لأمر يسُرّه».

قال: «لا أظنك تجهل السبب الذي دعوتك من أجله. وقد

كنت في هذا المساء ناظراً سامعاً لما كان من أوباس!».

فرأى مَرْتين من باب التملق أن يقطع كلام الملك ويقول: «إنها وقاحة غريبة ليس أغرب منها إلا صبر مولاي الملك عليها..!».

فقال رودريك: «حقاً إنها لوقاحة لم أكن أتوقعها من قوم قد أذقناهم الذل وأخذنا الحكم من أيديهم. ألا يخاف أوباس غضبي؟».

فقال مَرْتين: «أظن مولاي الملك لم ينتبه لفحوى أقواله، وأوباس مشهور بقلة الكلام وكثرة الفكر، وإذا قال كلمة يجب التمعن في فحواها لأنه لا يتكلم عن هوى ولا يلقي الكلام جزافاً! ألم تسمع قوله لجلالتكم: (إذا كان لنا مطمع في المُلك فإن قوات السماء تقدر على إخراجه من يدك؟!)، إنها جسارة غريبة تدل على ما يعده من الشراك والمكايد. ولا أظنه إلا يعقد المجالس السرية ويعاقد الأعداء على خلع الملك، ولكنه خائب لا محالة!».

وأحسّ رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لأنه كشف باباً لاتهام أوباس والقبض عليه وعلى مَن في منزله، لعله يجد فلورندا بينهم، وقد غلب على خاطره أنها فرّت إلى هناك إذ ليس لها من الأقارب أحد، خصوصاً بعد ما ظهر له من القرائن الكثيرة فقال: «ما الرأي يا حضرة الأب في هذا الخائن؟».

قال: «الرأي أن تقبض عليه حالاً في هذه الساعة قبل أن يتأهب أو يدس الدسائس، لأنه خرج من قصرك وهو يهددك. فلا تكن هيناً، لأن الحلم في هذا المقام ضعف!».

ولم يكن رودريك في حاجة إلى هذا التحريض وهو أكثر رغبة في ذلك، فزاد على رأي مَرْتين أن يقبض على أهل بيت أوباس أيضاً ويسوقهم إلى السجن. ثم قال: «إليَّ بقائد الحرس الملكي!».

فخرج مَرْتين وأمر بعض الحرس باستقدام القائد، وعاد إلى غرفة الملك.

أما أوباس فإنه نهض بعد أن تركه الملك، وسارَ على عجل إلى منزله لموافاة فلورندا والخادمين وتدبير وسيلة لإخراجها من طليطلة، فلما وصل وعرف من الخدم أن أحداً لم يصل قبله اشتغل خاطره وخشي أن يكون أصابهم سوء، فأعمل فكرته وعلل نفسه بقرب وصولهم حتى ملّ الانتظار، فعوّل على الخروج بنفسه للبحث عنهم في الطريق الذي كان يتوقع أن يجيئوا فيه، لكنه ما لبث أن سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول أمام القصر وأطل من شرفة القصر والظلام لا يزال حالكاً فرأى جماعة على أفراس دنوا من القصر وأحدقوا به عن بعد دون أن يخاطبوا أحداً من أهله، ولم يستطع لشدة الظلام أن يتبين الوجوه ولكنه أدرك بفراسته أنهم من رجال رودريك وقد جاؤوا لأمر يوجب قلقاً! على أنه لم يخف على نفسه لرباطة جأشه ولاعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته، ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها لأنهم إذا جاؤوا في تلك الساعة وقعوا في الشرك لا محالة.

وأعمل فكرته هنيهة فرأى المبادرة إلى أن يتحول إلى غرفته فتزمّل بالقباء وخرج إلى الباب ونادى أقرب فارس إليه فجاءه وترجّل وحيّاه باحترام. فقال أوباس: «ما الذي تفعلونه هنا؟».

قال: «إننا مأمورون بالوقوف هنا إلى الصباح».

قال: «ومن أمركم بذلك؟».

فسكت الرجل وحوّل وجهه إلى جهة أخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة، فجاء الآخر وترجل وحيّا أوباس وهَمّ بتقبيل يده، فاجتذب أوباس يده بعنف وقال: «مَن أمركم بالوقوف هنا وما الغرض

منه؟».

قال: «أمرنا به مَن ينوب عن الملك. ولماذا أقلقت راحتك وخرجت في هذا الليل من فراشك؟ نَم مستريحاً».

قال بنغمته الهادئة الاعتيادية: «أفصح يا هذا عن الغرض من وقوفكم هنا وارجعوا من حيث أتيتم».

فقال وهو يخفض صوته تهيباً من أوْباس: «إننا مأمورون بالقبض على قداستكم حالما تهمّون بالخروج من هذا المنزل". فاستشاط أوباس غضباً ولكنه ظل هادئاً وقال: "مأمورون بالقبض عليَّ؟! ومَن أمركم بذلك؟». قال: «يعذرني مولاي فإني مأمور لا يسعني إلا الطاعة. إننا مأمورون من قائدنا الأكبر بناء على أمر مولاي الملك، فهل نستطيع مخالفة الأمر».

قال: «كلا. بل أنا أحرضكم على الطاعة دائماً». قال ذلك وأعمل فكرته للمسارعة في الأمر خوفاً من وصول فلورندا في تلك الساعة فقال: «إني خارج الآن معكم، ولا حاجة بكم إلى انتظار الصباح».

قال الرجل: «ما في الأمر يا مولاي ما يدعو إلى هذا القلق. فلو مكثت في منزلك شهراً ما مسسناك». قال: «بل أنا خارج الساعة. هلمّ بنا».

فأشار الضابط إلى فرسانه إشارة يفهمونها، فتجمهروا وأتوا بجواد ركبه أوباس وساروا به وهو في وسطهم والكل سكوت لا يجسرون على التكلم في حضرته. أما هو فكان في أثناء الطريق يفكر في الأمر الذي ساقوه لأجله وقد عزم على الثبات والتعقل. غير أن ذهنه ما زال مشتغلاً بفلورندا وخاف أن يلتقوا بها في ذلك الطريق. فلما وصلوا بأوباس إلى قصر الملك هَمّ بالترجل فأشار إليه الضابط

أنهم مأمورون بسوقه إلى مخفر بقرب القصر إلى الصباح. وقال الضابط: «ولهذا السبب قلت لقداستكم أن تبقوا في منزلكم إلى الصباح لأننا أردنا بذلك المحافظة على راحتكم».

فاقتنع أوباس بإخلاء الطريق لفلورندا ولو ألحق بنفسه بعض العنف ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد منه. فدخل غرفة في بيت بجانب القصر، والحرس بالباب، فقضى بقية الليل يخطر في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يفكر فيما عسى أن يكون غرض الملك من القبض عليه، وخطرت له خواطر كثيرة وتهم شتى ربما يتهمه رودريك بها، وما كان يهتم بشيء أو يهاب الموقف لو أنه اطمأن إلى نجاة فلورندا.

وكان ينتظر طلوع الفجر وتبدد جيوش الظلام رغبة منه في الاطلاع على سر هذه الدعوة. ولكن مضى بعض النهار دون أن يطلبه أحد فازداد قلقه فاستدعى رئيس الحرس وسأله: «وماذا عسى أن يكون آخر هذا الأسر؟».

فقال: «لا أدري يا سيدي، فعسى أن يكون خيراً. ولو عرفت سر ذلك ما أخفيته على سيادتكم".

قال: «إني في حاجة إلى منزلي، فإذا لم يكن هناك ما يدعو إلى سرعة المقابلة فليطلقوا سبيلي، ثم إذا أراد الملك مني أمراً جئته».

فنظر الضابط إلى أوباس وفي عينيه خبر يتردد بين كتمانه وإظهاره، فأدرك أوباس ذلك فيه فقال: «ما الذي تضمره؟ قل».

فقال: «إنك إذا ذهبت إلى منزلك لا تجد فيه أحداً».

فبغت أوباس وقال: «وكيف ذلك؟».

قال: «لأنهم قبضوا على كل ما فيه من الخدم والعبيد، وهم في

السجن الآن وأبواب المنزل مقفلة!».

فلما سمع أوباس قوله تحقق عزم الملك على الفتك به جهاراً، ولولا رزانته لبدت البغتة على وجهه. ومما زاد قلقه خوفه على فلورندا، إذ تبادر إلى ذهنه أنهم لم يقبضوا على أهل منزله إلا لأنهم رأوها فيه، على أنه لم يبالِ بالأمر بل نظر إلى الضابط وقال بسكينة وتعقل: «لن ينفعهم ذلك شيئاً». ثم تحول إلى الداخل فخرج الضابط إلى مكانه.

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل أوباس وعائلته، ولكنه كان وأكثر رجال الدولة مسوقين مع التيار الأكبر، يرون الحق ويقولونه ولكنهم لا يعملون به ـ شأن الدول في انحلالها وتقهقرها، فإنها لا تخلو في أثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء يشعرون بما أصاب دولتهم من الخلل، وينتقدون أعمال حكومتها فيما بينهم وهم خارج المناصب، ويزعمون أنهم لو أتيح لهم الوصول إلى تلك المناصب لأدخلوا في الحكومة إصلاحاً كبيراً، فإذا تولى أحدهم رأى نفسه مضطراً إلى مجاراة التيار كما فعل أسلافه، وإذا حاول مقاومة عرض نفسه للخطر، ويندر أن يطول بقاؤه على عزمه القديم وهو في منصبه لعجزه، وهو فرد، عن مقاومة مجاري الأحوال ـ وهي إنما بلغت تلك الدرجة من الانحطاط بتوالي الأجيال، والبدن إذا بُلِي بالضعف من الهرم لا يجرى عوده إلى الشباب، إلا إن يكون المصلح في أكبر المناصب. فقد يأتي بإصلاح ذي بال ولكنه يذهب بذهابه.

وقد كان في طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المنتشر في الدولة، ولكنهم لم يكن لهم سبيل إلى مناصبها الكبرى. وأما صغار المستخدمين فليس لهم إلا التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط.

جلس أوباس على أحد مقاعد تلك الغرفة، واستغرق في الهواجس حتى مضى بعض النهار. فلما رأى الخادم آتياً إليه بالطعام تحقق أن مكثه سيطول، فزاد قلقه وأبى الطعام ورد المائدة، واستقدم الضابط وقال له: «إني لا أستطيع طعاماً قبل أن أعرف سبب هذه المعاملة؟».

فقال: «أرى يا مولاي أن تكتب كتاباً أحمله إلى مجلس الملك، لعَلِّي آتيك بالجواب الشافي».

فاستخرج أوباس من جيبه لوحاً مشمعاً كُتب عليه بالمسمار ما معناه: «حَملني جندك إلى هذا المكان بلا ذنب اقترفته. والملك يعلم أن رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هذه الصورة، وإنما هم تحت سيطرة الكنيسة. فلا أدري سبب هذا السجن، إلا أن يكون ذلك من جملة ما تطرق إلى حياة هذه الدولة!».

فحمل الضابط الكتاب وسار به إلى القصر، ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول: «إن الأب مَرْتين داخل لمقابلة قداستكم».

فلم يسر أوباس لمقدمه إلا على رجاء أن يستطلع منه سبب ذلك الأسر، وقد علم أنه آت بأمر الملك. فظل جالساً حتى دخل مَرْتين مهرولاً وهو يتمتم كأنه يتلو بعض الأدعية، ووقف بين يدي أوباس فحيّاه، وتظاهر بأنه يهم بتقبيل يده مراعاة لرتبته الكهنوتية، فلم يبال أوباس بذلك بل ظل ساكتاً. فجلس مَرْتين على كرسي تجاه المقعد وهو يبتسم.

وبعد أن تنحنح الأب ومسح وجهه ولحيته غير مرة استعداداً للكلام، قال وهو يقطع الكلام قطعاً: «قد بعثني مولاي الملك لأبلغ قداستكم أنه يعلم امتيازات الكهنة، وأنه لا يجوز سجنهم أو محاكمتهم إلا في مجالس كهنوتية، ولكنه إنما أمر بالقبض عليك مؤقتاً

ريثما يلتئم مجلس الأساقفة وينظر في أمرك».

فلما سمع أوباس قوله زاد استغراباً ولم يفهم المراد تماماً، لأن مجمع الأساقفة إنما يجتمع مرة في السنة أو مرّتَيْن، ولا يجتمع فيما عداهما إلا للنظر في أمور غاية في الأهمية، كانتخاب الملك، أو البحث في خطر يتهدد المملكة، أو غير ذلك، كما أن اجتماعه يقتضي مكاتبة أساقفة الأقاليم والمطارنة مما يستغرق أياماً عديدة. فأطرق أوباس وأعمل فكرته في هذا الأمر ولم يجب.

وكان الأب مَرْتين لما فرغ من قوله قد ثبت بصره في أوباس ليستطلع ما يبدو منه، وكان يتوقع استياءه وغضبه ليشفي ما في نفسه. فلما رأى أنه لم تظهر عليه علامات الاضطراب توهم أن ذلك ناتج من عدم إدراكه خطر ما يترتب على ذلك الاجتماع فقال: «ولا يُخفى على قداستكم أن جمع الأساقفة يقتضي في العادة زمناً طويلاً، ولكن نظراً إلى مجيء أكثرهم إلى طليطلة لتهنئة مولاي الملك بعيد الميلاد فلن يطول الانتظار في جمع المجمع».

ثم أراد أن يلمح له بالتهمة الموجهة إليه فقال: «ويسوءني يا صاحب القداسة أن تفرط منكم أقوال تدعو إلى إساءة ظن الملك كما فعلتم في مساء الأمس. وهل كان يليق بمثلكم أن يهدد مولاي بالخلع مما لم أكن لأصدقه لولا وجودي وسماعي إياه بأذني، وقد لمحتم بمثل ذلك أيضاً في كتابكم إليه الآن!؟».

فأدرك أوباس أنهم يريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك، فاستعظم التهمة ولكن باله استراح لوقوفه على حقيقة الخبر، فلم يرَ فائدة من الكلام مع مَرْتين في هذا الشأن، علاوة على أنه يشفي غلّه بذلك الكلام، فوقف بهدوء ورزانة وقال: «صبراً إلى يوم الاجتماع. وكأن رودريك لا يريد أن يُبقي عندي شك بقرب سقوط دولته فزادني

بعمله يقيناً بدنو أجلها!». قال ذلك ومشى دون أن يترك للأب مَرْتين فرصة للجواب، فنهض هذا وقال وهو يظهر الشفقة عليه: «ألا تزال تقول ذلك؟ يا للعجب! كيف يطيعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته، وأنتم تعلمون أن الكنيسة هي التي نصّبته بإجماع أساقفتها؟!».

فأدرك أوباس أنه يريد التطويل لمضاعفة التهمة عليه وشفاء غله، فتركه يتكلم وتحول عنه إلى نافذة تطل على الحديقة، فلما رأى مَرْتين ذلك منه ضحك وهرول مسرعاً نحو الباب ونادى الضابط وقال له: «يأمرك الملك أن تحتفظ بهذا السجين لأن أمره ذو شأن، واحذر أن يفلت منك!». وخرج الأب مَرْتين ظافراً منتصراً لولا ما ساءه من رباطة جأش أوباس وتأنيه وصبره. أما أوباس فإنه عاد إلى إعمال الفكرة وباله ما زال مشغولاً على فلورندا. فتذكر الفونس وخروجه بالأمس لقيادة الجند، فأراد الاستفهام عن مقره فعاد إلى الباب واستدعى الضابط وسأله: «هل علمت بخروج الأمير الفونس من طليطلة؟».

قال: «عملت أن فرقة خرجت من طليطلة بالأمس، ولا أدري إذا كان الأمير معها أم لا».

فترجح لأوباس أن الفونس سافر مع تلك الفرقة. ولكنه ظل مشتغل الخاطر بفلورندا لا يدري ما آل إليه أمرها، وخاف أن تكون قد وقعت في الأسر في جملة أهل منزله، وهم إنما قبضوا عليهم من أجلها، وود لو استطاع استطلاع أمرها من أحد، وحدثته نفسه أن يستفهم الضابط ولكنه خاف عاقبة ذلك، ولم يغره ما بدا من أنس الضابط وحُسن معاملته لعلمه أن الذين يطابق ظاهرهم باطنهم قليلون، وأقل منهم الذين يثبتون على عزمهم فيما تدعوهم إليه

ضمائرهم، فخاف إن هو كاشفه بحديث فلورندا أو تظاهر لديه بالاهتمام بها أن يبوح بذلك لدى أحد فيتخذ حجة عليه، مع ثقته في إخلاصه وولائه.

وهكذا قضى أوباس في محبسه بضعة أيام وهو ينتظر التئام المجمع. ولم يوفق إلى سبيل للاستفهام عن فلورندا ولا اتفق له سماع شيء عنها.

أصبح أهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزيّنت الشوارع ـ خصوصاً الشارع الكبير المؤدي من قصر الملك إلى الكنيسة الكبرى ـ واشتغل العبيد بكنسها وتنظيفها، ووقف الحرس صفيْن بين القصر والكنيسة وفي أيديهم الحراب وعليهم الملابس الرسمية التي يلبسونها في الاحتفالات الكبرى، فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا إلى الشارع الكبير، وتطاولوا من النوافذ وأشرفوا من السطوح يتوقعون مشهداً جميلاً!.

وكان يوماً صاحياً تجلت به الشمس على أبنية طليطلة ونهرها وبساتينها، فلما كان الضحى عجّ الشارع بالضوضاء، فالتفت الناس فإذا هناك فرقة من فرسان الحرس الملوكي بالملابس المزركشة قد خرجوا من قصر رودريك يأمرون المارة بإخلاء السبيل لموكب الملك. وعلى بضعة عشر متراً وراءهم زمرة من الشمامسة بالألبسة الزاهية يتخللها الوشي المذهب، بعضهم يحملون صلباناً قائمة على عُمد، والبعض يحملون الشموع ولكن قلما يظهر نورها لطلوع الشمس، فضلاً عن أن أكثرها طفيء بهبوب الرياح لأن طقس الشتاء في طليطلة وإن كان صافياً فإنه لا يخلو من الريح الهابّة لوقوعها على جبل، وبعضهم كان يحمل أغصاناً من الزيتون، وآخرون في أيديهم المباخر يتصاعد منه البخور وهم يترنمون بأناشيد لاتينية. وبعد حملة

الشموع فرس عليه رودريك بتاجه وحوله الأساقفة بملابسهم الرسمية ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الأكليروس، ووراء ذلك كوكبة من الفرسان. فلما رأى أهل طليطلة ذلك الموكب علموا أن الأساقفة قادمون للاجتماع، ولكنهم استغربوا أن يقع ذلك في غير موعده المعتاد.

وكانت المجامع الدينية في إسبانيا ثلاث درجات: المجامع الكبرى، والمجامع الاقليمية، والمجامع الابرشية. فالأولى تجتمع بأمر الملك في طليطلة للنظر في الأمور المهمة المتعلقة بالمملكة كانتخاب الملك أو المصادقة على قانون أو نحو ذلك، مثل اجتماعه في ذلك اليوم للنظر في التهمة الموجهة إلى أوباس. والمجامع الاقليمية تجتمع في الأقاليم بأمر الأساقفة مرة أو مرّتين في السنة. والمجامع الأبرشية يحضرها رؤساء الأديار والقسوس والشمامسة ونحوهم. فلما رأى أهل طليطلة موكب المجمع الأكبر في غير أوانه خافوا أن يكون هناك ما يتعلق بحرب أو عزل أو تولية.

أما الموكب فظل سائراً حتى وصل إلى الكنيسة فتنحى الفرسان إلى كل من الجانبين، وانقسم الشمامسة بشموعهم وصلبانهم ومباخرهم إلى قسمين، دخل كل قسم من باب جانبي، وترجل الملك والأساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الأوسط. وكان خدمة الكنيسة قد بكروا بتنظيفها ووضعوا المقاعد والكراسي في الترتيب اللازم في هذا الاجتماع، وأناروا الشموع وفتحوا الأبواب، ووقفوا ينتظرون الموكب ويمنعون كل من أرادوا الدخول إذا لم يكونوا ممن يخوّل لهم حضور المجامع، من أساقفة طليطلة والأقاليم المشتركة معها، والمطارنة ورؤساء الأديار والشمامسة والخوارنة وكبار رجال البلاط الملوكي. فلما دخل الموكب إلى الكنيسة اتخذ كل منهم مجلسه. وكانت

المقاعد قد رتّبت صفوفاً متعاقبة جلس الأساقفة على الأولى منها بترتيب الأعمار، ووراءهم الأساقفة الصغار بحسب الأعمار أيضاً ثم القسوس وأمامهم الشمامسة واقفين، وفي وسط القاعة أمام تلك المقاعد كرسي خاص بكاتب سر المجمع. وهناك عرش مزخرف أعدوه للملك. وبين يدي العرش مقاعد لمن يشهد الاجتماع من خاصة الملك. أما الأب مَرْتين فكان المفروض لكونه قسيساً أن يجلس بين القسوس وربما كان في مقدمتهم جميعاً لكبر سنّه، ولكنه فضل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يُخفى.

ولما استقر كل واحد في مجلسه أقفلت أبواب الكنيسة واستولى السكوت على تلك القاعة الكبرى برهة لا ينطق أحد بكلمة. ثم تكلم رئيس شمامسة الكنيسة وهو جالس بجانب الهيكل فقال باللاتينية: (Cremus) أي «فلنصل». فكان لقوله هذا صدى قوي، إذ لم يكد ينطق بتلك اللفظة حتى خرّ الجمع سجداً على ركبهم، وأخذ كل منهم يصلي لنفسه بصوت منخفض. ثم قطع صلواتهم أكبر الأساقفة سناً بصلاة قالها بأعلى صوته فأصغوا له. ولما فرغ منها صاح الجميع «آمين». ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية: (Surgite fratres) أي «انهضوا أيها الأخوة». فنهضوا وعاد كل إلى مجلسه. وعند ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الإيمان (نؤمن بإله واحد الخ) على نحو ما تقرر في مجامع القسطنطينية، ثم وقف شماس عليه ثوب أبيض ناصع، وبين يديه كتاب ضخم على حمالة بجانب مجلس كاتب السر وقد فتح الكتاب في مكان اختاره وكان الأساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك الشماس ليعرفوا منه موضوع الاجتماع لأن ذلك الكتاب قانون المملكة ـ وكانت عادتهم إذا التأم المجمع أن يقرأ الشماس فقرات من ذلك القانون تتعلق بالغرض الذي اجتمعوا من

أجله ـ فإذا هو يتلو مواد متعلقة بانتخاب الملك وبمن يسعى في إفساد نيّات الشعب عليه أو يتعمد خلعه ونحو ذلك، فأدرك الجمع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب.

فلما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد وقف كاتب الجلسة ووجه خطابه إلى الحضور قائلاً: «ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم والأحوال على ما يتراءى لكم هادئة: ولكنني أبلغ قداستكم أننا اجتمعنا للنظر في تهمة موجهة إلى أخ من إخواننا ـ وللأسف أنه أسقف من الأساقفة، ربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع أنه مقيم في طليطلة، ولا شك أنكم عرفتموه» فلما قال الكاتب ذلك ضج الأساقفة وتهامسوا في شأن أوباس، وأكثرهم لم يستغرب اتهامه بخلع رودريك لما يعلمونه من علاقته بالملك السابق وطمعه في الملك لأبنائه. ثم قال الكاتب: «وسنستقدمه ويقف بين أيديكم وقفة المتهم، فإما أن يبرىء نفسه أو يجري عليه القصاص».

فلما فرغ الكاتب من كلامه تكلم أحد الأساقفة الجالسين في المقعد الأول وقال: «لا بد لكل تهمة ممن يوجهها وممن توجه إليه، وقد علمنا أن المتهم هو أخونا أوباس، ولكننا لم نعلم مَن يتهمه بذلك؟».

فأجاب الكاتب: «إنكم ستعلمون ذلك متى حضر».

فسكت الجميع وتربصوا ينتظرون قدوم أوباس وسماع محاكمته، فانفرد أحد الشمامسة ومشى إلى غرفة تستطرق إلى باب سري فتوجهت أنظار الأساقفة إلى تلك الجهة، ثم ما لبثوا أن رأوا أوباس داخلاً بمشيته المعهودة وقامته المعتدلة وجلال محيّاه وهيبته، وليس على وجهه شيء من دلائل الاضطراب أو الوجل. فلما وصل إلى الساحة الوسطى أمام مجلس الأساقفة أجال نظره فيهم ثم التفت

إلى مجلس الملك ولم يعِرْ الأب مَرْتين انتباهه كأنه لم يكن موجوداً هناك، ووقف وقفة قاضٍ لا وقفة متهم!

وقف وهو ينظر إلى مَن حوله نظره إلى أناس ضعفاء، فلم يهمه عددهم ولا ما في أيديهم من السلطة النافذة، خصوصاً الملك لأن أوباس كان يعده غلاماً غراً، وزاد احتقاراً له بعد ما عاينه من أمره مع فلورندا، والرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم، لا بمناصبهم، وإن كان الناس قد تعودوا احترام أهل المناصب والغنى والنفوذ، ولكنهم لا يزالون في باطن سرهم يفضلون رجال الفضيلة، ولا يعدون احترامهم لغيرهم إلا تظاهراً، خوفاً من الظلم أو التماساً للنفع. على أن منهم من يبالغ في إطراء أهل النفوذ حتى ينخدعوا بأنفسهم ويزداد ضررهم. فإذا كثر أولئك المتملقون في بلاط ملك ضعيف اغتر بنفسه، وانقاد لأهوائه وعمل بمشوراتهم وهم لا يصلحون للشورى، فتنحل الأمور، ويسود أهل الفساد، وتؤول الأحوال إلى الدمار والعياذ بالله!.

وكان أوباس ممن لا يذعنون إلا للحقيقة ولا يخيفه إلا الخروج عن جادة الحرية. ولم يكن يشعر أنه حيّ لنفسه رغبة في الحياة الدنيا أو طمعاً في مناصبها أو ملاذها. ولكنه كان يرى نفسه منذ اعتزل العالم وانتظم في سلك الكهنة أنه إنما يعيش عبداً لمبدأ يراه مجسّماً في مخيلته، ويستغرب تغافل الناس عنه ـ كان يرى نفسه أسيراً للحق، عبداً للحقيقة وحرية الفكر، لا يعرف المداهنة ولا المراوغة ـ فلا تعجب إذا رأيته واقفاً في ذلك المجلس غير هيّاب، وهو يرى الحق أعظم منهم وأشد هيبة.. فلما وقف الكاتب ووجه خطابه نحوه قائلاً: «أبلغ سيادتكم أننا استقدمناكم إلى هذا المجمع لتهمة موجهة إليكم، يتمنى كل واحد منا أن تكون باطلة فتبرأ ساحتكم. إنكم

متهمون بالمؤامرة على خلع الملك. ولا يُخفى على سيادتكم أن مثل هذه التهمة لا تمسّ الملك فقط، بل هي تتناول هذا المجلس كله، لأنه هو الذي انتخبه وأقره».

وكان الأب مَرْتين في أثناء كلام الكاتب شاخصاً بعينيه، متطاولاً بعنقه، فلما سمعه يقول ذلك أشار بإطباق جفنيه وهزّ رأسه أن «أحسنت!» لأنه حسب ذلك يزيد نقمة الأساقفة وسائر أعضاء المجمع على أوباس الذي لم يعبأ بما يبدو من أحد، فلما فرغ الكاتب من كلامه استولى السكوت على الجلسة وتطاولت الأعناق لسماع ما يقوله أوباس فإذا هو يقول بصوت هادىء: «سمعت كلامك وما تقوله من أمر اتهامي، ولكني لا أُجيب عنه قبل أن أعرف الرجل الذي يتهمني».

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى رأسه كأنه يقول: «جلالة الملك نفسه!».

فقال أوباس: «وما هي أدلته على هذه التهمة؟» فلم يسع الكاتب إلا الالتفات إلى رودريك كأنه ينتظر جوابه على قول أوباس، فأشار الملك إلى الأب مَرْتين أن يجيبه، فوقف مَرْتين وقد نسِيَ التأني ورباطة الجأش وعاد إلى فطرته العجولة. فلما رآه الأساقفة يهم بالكلام أصاخوا بأسماعهم لما يقوله لئلا تفوتهم ألفاظه بالتمتمة فلا يفهمون مراده ـ وعلى جوابه سيبنون حكمهم ـ فقال: «أتطلب الأدلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها؟». يكفي أنكم منذ كان الملك السابق حياً لا تزالون تسعون في خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع إلى الأريوسية، وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعاً، فأخذتم تبذلون كل مرتخص وغالٍ في مقاومته ولكنه مؤيد من الله والكنيسة!. ومن عجيب أمرك أنك تطلب الشهادة على

صدق قول جلالته». ولم يبلغ إلى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامه المتقطع، فالتفت أوباس إلى الحضور وهو يبتسم، وقال: «بل من العجائب استغراب طلب الدليل على تهمة موجهة نحو أسقف يحمل جسد الله بين يديه، تهمة أقل ما يُقال فيها أنها مختلقة!. نعم مختلفة ولو قالها الملك، لأن الحق فوق الملوك والأساقفة. ثم لا أدري ما الذي يسوغ هذه التهمة؟! وكيف يُقال إني تآمرت على خلع هذا الملك؟! فمع مَن تآمرت؟ وأين؟ وكيف؟ وهل تكون المؤامرة أو التواطؤ إلا بين جماعة؟ فمَن هم رفقائي في التهمة؟ إنه قول غير معقول. ولست أقول ذلك فراراً من العقاب لأن العقاب لا يهمني!».

فلم يصبر الملك عن جوابه بنفسه، فقال وقد حملق عينيه وقطب حاجبيه: «يا للعجب من هذه الوقاحة! كيف تنكر، وقد سمعتك بأذني هذه تهددني بقرب انقضاء هذه الدولة، وأنه يهون عليكم إخراج الملك من يدي؟ هل تنكر ذلك وقد سمعه الأب مَرْتين أيضاً؟ فهل من دليل أوضح من هذا؟!».

وكان الأساقفة ميالين إلى التصديق لأسباب منها أن أكثرهم يكرهون أوباس لحرية ضميره وشدته في الحق، ولأنه قوطي. ناهيك بالقرائن التي تساعد على ثبوت التهمة، لأن أهل طليطلة كلهم يعرفون كره بيت غيطشة أجمعين لرودريك وكل مَن يقول بقوله - خصوصاً الأساقفة - لبواعث تقدم بيانها. فلما سمعوا شهادة الملك نفسه وشهادة قسيسه مالوا إلى الحكم على أوباس. وزد على ذلك أنهم كان يمكنهم الحكم عليه بدون محاكمة، ولكنهم اجتمعوا ذلك الاجتماع ليقضوا به شبه واجب عليهم. فلما فرغ الملك من كلامه وجهوا أبصارهم نحو أوباس ليسمعوا قوله، فرأوه لا يزال على ثباته

ورباطة جأشه. وقبل أن يُشرع في الجواب اعترضه أحد الأساقفة قائلاً: «إني لأعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة الملك، وتنصيبه إنما كان بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة والكنيسة. والذين يدعون الحق لأبناء غيطشة أو غيره من أعضاء عائلته في الملك إنما هم مخطئون. لأن الملك في إسبانيا الآن انتخابي كما لا يُخفى على سيادتكم، ولا يجلس على هذا العرش إلا الذي ينتخبه هذا المجمع المقدس. فهل تنكرون أن جلالة الملك مُنتخب على هذه الصورة؟».

فلما سمع أوباس ذلك أدرك أنهم يحاولون إيقاعه فلم يبال بل قال وقد وجّه خطابه إلى الأسقف: «إن هذا السؤال يا حضرة الأسقف خارج عن موضوع التهمة، ومع ذلك فإني أجيبك عنه. نعم إن هذه المملكة أكثر ممالك أوربا خضوعاً للكنيسة، وأساقفتها هم الذين ينصبون الملك كما ذكرت، ولا أنكر أن جلوس هذا الملك كان بانتخاب هذا المجمع فانتخابه كان قانونياً، وإن كنت لا أعتقد أن المجمع توخى كل الطرق القانونية بنقل الصولجان من الملك المرحوم إليه مما لا أخوض فيه الآن. ولكني لا أُخفي عليكم أيها السادة إنني أرى الكنيسة قد تمادت بسلطتها في هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدها ـ أقول ذلك وأنا من أعضاء الكنيسة، ولا أظن أحداً منكم يقول هذا القول ولو كان يعتقده، لأنه يغاير مصلحته!».

وكان الأب مَرْتين لما سمع تعريض أوباس بالمجمع في الانتخاب أشار إلى الكاتب أن يدوّن ذلك القول أمامه ليطالبه به، ففعل. أما الأسقف الذي كان الكلام موجهاً إليه فأجاب قائلاً: «يظهر أنك تنكر فضل الكنيسة على المملكة، وهل يُخفى عليك أن الكنيسة الكاثوليكية هي التي حفظت النظام والتمدن في هذه القارة.

وقد جاء أجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم ـ وأكثرهم وثنيون ـ فتغلبوا على المملكة الرومانية وتفشوا في مدنها قبائل رحلاً لا علم عندهم ولا تمدن، فجمعتهم الكنيسة في أحضائها وهذبت أخلاقهم وجعلتهم أمماً وممالك، وهي التي حفظت لهم العلم والحكمة، وهي التي دربتهم في كل شؤونهم السياسية والإدارية، ولولاها لكانت أوربا فوضى لا علم فيها ولا نظام».

فهَمّ أوباس بالجواب، ولكن الكاتب دق جرساً أمامه إشارة إلى التماس السكوت، فسكتوا والتفتوا فرأوا الملك يهم بالكلام فأصغوا. وقال الملك وهو جالس على عرشه وصدره يتقدمه وشعره مرسل إلى كتفيه من تحت تاجه: «لا حاجة بنا إلى الخوض في مسائل لا علاقة لها بالموضوع. يكفي ما قد سمعتموه من كلامه الآن من استهجان أعمال المجمع في انتخاب الملك، وإنكم لم تنتخبوه بطرق قانونية. فمن يصرح بمثل ذلك في مجلس القضاء هل يستغرب اتهامه بالمؤامرة».

فالتفت أوباس إلى رودريك قائلاً: «لا علاقة أيها الملك بين استحساني الانتخاب أو استقباحه، وبين مؤامرة تزعمون أني عقدتها لخلعكم ـ نعم إني أشك في الطرق القانونية التي اتُخذت في الانتخاب، ولكنني لم أبنِ عليها مؤامرة كما هو اعتقادكم».

فاعترضه الأب مَرْتين قائلاً: "وكيف لا يعتقد جلالته ذلك وقد سمعه من فيك كما سمعته أنا..؟ يا للعجب!". قال ذلك والتفت إلى الملك وقال: " يظهر أن أمر المجادلة طال، بينما التهمة صريحة واضحة".

فالتفت الملك إلى الأساقفة وقال: "قد سمعتم ما قاله أوباس، فإما أن يكون الملك رودريك تنصب على طليطلة بغير حق، وإما أن

أوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق" . قال ذلك وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً حتى لقد نزل من فوق عرشه ومشى وهو لا يفقه، ثم عاد إلى كرسيه وجلس بعنف ففهم أوباس أنه يعرض بتجريده من رتبته الكهنوتية قصاصاً له فقال: "لا تظن هذا التهديد يضعف عزمي في قول الحق، لأني لست أسقفاً بهذا الثوب، ولا أنت ملك بهذا التاج. وإنما الأعمال بالنيات. ومهما أردتم بي من القصاص فذلك لا يقلل شيئاً من اعتقادي، ولكنه يزيد ذنبك يا رودريك أمام الديان العظيم لأنه سبحانه وتعالى يعلم السبب الذي من أجله نقمت عليّ وسقتني إلى هذا المجمع. وأنت تعلم وهذا الأب المحترم أيضاً يعلم السبب الذي نقمتما من أجله حتى سقتماني إلى هذا الموقف، وما أنا هائب موقفاً أراني فيه محقاً ولو لم ينصفني الناس، فإن الله نصيري وهو يعلم ما في القلوب" .

فلما سمع الملك تعريضه بحديث فلورندا خاف أن يحرجوه فيصرح به ويذكر اسمها وحكايتها، فتظاهر بالغضب ووثب من مجلسه وصاح فيه: "ويلك.؟ أبمثل هذا الكلام تخاطب ملك الإسبان؟!" . ثم التفت إلى المجمع وقال لهم: "إذا كنتم صابرين على أقواله فها أني أخلع نفسي أو هو مخلوع من ساعته..!" .

فقال أوباس وهو لا يزال رابط الجأش: "لا بأس أيها الملك إذا أنا خلعت هذا الثوب، غير أن ذلك لا يغسلك من الرجس الذي تعمدت الإنغماس فيه ومن أجله سمعت توبيخي، فساءك الحق وثقل عليكُ فأردت الإنتقام مني. ولكن الله وليّ النقمة!" .

فقاطعه رئيس الأساقفة قائلاً: «أدعوك يا حضرة الأسقف باسم الكنيسة أن تسكت». فلم يسع أوباس غير الإذعان، واستولى على الجلسة السكوت برهة والكل مطرقون، وربما تهامس البعض بكلام

لا يُسمع له طنين. وكان الأب مَرْتين في أثناء ذلك يجيل عينيه في الأساقفة يتصفح ما يبدو في وجوههم، فإذا وقعت عينه على عين أحدهم أشار بحاجبيه وشفتيه إشارة الاستهجان وهو يومىء إلى أوباس.

أما هذا فكان واقفاً وقوف رجل بريء الساحة، واسع الصدر، يرسل بصره إلى الأساقفة بلا إشارة ولا ملاحظة، ولكن يظهر من سكون جأشه وما يتجلى في وجهه من الهيبة أنه غير مبالٍ بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة، لاعتقاده أنه سيق إليها زوراً وبهتاناً - على أنه تذكر ما دار بينه وبين الفونس قبل سفره، وما تواطأ عليه من أمر الملك ونحوه، فرأى التهمة تصدق عليه من هذا الوجه، ولكنه راجع ما صدر من أقواله في تلك الجلسة فلم يرَ فيها ما يمنع إنكاره حق الملك على رودريك وفيما هو يفكر في ذلك وقعت عينه على صورة كبيرة معلقة في بعض جدران الكنيسة تمثل السيد المسيح واقفاً بين يدي بيلاطس للمحاكمة، فتذكر قبوله الصلب دفاعاً عن الحق، فزاد استمساكاً بموقفه!

أما رودريك فكان قد عاد إلى كرسيه، ولما رأى المجلس ساكتاً خاف أن يعودوا إلى البحث فيما وجهه إليه أوباس من تهم فالتفت إلى رئيس الأساقفة وقال وهو يظهر الهدوء كمن له سلطان أن يدير آراء المجمع كما يشاء: «لقد كفانا ما سمعناه، وإذا رأيتم المسألة تحتاج إلى نظر بعد كل ما بدا لكم من الأدلة الصريحة، فإني أحل هذه الجلسة ونؤجل البحث إلى جلسة أخرى».

فوقف الأب مَرْتين وقال بلهجته المعلومة موجهاً خطابه إلى رودريك: «لا يتبادر إلى ذهن جلالة الملك من سكوت أعضاء المجمع أنهم يشكون في نطق جلالته، أو يخامرهم أدنى ريب من ثبوت التهمة

على أوباس بعد الشهادة الصريحة التي أدليتم بها جلالتكم ولم ينكرها هو. بل أيدها بما فرط منه من العبارات الصريحة التي تدل على غضبه من هيئة الحكومة الحاضرة وممن كان لسبب فيها، كأنه قال بصريح العبارة: «إن هذا المجمع قد خان البلاد بانتخابه جلالة الملك..!».

فلما سمع أوباس قوله وما فيه من إثارة الخواطر عليه وجّه خطابه إلى رئيس الأساقفة قائلاً: «قد سمعتم ما قاله الأب مَرْتين، ولا أضمن أنكم فهمتموه، وكأني بكم تتوقعون إنكاري ذلك خوفاً من العقاب. كلا. إني أشك في قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم، ولو خيّرت ربما اخترت سواه. وأما الدعوى التي سقتموني من أجلها إلى هنا فما هي في شيء من ذلك. إن رودريك هذا الذي تسمونه ملكاً إنما جمعكم لمحاكمتي واتهمني هذه التهمة لأني نصحت له أن يرجع عن فظيعة هَمّ بارتكابها. ولولا خوفي من تدنيس هذا المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها، ولو فعلت ذلك وأنصفتموني لباشرتم رجم هذا الجاني بأيديكم!».

فضج المجمع، وهاج غضب الملك، وخاف زيادة التصريح فتظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ولم يدر ماذا يقول، فأنقذه الأب مَرْتين من تلك الورطة بقوله يخاطب كاتب الجلسة: «يرى مولاي الملك أن أخانا الأسقف قد تهور في أقواله وخرج عن طوره إلى الخلط والهذر، كأنه جن لفرط ما خافه من سوء العاقبة فلم يفقه ما يقول، ولذلك فمولاي الملك يأمر بإقفال الجلسة حالاً وتأجيل المحاكمة إلى جلسة أخرى. ولا يجوز بعد صدور هذا الأمر أن يفوّه أحد في هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية».

فنزل كلام الأب مَرْتين برداً وسلاماً على رودريك ولم يسع الكاتب إلا العمل بالإشارة لأن للملك الحق في فتح الجلسة ورفعها

دون سواه. ولم يكترث أوباس بذلك بعد أن قال ما قاله ولو بالتلميح، ثم وقف رئيس الأساقفة فتلا الصلاة الختامية، وانفضت الجلسة فخرجوا إلى منازلهم إلا أوباس، فإنهم ساقوه تحت الحفظ إلى مخفر آخر وأوصوا الحراس أن يحتفظوا به.

— ٦ —

فلنترك أوباس وشأنه ولنعد إلى الفونس وما كان من أمره بعد ذهابه بأمر الملك. فقد خرج من منزله ومعه يعقوب وسارا إلى مقر المعسكر في بناء كبير بضواحي طليطلة وحولهما الفرسان الذين جاؤوا بأمر الملك فأوصلوهما إلى المعسكر وعادوا. فلما دخل الفونس استقبله الجند بالاحترام فترجل ومشى، ويعقوب يسير بين يديه وليس معه من الخدم سواه وقد استغربوا منظره بما ذكرناه من إهماله لحيته وثيابه، حتى وصلوا إلى غرفة خاصة بالقائد الكبير فإذا هو بخادم واقف هناك وبيده كتاب عرف الفونس من منظره الخارجي أنه من الملك، فخفق قلبه لفرط ما غاظه الكتاب الماضي، فدخل ولم يطلبه حتى جلس في صدر الحجرة فاستأذن الرسول من يعقوب بالدخول على الفونس فاستأذن له، فقال لا حاجة إلى دخوله هات الكتاب منه، فأخذه منه وجاء به إلى الفونس وهو يقول: «لا تغضب يا سيدي، لعل فيه أمراً بالرجوع إلى منزلك».

فتناول الفونس الكتاب وفضّه دون أن يتكلم فإذا هو من الملك يقول فيه:

«من رودريك ملك القوط إلى القائد الباسل الفونس

«باسم الأب والإبن والروح القدس

«أما بعد. فقد سبق أن كتبنا إليك بالذهاب إلى كونتية.. ولم تعيّن لك المدينة التي تنزل فيها فانزل مدينة استجةAstgia من

كونتينة بتيكة وأقم برجالك في إحدى القلاع ريثما اكتب إليك بالجهة التي تذهب إليها ـ وقد أرسلت إليك مع هذا كتاباً تدفعه إلى كونت بتيكة ليتلقاك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة والسلام. كتب في قصر طليطلة».

فلما فرغ الفونس من قراءة الكتاب أمر يعقوب أن يأتيه من الرسول بالكتاب الآخر فجاءه به ودخل عليه وأغلق الباب وراءه وقدم له الكتاب وهو يتفرس في وجهه. فلما رأى ما فيه من الانقباض واليأس أراد التخفيف عنه فعطس عطسة ارتج لها ذلك البناء فانتبه الفونس ونظر إلى يعقوب فإذا هو ينظر إليه ويضحك ويهز رأسه ويحكّ ذقنه بأنامله، فاستغرب الفونس ذلك منه وكاد ينتهره لو لم يسبق إلى ذهنه ما آنسه من احترام عمه أوباس له واعتماده على أقواله، وتذكر السر الذي توسمه في سيرته فابتسم له وقال: «ما الذي يضحكك يا يعقوب؟ هنيئاً لقلبك!». قال ذلك وتنهد، فتنهد يعقوب وقال له: «بل هنيئاً لك أنت كيف تخدمك السعود على أهون سبيل!».

فهز الفونس رأسه وقال: «تباً لهذه السعود، دعني وشأني!». قال ذلك ونهض وهو يقول: «لا يليق بنا الاستتار هنا ونحن مأمورون بالذهاب الليلة، ولا بد لي قبل كل شيء من استدعاء القواد وإبلاغهم الأمر بالاستعداد، فامض إلى قائدي الخمسمائة واستقدمهما إليّ».

وكان الجند الإسباني في عهد القوط مؤلفاً من فرق، كل فرقة ألف جندي يسمى قائدها رئيس المعسكر، تحته قائدان كل منهما يرأس خمسمائة تقسم إلى مئات اسم قائد كل منها قائد المائة. فالقائد العام يبلغ أوامره إلى قائدي الخمسمائة وهما يتوليان تدبير الجند..

فخرج يعقوب ثم عاد وأخبر الفونس أن القائدين قادمان، ثم جاءا وقد لبسا لباس السفر، وشعرهما مثل شعور سائر القوط مسترسل على أكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح النعم في قيافتهما. فلما دخلا سلّما على الفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان أبوه حياً ويحترمانه من أجل ذلك، وقد سرّهما تولّيه قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من حميد أخلاقه وطيب عنصره. وكانا من أهل الغيرة على عصبية القوط، لم يرضيا برودريك إلا مع الجماعة، فإذا خلوا تحدثا بما كان من تحول النفوذ إلى العنصر الروماني بعد تولي رودريك ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدي أحد، حتى ولا الفونس نفسه لأنه أصبح مثلهم في ذلك. فلما رآهما الفونس تذكر أنه شاهدهما من قبل، ولكنه استغرب تأهبهما للسفر قبل أن يصدر لهما الأمر بذلك فقال: «أراكما بلباس السفر؟».

فتلكم أحدهما واسمه «ومبا» ـ وكان طويل القامة شديد سواد العينين والشعر ـ وقال: «لقد وردت إلينا الأوامر بذلك من جلالة الملك تعجيلاً للرحيل، فالجند الآن كله على أهبة السفر، إنما يحتاج إلى أمر من مولاي الفونس».

فلما سمعه يذكر اسمه استأنس به، وشعر براحة إليه وقال: «نقلع من هذا المعسكر الآن فأرجو أن تتوليا تدبير الجند في قيامه وقعوده إلى أن نبلغ مقصدنا».

فأشارا بإحناء الرأس أن «سنفعل» ثم تكلم ومبا وكانت له جسارة وتقدم على رفيقه وقال: «ألا ينبئنا مولاي عن الجهة التي نحن ذاهبون إليها؟».

قال: «إننا ذاهبون إلى استجة على نهر السنجيل في كونتية بتيكة. فهل تعرف الطريق إليها؟».

قال: «أعرفها جيداً فإن الطريق إليها نحو الشمال بغرب إلى مريدة على نهر أناس، فنقطعه ونسير شمالاً بشرق إلى قرطبة، ثم ننحدر إلى استجة على نهر السنجيل، وقد عرفت هذه المدينة وصليت في كنيستها، وأقمت في قلعتها وعبرت جسرها وعرفت أديارها وأسواقها».

قال الفونس: «بورك فيك، لقد ألقيت الأمر إليكما في تدبير هذه الحملة في أثناء المسير، ولكنني أوصيكما بأمر يهمني كثيراً، وذلك أنني لا أريد أن يعتدي الجند في أثناء الطريق على أحد من الفلاحين ولا أن يأخذوا لأحد مالاً أو زرعاً أو يسيئوا معاملة أحد. فإذا فعل أحد ذلك كان جزاؤه عندي الجلَد أو القتل، وإذا كان من أرباب الرتب جردته من رتبه وأملاكه وأهنته، فإني أريد أن يسير هذا الجند بكل هدوء وسكينة».

فلما سمع ومبا ذلك ظهر الإعجاب في عينيه البراقتين وقال: «بورك فيك وفي أصل أنت فرعه، لقد عودنا المرحوم أبوك مثل هذا العدل والرأفة».

فلما سمع قوله عضّ على شفته وأطرق كأنه يقول له: «ليس هذا وقت التصريح»، ثم أتم كلامه قائلاً: «وآمر الكهنة المرافقين لهذه الحملة أن يوصوا الجند بهذه الوصايا. ولا يُخفى عليكم أن جندنا أكثر ما يحسنون الحرب مشاة فلا تتعبوا المشاة بالمسير ولا تحملوهم أحمالاً ثقيلة. ويكفيهم ما يحملونه من الدروع والأسلحة».

فلما فرغ الفونس من كلامه لم يزد ومبا على إشارة الطاعة ثم قال: «ألا يأمر مولاي بحاشية من الأعوان والموالي تسير في خدمته الخاصة».

فأراد الفونس أن يصرح له بالتخفيف عن الموالي، ولكن وقعت

عينه على يعقوب فرآه يشير إليه إشارة خفية ألا يفعل، فانتبه وقال: «لا أحتاج الآن إلى أحد فإن معي خادمي هذا، وهو يدبر لي ما أحتاج إليه وإذا احتجت إلى سواه طلبت».

فخرج القائدان فرحين بمرافقة الفونس، أما هو فلما خلا بيعقوب قال له هذا: «خفت أن يسبق لسانك إلى قول تؤاخَذ عليه ونحن بين يدي الأعداء، واعلم يا مولاي إنك موفّق بإذن الله لأن الأمر الذي كنت لا تستغني في الوصول إليه عن بذل الأموال واستخدام الرجال قد وصلت إليه عفواً».

قال: «وماذا تعني!؟».

قال: «أعني أن المشروع الذي أسسته مع مولاي الميتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم قد أتيحت لك فرصة الشروع فيه منذ الآن. هذه فرقة من الجند الآن تحت أمرك فقربها منك وحببها إليك ببذل المال.. المال..!». قال ذلك وتلمظ كأنه يتلذذ بطعام شهي! فقطع الفونس كلامه وقال: «ومن أين لنا المال يا يعقوب؟». فوضع يعقوب كفه على صدره وحنى رأسه وأطبق جفنيه ولسان حاله يقول: «المال عندي وعليَّ إحضاره».

فتذكر الفونس مثل ذلك الوعد بين يدي أوباس في ذلك الصباح فتاقت نفسه إلى استطلاع سر هذا الرجل فقال: «لقد أذكرتني وعدك السابق، ولا يُخفى عليك أني شديد الميل إلى معرفة حقيقة أمرك!».

فتحوَّل وجه يعقوب إلى الجد مع بعض الانقباض وقال: «يأذن لي مولاي بتأجيل ذلك إلى وقت آخر. وأما المال فإني سأبين لك سبيل الحصول عليه بعد وصولنا إلى استجة، والأمور مرهونة بأوقاتها. طب نفساً وقر عيناً، وكن على يقين أني على قبح خلقتي وقذارة ظواهري لا

أخلو من حسنات نافعة! والآن لا بد لنا من الركوب لأني أسمع قرع الطبول إيذاناً بالمسير».

قال: «إليَّ بالفرس فاركبه وتول أمر الخدم وتدبير ما قد نحتاج إليه من الأطعمة ونحوها فإنك نائب عني في كل ذلك، ولا تدع أحداً يأتي إليَّ من الخدم».

فخرج يعقوب وأحضر فرساً من أحسن أفراس الحملة وعليه سرج ثمين، وكان الفونس بلباس القواد وقد زيّنه شبابه وجماله. وقبيل الغروب أذن بالرحيل فأقلعت الحملة مارة قبل خروجها من ضواحي طليطلة بمرتفع يطل على المدينة، وهي واقعة على مرتفع آخر، فالتفت إليها الفونس وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى، ولما وقعت عينه على قصر فلورندا خفق قلبه خفوقاً سريعاً وهاج به الوجد، وتذكر ما كان من لقائه إياها في ذلك اصباح وما آلت إليه حاله في المساء، ونظر إلى السماء والغيوم تتكاثف وتتلبد أشبه بما يتكاثف على قلبه من سحب الهيام والشوق، وخيّل له أن الطبيعة تشاركه في ذلك الشعور ـ والمرء مفطور على تطبيق حوادث البيعة على ما يوافق شعوره، وتفسيرها بما يلائم اعتقاداته وأوهامه ـ فلا غرو إذا توهم الفونس أن السماء تجهمت شعوراً بفراق حبيبته.

ولم تغب الشمس حتى أظلمت الدنيا وتساقطت الأمطار وهبّت الرياح ولم يعد المسير ممكناً لهم، فأمر الفونس بالنزول هناك فنصبوا الخيام وفي جملتها خيمة له نصبوها حالاً وجاء يعقوب فاستدعاه إليها ودخل هو معه. وكانت ليلة شاتية قاسى فيها الفونس من هول الوحشة والشوق مثل ما قاسته فلورندا فيها من العذاب، وهو غافل عن حاله لاعتقاده أنها على موعد منه ليأتي لإنقاذها في ذلك المساء وقد وكّل بذلك عمه أوباس.

فلما دنا الوقت المعين لإنقاذ فلورندا تصورها الفونس خارجة من قصر رودريك مع أجيلا وشنتيلا في القارب إلى منزل أوباس، وتوهم أنها أصبحت في مأمن هناك ريثما يبعث بها إليه حيثما يكون. ثم تذكر بغتة أن أوباس لا يعلم المكان الذي هم ذاهبون إليه، فانتبه للسبب الذي من أجله غيّر الملك خطة مسيره، والتفت إلى يعقوب وكان جالساً في بعض جوانب الخيمة وقد تزمل بقباء كثيف وتلملم وتجمّع من شدة البرد، والرياح تهب والرعود تقصف، وقال له ولم يحاذر أن يعلو صوته لعلمه بانشغال الآذان بقصف الرعد عن سماع حديثهما: «هل علمت السبب الذي من أجله غيّر الملك خطة مسيرنا؟!».

فرفع يعقوب رأسه وقال ولحيته ترتعش من البرد: «أظنني عرفت وعرفت أشياء أخرى، لولا البرد الشديد لكنت أقصها عليك».

قال: «وماذا عرفت. قل لي وإذا كنت تشكو البرد فإليك بقدح من الخمر يدفئك». قال ذلك وأشار إلى «خرج» كان في الخيمة ويعقوب يعرفه ثم قال: «واعطني قدحاً فأشربه أنا، فإن مثل هذا الليل لا يذهب وحشته وبرده إلا الخمر!».

فتشدد يعقوب ووقف وأسنانه تصطك حتى ليكاد يسمع الفونس صوتها. ومشى حتى استخرج الوعاء وصب منه الخمر في قدح من الفضة كان هناك. ودفعه إلى الفونس فشربه، وتناول قدحاً آخر صب فيه لنفسه وشرب، ثم صبّ قدحاً آخر لألفونس وآخر لنفسه، حتى إذا دبت الخمر في عروقه فأذهبت ارتعاشه ملأ القدح وتناوله ووقف بين يدي الفونس ورفع يده والقدح فيها وهو ينظر إلى ما حوله كأنه يحاذر أن يراه أحد وقال: «قد توهم رودريك أنه خدم

غرضه بإرسالنا إلى استجة، وفاته أنه يخدم غرضنا إذ لا بد لنا من الذهاب إلى هذه المدينة للمشروع الذي نحن عازمون عليه».

فاستغرب الفونس قوله وضجر من الأحجية والألغاز وقال له: «لقد أضجرتني يا يعقوب من إشاراتك وألغازك! لماذا لا تصرح لي بما في نفسك؟».

فانقلب وجه يعقوب إلى الانقباض وقال: «قلت لمولاي أن موعدنا في ذلك قريب إن شاء الله، وأرجو أن لا يلح عليَّ في الأمر فإن الإلحاح مضر. اصبر يا مولاي وسأطلعك على كل شيء قريباً. واعلم أن رودريك هو الذي عجل كشف هذا السر بإرسالنا إلى هذه المدينة.. وما أظن ثورتها إلا من أمثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين. ولا أخفي على مولاي أن أهل هذه البلاد غاية في الضنك من استداد حكامهم، وكانوا يشكون ضغط الرومان عليهم، فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان فإذا هم تحت النيرين معاً، وقد أصبحوا أرقاء لا حرية لهم ولا منزلة، ولا عقار ولا مال. فلما عاينوا ضعف هذه الدولة كثر تمردهم وهياجهم، وقد سهل هذا الأمر عليهم خطأ ارتكبه ملوك القوط المتأخرون مع جماعة اليهود فأكرموهم على نبذ ديانتهم واعتناق النصرانية فأصبح اليهود عوناً عليهم».

فقطع الفونس كلامه قائلاً: «ولكن اليهود قد انقرضوا من إسبانيا الآن ولم يبق فيها يهودي كما لا يُخفى عليك!».

قال: «أعلم ذلك يا مولاي، وأعلم أيضاً أن ملوك القوط قبل المرحوم والدك شددوا في اضطهاد اليهود وخيّروهم بين القتل أو النصرانية أو المهاجرة، فهاجر بعضهم وتنصر الباقون، فاختفت اليهودية ولكنها لم تندثر!». ثم التف بعباءته وهو يقول: «أرانا خرجنا

من الموضوع قبل الأوان، وخلاصة الأمر أن المهمة التي نحن ذاهبون فيها مهما يكن من أمرها فإني ضامن إخمادها بدون أن نجرد سيفاً أو نرمي نبلاً». ثم تحول إلى مجلسه الأول وهو يقول: «وقد آن وقت الرقاد، ألا يرغب مولاي في ذلك؟».

فابتدره الفونس قائلاً: «وقبل الذهاب إلى النوم اسقنا كأساً أخرى واشرب مثلها».

وناما تلك الليلة نوماً عميقاً برغم تساقط الصواعق وهبوب الرياح. وصحا يعقوب مبكراً وخرج لإعداد ما يحتاج إليه الفونس، ولم تشرق الشمس حتى كانوا على أهبة الرحيل، فقوّضوا الخيام وركبوا على نظامهم، وألفونس ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان. وبعد هنيهة عبروا الجسر فوق نهر التاج، وبعبرهم إياه توارت طليطلة وراء التلال.

سارت الحملة بأثقالها وأحمالها جنوباً بغرب وقد صحا الجو وأشرقت الشمس وأرسلت أشعتها على البساتين والغياض والأودية والتلال، وألفونس يعجب لما يقع بصره عليه من البقاع الخصبة وفيها أصناف الأشجار والمغارس، ولكنه استغرب خلو المزارع من الناس، ولو أنه لم يكن يتوقع أن يرى فيها غير العبيد أو من جرى مجراهم من الفلاحين والحراثين، وكان الأشراف وأصحاب الضياع يعاملونهم معاملة الأرقاء إذ كانوا يعملون في المغارس والضياع، وهم والأرض وما يسرح فيها من الدواب والماشية ملك للأشراف الذين كانوا غالباً ما يقيمون في المدن حيث يقيم الحكام.

وكان الفونس قلما يخرج من المدن، ولم يكن يهمه الالتفات إلى حال أولئك الفلاحين، ولكنه بعد ما دار بينه وبين أوباس بشأن الملك، وما عزموا عليه من تحرير أولئك الأرقاء والاعتماد عليهم في

تحرير المملكة، أصبح همه الالتفات إلى البلاد وأهلها. فإذا هم يمرون في أرض لا يظهر لأهلها عناية في غرسها واستثمارها، وقلما شاهدوا فيها أحداً من الناس، فلما تكرر ذلك المنظر لديه التفت إلى يعقوب وكان راكباً جواده، وسأله في ذلك، فأجابه قائلاً: «إن الناس كثيرون، ولكنهم تعودوا إذا رأوا جنداً ماراً بهم أن يختفوا من وجوههم فراراً مما يكلفونهم من الأعمال الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها، ولم يخطر لهم أن يسيروا بهم مثل سيرهم هذا، لا يتعرضون لأحد منهم في شيء. فإن الجند لم يسر بهذا الهدوء إلا بناء على أمر مولاي!».

فتأثر الفونس من ذلك القول وتمثل له الخطأ الذي ترتكبه الحكومات الظالمة في تكليف رعيتها فوق طاقتهم فتعود الخسارة عليها وعليهم.

وقد قضى الفونس وحملته في الطريق بضعة أيام قطعوا في أثنائها سهولاً خصبة، وجبالاً فيها كثير من مناجم الفضة والذهب، وأودية يسيل فيها الماء فيسقي الغياض والبساتين فتجود بأطيب الثمرات لأن أرض الأندلس من أحسن البلاد خصباً وعمراناً وإنما تحتاج إلى من يتعهدها بالغرس ويظللها بالعدل، إلى ما كان فيها من مدن عامرة كان أول ما مروا به منها «مريدة» فقطعوا نهر «اناس» وساروا بضعة أيام أخرى إلى قرطبة، فعبروا نهرها وساروا إلى «استجة». وكانت مدينة آهلة على الضفة اليسرى لنهر سنجيل، حولها سور متين عليه الأبراج من صنع الرومان. ولا بد للقادم إليها من قرطبة أن يعبر على جسر فوق ذلك النهر، فلما دنوا من المدينة في الضحى بعث الفونس رسولاً بكتاب رودريك إلى حاكمها فعاد الرسول ومعه نفر من جند المدينة، وبيد كبيرهم أمر بتسليمهم القلعة

الكبرى المشرفة على النهر من يمينه، والتي كان النهر يفصل بينها وبين المدينة وقد بُنيت لإقامة الجند فاحتلوها، وسار الفونس إلى غرفة فيها هي أحسن غرفها وأوسعها، ولها نافذة مطلة على النهر والمدينة وعلى ما وراءهما وبين يديهما من البساتين والمزارع.

صعد ألفونس إلى غرفته وكان يعقوب قد سبقه إليها وأعد له ما قد يحتاج إليه من الراحة، وأمر بعض الخدم فأعدوا طعاماً حمله هو إليه فوضعه على مائدة في تلك الغرفة ودعاه إليها لأنه كان منذ صعوده إلى الغرفة قد جلس إلى النافذة وخلا بنفسه فتذكر حبيبته وعمه ومجيئه إلى تلك المدينة رغم إرادته، وليس هناك ما يدعو إلى قدومه إلا سعي رودريك في إبعاده عن حبيبته، ثم تصوّر القصد من إبعاده عنها وما قد يكون في عزم رودريك بشأن فلورندا، فاقشعر بدنه وأحس كأن ماءً غالياً ينسكب عليه، لكنه تذكر الاحتياطات التي اتخذها لإنقاذ فلورندا من ذلك القصر فسكن روعه.

وفيما هو في هذه الهواجس سمع وطء أقدام في الغرفة فالتفت فرأى يعقوب واقفاً ويداه متقاطعتان على صدره كأنه يسمع الصلاة، فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يبتسم ويقول: «ألا يأمر مولاي بتناول الغداء؟».

فلم يسع ألفونس إلا الابتسام وقد انشرح صدره فوقف وأسرع إلى المائدة ولم يتكلم ويعقوب سائر في أثره، فجلس الفونس وظل يعقوب واقفاً وقوف الخدم فأشار الفونس أن يجلس فأبى واعتذر. فقال الفونس: «لم يعد يليق بي أن أعدك خادماً بعد ما علمته من علو همتك وتفانيك في نصرة الحق».

فقال يعقوب: «العفو يا مولاي إنك لم تعلم عني شيئاً بعد، وما هي إلا أقوال سمعتها، فإذا رأيت مني عملاً كبيراً ورأيت بعد

ذلك أني أستحق مجالستك أو مؤاكلتك فعلت».

فتذكر الفونس وعده بكشف السر بعد وصوله استجة فلم يشأ أن يذكره بذلك لئلا يكون الجواب تسويفاً، فتجلد حتى يكاشفه هو من تلقاء نفسه ولكنه قال له: «لك الخَيَار يا يعقوب فيما تفعل. ثم إني فهمت من بعض أقوالك أنك عالم بفلورندا وحديثها!».

فأشار يعقوب بإحناء رأسه أن «نعم»!. فقال الفونس: «ما رأيك، هل هي وعمي لا يعلمان مقرنا، وهلا ترى أن نبعث إليهما لكي يقدما إلينا ونحن هنا بعيدون عن ذلك الطاغية؟».

قال: «لا تقل إننا بعيدون! أتظن رودريك أبعدك عن قصره وأغفل أمرك؟ ألا تعلم أن معظم رجال هذا الجند عيون عليك يراقبون حركاتك، لعلهم يتقربون بأذيتك إلى البلاط الملكي؟! وإنه إذا هرمت الدولة واختلت شؤونها كثُر فيها الجواسيس وتعددت أسباب الوشاية، وفسدت النيات وأصبح الأخ عيناً على أخيه والابن على أبيه، يساعدهم على ذلك انغماس الملك في الترف واشتغاله به عن سياسة رعيته، مع ما يحول من أهل التملق بينه وبين المتظلمين. فلا تثق بأحد، ولا تأمن أحداً إلا إذا كانت مصلحته ومصلحتك سواء، حتى يعقوب هذا!». قال ذلك وأشار بسبابته إلى صدره. فعجب الفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئاً من شؤون الناس، ولا اطلع على فساد الطبيعة الإنسانية، فسكت وعاد إلى الأكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب ما يزال واقفاً بين يديه.

فلما نهض الفونس عن المائدة قال يعقوب: «استرح يا مولاي الآن وائذن لي في النزول إلى المدينة ثم أعود إليك قبل الغروب، وفي الغد ننزل إليها معاً لنرى أسواقها وساحتها».

قال: «انصرف، وقبل انصرافك ابعث إليَّ بالقائد ومبا لأخاطبه

في أمر الجند». قال: "سمعاً وطاعة» وخرج.

وعاد الفونس إلى مجلسه بجانب النافذة وهو ما يزال بلباس السفر، وعاد إلى التفكير في فلورندا وأوباس ورودريك. ثم سمع وقع أقدام بالباب فتحول للاقاة ومبا فدخل هذا وألقى التحية، ووجهه منبسط إشارة إلى ما يبطنه من الاحترام لألفونس والغيرة عليه، فردَّ الفونس التحية وسأله عن حال الجند فقال: «إنهم في نظام وسلام، يدعون للقائد الباسل بالرغد والظفر».

قال: «هل سمعتم شيئاً عن أحوال الأهالي هنا؟».

قال: «سمعنا أنهم مستكنون لا يبدون حراكاً، ولعلهم ركنوا إلى السكينة على أثر سماعهم بقدومنا».

قال: «أرجو مع ذلك أن تسهروا على الأحوال، وتواصلوا استطلاع الأخبار، ولي في درايتكم ما يضمن الراحة».

ففهم ومبا من غنة كلام الفونس وإشارته أنه فرغ مما يريده، فحياه وتحول من الغرفة. ولما خلا الفونس بنفسه نهض فبدل ثيابه وعزم على قضاء بقية ذلك اليوم في الغرفة للاستراحة من متاعب السفر.

ولما مالت الشمس إلى الغروب ولم يرجع يعقوب استبطأه الفونس وانشغل خاطره عليه وجلس إلى النافذة المطلة على الجسر ـ ولا بد لمن يخرج من المدينة إلى القلعة من المرور على هذا الجسر ـ فلم تمض برهة حتى رآه قادماً وقد تأبط صرة فظنه قد جاءه بشيء من فاكهة المدينة فصبر حتى وصل إلى القلعة ولبث ينتظر دخوله عليه، لكنه أبطأ ثم دخل بعد قليل ويداه فارغتان.

فقال الفونس: «ما الذي حملته إلينا من المدينة؟». قال: «لم

أحمل منها شيئاً لأننا ذاهبون إليها غداً». قال: "رأيتك متأبطاً شيئاً فما هو؟». فضحك يعقوب وقال: «ذلك ليس شيئاً..».

فاشتدت رغبة الفونس في استطلاع حقيقة ذلك الشيء فقال: «هل ثمة ما يمنع اطلاعي عليه؟». قال: «إلى الصباح يا مولاي، ولا بد من اطلاعك عليه».

وفي الصباح التالي نهض الفونس وبه شوق شديد إلى معرفة ما في الصرة، ولم يكد ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب بالثياب فغسل وجهه وسرح شعره ولبس ثوبه استعداداً للنزول إلى المدينة وهو يتظاهر بالصبر على استطلاع ما في الصرة. فلما فرغ من كل شيء ولم يبق إلا الخروج، دخل يعقوب والصرة في يده وأقفل باب الغرفة وراءه. فوقف الفونس وتطاول لمشاهدة ما فيها ففتحها يعقوب واستخرج منها شيئاً من نسيج أسود على نحو أقبية الكهنة، وإذا هما ثوبان أسودان كل منهما جلباب طويل يغطي الرجل إلى أسفل القدم. فتناول يعقوب أحدهما وبسطه وقدمه إلى الفونس وهو يقول: «إلبس هذا الجلباب يا مولاي». فوضعه الفونس على كتفيه والتف به فغطى كل أثوابه، ولبس يعقوب الجلباب الآخر والتف به، ثم مد يده إلى طوق ذلك الجلباب من قفاه فاستخرج منه شيئاً كالكيس معلقاً به من بعض جوانبه وأرسل ما بقي منه على رأسه حتى اشتمل على الرأس والوجه جميعاً. وفي غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ثقبان للعينين وثقب للفم فأصبح يعقوب شبحاً أسود. وتقدم إلى الفونس فاستخرج الكيس من قفا ثوبه وألبسه إياه حتى صار مثله، وكان يعقوب يفعل ذلك وألفونس صابر ليرى نهاية هذا العمل، فلما فرغ يعقوب من اللبس قال: «هذا الذي أتيتك به من استجة، فانزعه الآن إلى حين الحاجة».

فاستغرب الفونس عمله هذا وقال: «ومتى نحتاج إليه؟».

قال: «قريباً إن شاء الله. لا تكن لجوجاً». قال ذلك ونزع جلبابه والجلباب الآخر عن ألفونس وطوى كلاً منهما على حدة وجعل أحدهما تحت دراعته من جهة الصدر، وأرخى الدراعة عليه حتى اختفى تحتها، وأتى بالجلباب الآخر وطواه وطلب إلى الفونس أن يخفيه تحت دراعته ففعل وهو لا يفهم الغرض من ذلك. ثم قال يعقوب: «هلمّ إلى الكنيسة!».

خرج يعقوب وألفونس من القلعة وبينما هما على الباب التقيا بـ«ومبا» فوقف هذا للتحية فقال الفونس: «إني ذاهب إلى الكنيسة فاحتفظ بما عندك». فأشار ومبا برأسه ويده بالسمع والطاعة.

مشى الفونس ويعقوب يتبعه، وليس معه من الخدم والأعوان سواه حتى مرا على الجسر ودخلا باب المدينة وهما لا يتكلمان، لأن يعقوب لم يكن يقدم على الكلام إلا جواباً على خطاب جرياً على عادتهم في معاملة الملوك. وكان الفونس غارقاً في الهواجس لا ينتبه لوجدانه، لما اجتذب خاطره من أمر فلورندا ورودريك، وحديث يعقوب وذلك الثوب الأسود. ولم يفق من ذلك السبات حتى دخل الأسواق والناس يتسابقون فيها نحو الكنيسة. وبعد هنيهة أفضى بهما المسير إلى ساحة كبيرة في وسط المدينة. ولم يكن الفونس يعرف الطريق إلى الكنيسة وإنما كان يقتفي خطوات يعقوب أو إشاراته. وبعد أن قطعا تلك الساحة أطلا على باب فخم تزاحمت عنده الأقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال: «هذا باب الشارع الأعظم، وهذه هي الكنيسة»، وأشار بيده إلى باب كبير آخر فتحولا نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين، والناس لا يعلمون مَن هو الفونس ولكنهم تبينوا من استرسال شعره ونوع لباسه أنه من الأشراف وأصحاب المناصب.

قضيا فروض الصلاة في تلك الكنيسة وهما لا يزالان صامتين. فلما انفضت الصلاة وخرج الناس خرجا معهم وألفونس لا يدري إلى أين يذهب، فتأخر حتى مشى يعقوب فتبعه وما زالا حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الأخرى. فاستغرب الفونس ذلك ولم يتمالك عن الاستفهام فالتفت إلى يعقوب وقال له: «إلى أين نحن ذاهبان في هذه البرية؟».

قال: «إننا ذاهبان إلى هذه الأكمة»، وأشار إلى تل قريب لا شيء من العمارة فيه. وما لبثا أن وصلا إليه فصعدا إلى قمته وألفونس لا يفهم الغرض من كل ذلك فقال يعقوب: «انظر يا مولاي إلى استجة بين أيدينا، وانظر إلى سورها فإنك ترى على بعض هذا السور برجاً عالياً».

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيداً لأنهما على مقربة من المدينة فقال: «نعم!».

قال يعقوب: «إذا جئت هذا المكان في الليل فلا تخطىء هذا البرج لبروزه فوق السور، وليس على السور برج سواه. احفظ ذلك جيداً ثم اتبعني». قال ذلك وانحدر عن التل إلى الجهة الأخرى: فإذا هو بكهف مهجور وقف ببابه وألفونس إلى جانبه فقال له: «أرأيت هذا الكهف؟».

قال الفونس: «نعم رأيته». قال: «فلنرجع إلى المدينة نقضي بقية النهار ثم نعود إلى هنا».

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السر فلم يزدد إلا حيرة واستغراباً... واستطال الانتظار إلى المساء فقال: «وأين نقضي هذا النهار فإنه طويل عندي؟!».

قال: «سأجعله قصيراً جداً». ومشى فمشى الفونس في أثره

حتى دخلا المدينة والفونس يتأمل البرج. وما زالا سائرين في الأسواق حتى انتهيا إلى درب ضيق اتصلا منه إلى باب صغير فقال يعقوب: «انتظرني يا مولاي هنا ريثما أعود»، ودخل ثم عاد وأشار إليه فدخل وعلم مما رآه من الأدوات المنزلية أن البيت مأهول لكنه لم يشاهد فيه أحداً. فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت وألفونس معه وقد مل الانتظار وكاد الحنق يخرجه عن جادة الصبر. أما يعقوب فإنه أقفل باب الحجرة ثم أجلسَ الفونس على بساط وجثا إلى جانبه وقال: «سأتلو عليك يا مولاي ألفاظاً غريبة لا بد لك من حفظها فإن ما ستتعلمه الآن من الألفاظ والإشارات إنما هو مفتاح السر وطريق العمل».

فأصغى ألفونس إليه وقال: "هات ما تريده".

قال: «شالوم عليخم». فقالها الفونس ولسانه يتعثر بالعين والخاء على الخصوص، فكررها يعقوب عليه حتى حفظها، ثم قال له: «قل (أوهيل موعيد)». فقالها وكررها حتى تعلمها. ثم نهض يعقوب وأمسك الفونس بيده وقال له: «قف يا مولاي» فوقف فخطا يعقوب أمامه بضع خطوات على نسق غير مألوف بين الناس وقال له: «اخط يا سيدي مثل هذه الخطوات»، ففعل وكررها حتى أتقنها. ثم علمه إشارات يجريها بيديه أو أصابعه وغير ذلك، وألفونس كالببغاء، يتعلم الألفاظ ويخطو الخطوات ويجري الإشارت وهو لا يفهم لها معنى!.

قضيا بقية اليوم في نحو ذلك، فلما غربت الشمس خرجا وألفونس لا يزداد إلا استغراباً، وقد نسِيَ لفرط دهشته كل مشاغله بفلورندا وأوباس، وما زالا حتى خرجا من باب المدينة، وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد، فصبرا على بردها حتى بلغا الأكمة وصعدا إليها، فنزل يعقوب نحو الكهف وألفونس يتبعه حتى وقفا

ببابه ولم يريا داخله غير الظلمة المدلهمة، فدخل يعقوب ويده بيد الفونس، فمشى به بضع خطوات وألفونس يتحسس الأرض بقدميه كأنه يمشي على الشوك وهما صامتان. ثم وقف يعقوب وقال لألفونس: «اخرج جلبابك». فأخرجه وساعده يعقوب على لبسه كما لبس هو جلبابه فأصبحا سواداً في سواد، ومشيا خطوات أخرى ويعقوب يقود الفونس، ثم وقف بغتة فشعر الفونس بصدمة وقوفه فخاف أن يكون ثمة خطر عليهما، وأحس أن يعقوب انحنى نحو الأرض، ثم سمع خربشة كأن يعقوب يبحث بأنامله في الأرض، وكان قد ترك يد الفونس فظل هذا واقفاً وقوف الصنم لا يدري كيف يتجه لاشتداد الظلام!

وكان يعقوب قد خلّى يد الفونس لتتفرغ يداه لرفع حجر ثقيل. فمضت بضع دقائق وألفونس واقف لا يتحرك، ثم سمع صوت اقتلاع الحجر وأحس بنسيم بارد قد خرج من مقتلعه، وإذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض: «اتبعني يا مولاي في هذه الفوهة على مهل». ونزل وتبعه الفونس وهبطا سبع درجات فانتهيا إلى سرداب يسع الإنسان واقفاً فمشيا فيه، ويعقوب يقود الفونس في الظلام. وشعر الفونس كأنهما يسيران في دائرة ثم سارا في خط مستقيم مع انحدار خفيف والظلام يتكاثف. وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال لألفونس: «امكث هنا يا مولاي ولا تغيّر مكانك ريثما أعود إليك». وتركه ومشى لا يسمع لخطواته وقع فأحس الفونس بوحشة غريبة، ومضى على غياب يعقوب دقائق حسبها الفونس ساعات حتى ملّ الانتظار وحدثته نفسه أن يخطو في أثره ولكنه تذكر وصيته إياه بالبقاء هناك فوقف، ولكن الإنسان رغاب في استطلاع المخبآت ولو عرض نفسه للخطر. على أنه نسِيَ الجهة التي كانا

سائرين فيها ومدّ يده إلى ما حوله فلم تلمس شيئاً فتوهم أنه في خلاء واسع. وفيما هو في هذا الارتباك آنسَ نوراً خفيفاً عن بُعد، ورأى ذلك النور يقترب حتى تبيّن حامله، فإذا هو رجل بجلباب أسود مثل جلبابه فظنه يعقوب فناداه باسمه فلم يسمع رداً فحسب سكوته تستراً، ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحاً آخر في مثل لباسه وقد كشف عن وجهه فإذا هو يعقوب، فعلم الفونس أنه اقترب من المكان المقصود.

ولم يكد يفكر في الأمر حتى أسرع يعقوب إليه وأمسك بيده، فنظر الفونس في وجهه على نور المصباح فرأى لحيته قد ازدادت تلبداً وقذارة، فخاف أن يكون عليهما بأس من ذلك المكان. ولكنه سلم قياده إلى يعقوب فأمسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديه، فنظر إلى الأرض فرأى فيها حفراً جمة يخشى الماشي السقوط فيها حتى على النور، فكيف به في الظلام. وأدرك السبب الذي حمل يعقوب على استجلاب ذلك النور فمشى مشية الحذر والتأني بضع دقائق، ثم انطفأ المصباح وعاد الظلام كما كان. فضغط يعقوب على يد الفونس وهمس في أذنه قائلاً: «وصلنا».

وكان الفونس قد ضاقت أنفاسه من القناع المنسدل على وجهه فرفعه وتنفس الصعداء ثم أرخاه، وإذا بيعقوب قد وقف وهمس في أذنه أن يفعل مثل فعله بعد انفتاح الباب وألا يخشى شيئاً مهما يكن ما يراه. ثم قرع باباً قرعاً متوالياً سبع مرات بأسلوب خاص، ولبث برهة ثم طرقه ثانية ثلاث مرات بنسق آخر، فانفتح الباب عن ممر قصير فيه نور ضعيف، وإلى كل من جانبي الباب رجل بمثل جلبابيهما وبيده سيف مسلول والسيفان متعانقان كالقوس فوق عتبة

الباب، فأجفل الفونس وتقهقر، فسمع يعقوب يقول: «شلوم عليخم»، فقالها هو أيضاً ودخلا والسيافان لا يتحركان كأنهما صنمان، فمشى يعقوب في الممر تلك المشية الخاصة التي علمها لألفونس في ذلك النهار، ومشى الفونس مثلها وهو يتعثر لاضطرابه وارتباكه، حتى وصل إلى باب مقفل فقرعه بنسق خاص خمس قرعات، فانفتح الباب وانطفأ النور معاً، فأجفل الفونس ولكنه تذكر وصية يعقوب فثبت جنانه، وسمع صوتاً يخاطبه بلسان لم يفهمه وسمع يعقوب يقول له: «أوهيل موعيد» فقالها هو أيضاً ومشيا في تلك الظلمة والفونس يحسب نفسه صاعداً على سلّم، ثم انفتح لهما باب آخر وحال انفتاحه أحس الفونس بهواء دافىء خارج منه تخالطه رائحة الأنفاس، فشعر بالدفء ونسِيَ ما كان يشعر به من البرد في السرداب، ودخلا من الباب فأشرفا على قاعة كبيرة في وسطها شبه مائدة عليها سراج مضيء وبجانبه درج كبير، وحول الجدران مقاعد عليها أشباح سود بمثل جلبابه، ووجوههم منقبة بمثل نقابه، وأمام كلّ منهم سيف مسلول يلمع فرنده في نور السراج الضعيف، فارتعب لذلك المنظر الهائل. على أنه التفت إلى جانبه فإذا بيعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمه إياها فمشى مثله حول المائدة والسراج مرّتين، وقبل الدرج الموضوع هناك، وهو لفافة من جلد، ثم مشيا إلى كرسيين في صدر القاعة خاليين فجلسا عليهما وأمامهما سيفان مسلولان، فالتفت الفونس إلى ما حوله فلم يرَ إلا أشباحاً سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة، وندم لمجيئه على تلك الصورة مخافة أن يكون عليه خطر. ولكنه تذكر ثقته بيعقوب فاطمأن باله ولبث الجميع برهة ساكتين، ثم نهض أحدهم عن كرسيه وتقدم إلى المائدة وتناول الدرج وفتحه بين يدي المصباح فرأى الفونس عليه كتابة لا يفهمها. ثم أخذ الرجل في القراءة فوقف الجميع وألفونس في جملتهم، حتى

إذا أتم قراءته قبل الدرج ورجع إلى مكانه وجلس، فجلس الباقون لا ينطق أحد بكلمة، إلى أن تكلم الرجل بذلك اللسان كلاماً طويلاً أجابه عليه بعض الحاضرين، ثم تكلم يعقوب باللسان القوطي قائلاً: «يسمح حضرة الرئيس بعقد جلسة خاصة يحضرها هو ومَن شاء للمداولة في أمر مهم».

فوقف الرجل الأول وبيده سيف صغير وأشار به إشارة خاصة فوقف الجميع، ثم انفرد منهم ثلاثة وقفوا بإزائه، وتقدم يعقوب وألفونس حتى وقفا معهم، ثم تحول الرئيس إلى باب وراءه ففتحه ودخل وتبعه الباقون إلى ممر مظلم انتهوا منه إلى باب فتحه بيده ودخل إلى حجرة مظلمة ووقف ببابها وتكلم، فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة في طبق من البرونز فتناولها منه، فرجع الرجل وأقفل الباب وراءه، فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع في بعض جوانب المكان.

ونظر الفونس في ذلك المكان فإذا هو حجرة صغيرة جدرانها سوداء وسقفها أسود، وفي أرضها صندوق كالتابوت الكبير فوقه درج صغير، وحول التابوت بساط جلسوا عليه والتابوت في وسطهم، فتأثر الفونس من ذلك المنظر المرهب، وخفق قلبه لهول ما شاهده من الغرائب، وقد نفد صبره لمشاهدة أشباح سوداء لقوم لا يرى لهم وجوهاً ولا يدري مَن هم؟ فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية وقال: «هل يظن الرئيس أن الطعام قد نضج!؟».

قال: «أنت أدرى منا بنضجه لأنك موقد ناره».

فقال يعقوب: «أرجو أن يكون قد نضج، ولكنه يحتاج إلى أدام كثير لأن الطعام بلا أدام لا يؤكل».

قال: «الأدام كثير ومنه في هذا الصندوق، ما يُطبخ به طعام

العالم بأسره. فضلاً عن أمثاله مما يحمل إلى المطبخ عند الحاجة!».

فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز، ولكن يعقوب التفت إليه وقال: «إن المادة التي تنقصك لإتمام مشروعك مختزنة في عشرات من أمثال هذا الصندوق وقد جمعت فيها منذ أعوام، ولكنها لا تبذل إلا عند الحاجة». قال ذلك وأومأ إلى الرئيس فاستخرج من جيبه مفتاحاً فتح التابوت به، وحالما رفع الغطاء أبرق ما تحته أصفر زاهياً. فنظر إليه الفونس فإذا هو نقود ذهبية خالصة، ثم أقفله الرئيس وأعاد المفتاح إلى جيبه. فاندهش الفونس لمنظر ذلك الذهب، وأدرك أنه بين جماعة ذوي اقتدار، والتفت إليه الرئيس وقال: «لا تطمع في استطلاع شيء غير الذي تراه، واعمل أنك عرفت شيئاً لم يعرفه أحد من الذين رأيتهم في الحجرة الأخرى وهم يجتمعون معنا منذ أعوام، وفيهم مَن يبذل ماله وروحه في سبيل ذلك الغرض!».

فتكلم عند ذلك يعقوب وقال: «يكفي مولاي ما قد شاهده، ولا نشك أن في إسبانيا ألوفاً من أمثال هؤلاء المظلومين، وعندهم الأموال المختزنة في الصناديق، وهم يبذلون أنفسهم في خدمته فضلاً عن أموالهم».

فلما سمع الفونس قوله «المظلومين» انتبه إلى أنه بين يدي جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة، وتذكر ما كان يسمعه من كلامهم المعجم فخطر له أن يكونوا يهوداً، ولكنه كان يعلم أن اليهود قد انقرضوا من المملكة إما بالنفي أو بالقتل أو اعتناق النصرانية فقال ليعقوب: «قد فهمت السر فالأولى أن تفصح وأنت أعلم الناس بعزيمتي وقصدي من قبلي».

فعند ذلك التفت يعقوب إلى الرئيس وقال: «ينبغي لي أن أكاشف كلاً منكما بسر الآخر. اعلم يا حضرة الرئيس أن الرجل الذي جئتكم به الليلة هو نصيرنا الوحيد في هذه الديار، وإذا قلت لكم مَن هو هان عليكم مكاشفته بأمرنا، إنه الفونس ابن المرحوم غيطشة ملك إسبانيا، وهذا يكفي!».

وقال الرئيس: «لعله على عزم والده تماماً؟». فقال يعقوب: «نعم هو نصير المظلومين، وقد عوّل على السعي في إنقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذي يسمي نفسه ملكاً. وإنما يعوزه المال وهو عندنا، فاسمح لي بعد هذا التصريح أن أنبئه بحقيقة الأمر». قال ذلك وحوّل خطابه إلى الفونس قائلاً: «اعلم أيها الملك ـ وأنا أخاطبك بالملك لأننا لا نعرف ملكاً على إسبانيا سواك ـ إنك في جمعية إسرائيلية، وكل الذين رأيتهم في هذه الجلسة يهود ما زالوا على دين آبائهم وأجدادهم، وينوبون عن ألوف من أهل هذا الدين منتشرين في أنحاء المملكة الإسبانية يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداس في الكنائس، ويتناولون القربان، ويقومون بسائر الفروض المسيحية، وكان منهم في الكنيسة في صباح هذا اليوم مئات، وقد رأيناهم يسجدون أمام الأيقونات ويتلون الصلوات، وربما سمعناهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله. وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ أعواماً وهم يجمعون المال ويختزنونه، لاغتنام الفرصة للنهوض من تحت هذا النير، حتى إذ كادوا يبلغون بغيتهم على يد والدك المرحوم استبدل به أهل المطامع هذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المنصب، بل أنت هو صاحبه الشرعي فنرجو أن تكون النجاة على يدك».

فلما سمع الفونس قوله انجلى له كثير من الأسرار التي ما برح

يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه أوباس في هذا الشأن، فاكتفى بما رآه وسمعه، وأجل استطلاع ما بقي من الغوامض إلى فرصة أخرى، ولبث صامتاً يراجع ما مرّ به من المعميات فرأى أنه ينقصه أن يعرف وجوه أولئك الناس خصوصاً بعد أن عرفوه باسمه. وكان يعقوب قد أدرك غرضه فقال له: «ولا يطمع مولاي الآن أن يطّلع على ما وراء ذلك. إن نظام الجماعة يقضي بالتستر خوفاً من أن يبوح أحد بأمرهم. فأنت الآن بعد أن اطلعت على هذه الأسرار المهمة تمسي إذا خرجت من هذا المكان كأنك لم تدخله، لأنك لم ترَ وجوه الأشخاص فلا يمكنك أن تتهم أحداً من الناس. وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند أو الكهنة أو العمال أو الزراع، وكلهم من عداد المسيحيين ويكفيك أن تعرف واحد منهم وهو أنا».

فأُعجب الفونس بهذا الضرب من الاحتياط، وعلم أن يعقوب يهودي، وتذكر ما كان يطلبه من التساهل في أداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها، وأن عمه أوباس كان يساعده على ذلك، وخطرت له خواطر كثيرة بشأن علاقة يعقوب بوالده وعول على استطلاع سر هذا الأمر فيما بعد. ثم اعترض مجاري أفكاره دبيب توالت أصواته فوق رؤوسهم فانذهل الفونس والتفت نحو السقف فابتدرع يعقوب قائلاً: «لا تستغرب يا مولاي ما تسمعه لأن فوقنا شارعاً من شوارع المدينة، والناس يمرون عليه ليل نهار، وليس في أهل استجة مَن يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع إلا أعضاء هذه الجمعية». فازداد الفونس استغراباً لما عاينه في تلك الليلة من طرق التحفظ وأبواب الدهاء وقال في نفسه: «إن قوماً هذا مبلغ دهائهم وتعقلهم وصبرهم لجديرون أن ينالوا بغيتهم!».

وفيما كان الفونس يفكر في ذلك سمع قرعاً بعيداً يشبه أن

يكون على الباب الذي ينتهي إليه السرداب، ولكنه رأى عدد الطرقات وكيفية ضربها يختلفان عما فعله يعقوب لما جاء به. ثم ما لبث أن رأى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد أنصتوا لما عساه أن يعقب ذلك الطرق فخاف أن يكون وراء إنصاتهم ما يدعو إلى القلق، ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطلع ذلك في عيونهم وجباههم. ثم سمع قرعاً ثانياً على الباب الآخر بكيفية أخرى ولم يفرغ الطارق من الطرق حتى تحول إنصات رفاقه إلى الحركة، وسمع الرئيس يقول: «لقد جاءنا رسول بخبر جديد، عساه أن يكون قادماً من إخواننا في الشام أو مصر أو من أفريقيا».

فاستغرب الفونس تنبؤ الرئيس عن الرجل من سماع قرع الباب، وأدرك أن لهذه الجمعية علاقات واسعة في الشام ومصر وغيرهما فلم يتمالك أن قال: «كيف عرفت الرجل من سماع القرع عن بُعد، وهل لهذه الجمعية من أعضاء في تلك البلاد؟».

قال: «عرفته من قواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها أعضاء هذه الجمعية. وأما سؤالك عن سعة الجمعية فإن لها أعضاء في أنحاء بعيدة أرسلتهم للبحث عن طريقة نتخلص بها من هذا الرق!». وسكت هنيهة ثم قال: «ومن هؤلاء الأعضاء أناس قد تصدوا في مجالس الدول وتقلدوا مناصبها، ومنهم مَن يعمل عمل الخدم ويقاسي مرارة الذل والشقاء ويؤدي أدنى الأعمال، وهو ليس من مصاف الخدم، بل قد يكون من أهم أعضاء الجمعية ومن أكثرهم بذلاً في سبيلها، وإنم يتزيى بزي الخدم تنفيذاً لغرض يعود على الطائفة بالخير!».

وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضيء بصيرته، فأدرك للحال أن خادمه يعقوب من كبار هذه الطائفة وأهم

أعضاء هذه الجمعية ولكنه ما زال ميالاً إلى استطلاع علاقته بأبيه وعمه لأنهما كانا عارفين بسرّه على ما ظهر من كلام أوباس ـ فأجل ذلك إلى فرصة أخرى ولبث ينتظر دخول الرسول القادم. ولم تمض برهة وهم سكوت يسمعون صدى الحركات في القاعة الكبرى حتى سمعوا قارعاً يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرعاً خاصاً، فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الأسود، وحال دخوله وجّه وجهه نحو الرئيس وكلّمه بالعبرانية كلاماً لم يفهمه الفونس، فأجابه الرئيس، وتخاطبا برهة بتلك اللغة وألفونس لا يفهم، ولكنه استغرب توجيه القادم كلامه للرئيس حال وصوله وهو لا يرى فرقاً بين مظهر الرئيس وبين سائر الجالسين لأنهم بلباس واحد ولون واحد، فتوسم في ذلك سراً لم يتمالك عن الاستفهام عنه من يعقوب في أثناء مخاطبة الرئيس والرسول بالعبرانية. فقال يعقوب: «لو أمعنت النظر في ثوب الرئيس لرأيت على كتفه علامة تميزه عن سائر الأعضاء، ولا تظهر إلا عند التأمل. وفي هذه الجمعية علامة لكل من أصحاب المناصب فيها كالكاتب والخازن وغيرهما. غير أن هذه العلامة لا يراها غير المتأمل».

فتأمل الفونس في كتف الرئيس فرأى عليها عقدة سوداء بجانب العنق ونظر إلى أكتاف الرفاق فرأى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل آخر فأراد أن يستفهم منه عن دلالة علامته فسمع الرئيس يخاطب القادم بالقوطية قائلاً: «لقد سرّني قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك، وعندنا مَن يهمه سماعها ويهمنا اطلاعه عليها. ونحن في حجرة الخلوة وما فينا إلا عمدة الجمعية فمن أين أنت قادم الآن؟».

وكان الرجل قد جلس في جملة الجالسين حول التابوت فقال:

«إني قادم من سبتة، وخبري طويل لا يتسع الوقت لتفصيله، ولكني أعجل لكم منه ما يهمكم ويهمنا. ولو كشفت لكم عن وجهي لرأيتم البِشر ظاهراً فيه إذ يظهر لي أن زمان أسرنا قد انقضى أو قارب الانقضاء!».

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام في حركات الجالسين وأصغوا وقد تطاولوا بأعناقهم إلى المتكلم وقال الرئيس: «بشرك الله بالخير. عسى أن يكون قد انقضى أسرنا كانقضاء أسر أجدادنا في بابل منذ بضعة عشر قرناً».

فقال الرسول وقد وجّه خطابه إلى الرئيس: «لا يخفى على حضرة الرئيس أني مقيم منذ أعوام في «سبتة» على شاطىء أفريقية (مراكش) وهي وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الآن وكان يجب أن تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لأنها جزء من افريقية ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن أفريقية بما أتاه العرب من الفتوح، لأنهم فتحوا كل سواحلها تقريباً إلا سبتة وما يليها فالتجأ صاحبها إلى إسبانيا وصارت سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون».

فقطع الرئيس كلامه قائلاً: «يظهر أن أبناء اسماعيل قد أفلحوا في دينهم الجديد!».

فأجاب الرجل: «نعم يا مولاي». ولم يفهم الفونس معنى هذا السؤال ولا مَن هم بنو إسماعيل، ولكنه لم يستحسن قطع الحديث لأجل الاستفهام فسكت. وأما الرجل فإنه أتم كلامه قائلاً: «إن أبناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم بأسره ومدوا سلطانهم على العراق والشام وأفريقية وفارس وخراسان إلى أقصى المعمور!». فازداد الفونس استغراباً لقوله (أبناء عمنا) ولم يتمالك أن التفت نحو يعقوب، فأدرك يعقوب مراده قبل أن يتكلم فقال له: «إن العرب الذين قاموا بالدين

الجديد هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم، واليهود أبناء أخيه إسحاق، فهم بهذا الاعتبار أبناء عمنا».

فتحول الفونس نحو المتكلم لاستتمام الخبر فإذا هو يقول للرئيس: «وقد سافرت في أسفاري للتجارة وخدمة الجمعية إلى الشام ومصر، واختلطت بالناس ورأيت كثيرين من إخواننا اليهود الذين استطاعوا التخلص من هذا الذل بالخروج من هذه البلاد وهم الآن في افريقية ومصر والشام في راحة وسكينة لا يتعرض لهم أحد في دينهم، يصلون كيف شاؤوا ومتى شاؤوا ويتعاطون أعمالهم وتجاراتهم بأمان وسهولة. وليس ذلك شأن اليهود الغرباء فقط بل هو شأن كل السكان من كل الطوائف لأن اليهود كانوا مضطهَدين أيضاً في تلك البلاد تحت نير الروم يذوقون العذاب ألواناً كما كنا نذوقه نحن منذ بضعة قرون قبل أن أجبرونا على النصرانية أو المهاجرة أو القتل، واضطررنا إلى الفرار أو التظاهر بالنصرانية كما تعلمون. وأما إخواننا في مملكة الروم فكانوا أرحم حالاً منا، ومع ذلك فإنهم لم يصبروا على ذلك الضيم وكثيراً ما كانوا يفتكون بالنصارى ويقاومون الحكومة، فلما جاء أبناء إسماعيل لفتح بلادهم كانوا من أعوانهم على ذلك. وقد أحسنوا صنعاً لأنهم تحرروا من رق الروم واستبدادهم وأمنوا على أرواحهم وأموالهم وخفّت عنهم الضرائب وهم في نعيم».

فقال الرئيس: «وكيف ذلك؟ ألم يخرجوا من سلطان إلى سلطان، ومن ضريبة إلى ضريبة؟ ألم يحكم العرب فيهم سيوفهم أو نفوذهم؟ ألم يضربوا عليهم الضرائب؟».

قال: «نعم يا مولاي. إن العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف أو بالصلح وصارت تحت سلطانهم، ولكنهم في الحقيقة قلما يتعاطون

شيئاً من أمورها حتى إنهم لا يقيمون في المدن ولا يختلطون بالرعايا إلا نادراً، وفي أوقات معينة ولأغراض وقتية».

فقطع الفونس كلامه وقال: «وكيف يكون ذلك، وأين يقيمون؟ وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها!؟».

قال: «لا ألومك على استغرابك ذلك لأنه غير مألوف فيما تعرفون في هذه البلاد حيث يتداخل الحكام في كل حركة من حركات الناس، بل هم يعدون الرعايا عبيدهم. وأما هؤلاء العرب فإنهم بعد أن فتحوا تلك البلاد ووضعوا عليها الجزية والخراج نزلوا في ضواحيها وابتنوا لأنفسهم مدنًا لا يقيم فيها سواهم كالقيروان في أفريقية، والفسطاط في مصر، والبصرة والكوفة في العراق، وتركوا أهل البلاد الأصليين على ما كانوا عليه في أيام الروم أو الفرس، كل منهم على دينه واعتقاده، يتعاطى عمله وليس عليه إلا أداء الخراج أو الجزية كل عام، وهي ضرائب زهيدة لا تُقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من أمثالها. وكان الناس عند أول الفتح أهنأ عيشاً منهم الآن بالنظر لظلم بعض عمال بني أمية، ومنم عامل في العراق اسمه الحجاج شديد الوطأة على أهل البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجته إليه في الحروب، ولكن الملك الأكبر الذي يسمونه الخليفة يقيم في دمشق الشام، وكثيراً ما يبعث إلى عماله أن يعودوا إلى الرفق. ومع كل ذلك فإن الرعايا من اليهود أو النصارى أحسن حالاً تحت سلطان العرب منهم تحت سواه، خصوصاً إذا عاد العرب إلى ما كان عليه خلفاؤهم الأولون من العدل والرفق والمساواة، ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور في الشرق».

فقال الرئيس: «يا حبذا لو أنهم يأتون إلينا فيستولون على هذه

البلاد، لأنهم إذا كانوا أخف وطأة من بطارقة الروم فبالأَولى أن يكونوا أفضل لنا من حكومة القوط».

فاعترضه الرجل الرحالة قائلاً: «لا يحق لنا أن نشكو من حكم القوط على الاجمال، فإن بعضهم كان كثير الرفق بنا خصوصاً الملك غيطشة السابق فإنه كان عازماً على تحرير رقابنا وإطلاق حرية الدين لنا، ولكن المنية عاجلته، أو هم عجّلوها له، فخلفه الطاغية رودريك وهو من أظلمهم جميعاً قبّحه الله».

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشة بينهم، وأعجبه ما قاله الرحالة من إطراء أبيه فقال: «لقد نطقت بالصواب. وعلى كل حال فإننا وددنا لو أن هؤلاء العرب يأتون إسبانيا، ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى في فتحها، إذ ما من طائفة من أهلها لا تشكو من هيئة الحكومة».

فقال الرحالة: «إن ما تتمنونه وأنتم جلوس هنا قد سعى فيه إخوانكم هناك، وأنا في جملتهم، وكثيراً ما حرضنا عليه هؤلاء العرب وحببنا إليهم هذه البلاد، وبينا لهم سهولة فتحها عليهم وهم هائبون. ولكن يظهر أنهم أوشكوا أن يحملوا عليها».

فابتدره الرئيس بلهفة قائلاً: «هل تعني ما تقول؟». قال: «نعم يا مولاي، وهو الخبر الذي جئت من أجله وكنت عازماً على مباغتتكم به فأخرجنا الحديث عنه. قلت لكم إن (موريتانيا) ـ وقاعدتها سبتة ـ هي إحدى ولايات الرومان، فلما فتح العرب افريقيا أصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم فانحاز صاحبها إلى إسبانيا ليكون في كنَف دولة نصرانية.. ولما خرجت أنا من إسبانيا إلى موريتانيا كان حاكمها رجلاً اسمه (يوليان) فتظاهرت بالنصرانية، وعمدت إلى تجارتي أشتغل بها وأنا أرتحل في البلاد وأعود إلى سبتة

وفي نفسي ما تعلمون من الغيظ لما تقاسيه طائفتي من الفتك والعسف تحت نير القوط، فأتيح لي أني انتقمت لها من يوليان هذا انتقاماً ليس هنا محل ذكره، وكنت مع ذلك من المقرّبين إليه، يثق بي ويشاورني في أموره، وأنا أظهر له الود وأغتنم الفرص لنيل بغيتي، وما هي إلا أن أحبب إلى العرب فتح إسبانيا، ولكني أعلم أن السبيل إليها لا يكون إلا إذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق، وهو أقرب سبل العرب إلى هذه البلاد.

«وكان عامل العرب على أفريقيا في الأعوام الأخيرة رجلاً شجاعاً ذا همة اسمه موسى بن نصير، فبعث برجاله حتى فتحوا طنجة وأقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر ويوليان ممتنع فيها، صابر على ولاء القوط مع علمه أن صبره لا يجديه نفعاً، ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لأسباب لا تجهلونها».

وكان الفونس لما ذكر اسم يوليان خفق قلبه لعلمه أنه والد حبيبته فلورندا وأصاخ بسمعه لعله يسمع شيئاً يتعلق بها. واستأنف الرجل حديثه قائلاً: «وكنت أنا في أثناء ذلك الحصار في قصر يوليان أجالسه كثيراً وهو يركن إليَّ ويقرّبني منه لغناي وسعة تجارتي لعله يحتاج إلى مال أو مؤونة في أثناء الحصار، وأنا أكثر منه رغبة في التقرّب كما تعلمون. فبينما أنا في منزلي وإذا برسول يوليان يدعوني إليه عاجلاً، فمضيت حتى إذا دخلت قصره وأشرفت على باب غرفته رأيت شاباً خارجاً منها يظهر من قيافته أنه قادم من سفر بعيد، وعلمت من شكل لباسه أنه من أهل طليطلة وأحسبه من خدم الملك، فسرت حتى دخلت الغرفة وكنت أدخلها دائماً بلا استئذان، فرأيت يوليان جالساً على كرسي بجانب نافذة تطل على البحر الكبير وبيده شيء قد قبض عليه وهو مستغرق في الهواجس. فلما سمع خطواتي

نهض بغتة ورمى إليَّ بما كان بيده وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً وهو يقول: (اقرأ هذا يا فلان وانظر شقائي وتعاستي! ما كفتني المصيبة التي أصابتني من أول عهد شبابي حتى بُليت بأقبح منها من رجل أنت تعلم أني أقاسي عذاب الموت في سبيل المحافظة على الولاء له) فالتقطت ما رماه فإذا هو قطعة من قماش أظنها مقطوعة من قميص أو رداء وعليها كتابة حمراء كأنها كُتبت بالدم. ولما قرأتها اقشعر بدني استغراباً ولكن قلبي كاد يطفح سروراً لعلمي أن في ذلك الكتاب حلاً للمشكل الذي نحن فيه».

وكان الفونس في أثناء ذلك قد بلغ به الاضطراب غايته، وكان سائر السامعين قد أرهفوا آذانهم لاستماع الخبر الجديد، بينما استأنف الرجل حديثه قائلاً: «قرأت الكتاب فإذا فيه: والدي العزيز. سلمت ابنتك إلى رجل يسمي نفسه ملكاً، وهو وحش كاسر، لا يراعي ذماماً ولا حرمة ولا عرضاً، ولولا العناية الإلهية لذهبت فريسة بغيه وفسقه!. أكتب إليك هذا على قطعة من ثوبي وأنا هائمة على وجهي لا أدري أين أختبىء من بغي هذا الظالم الخائن، ولا أدري متى ألتقي بك. فما جزاء مَن أراد بابنتك سوءاً؟. وسينبئك حامل هذا الكتاب - إذا استطاع الوصول إليك - بما قد يشكل عليك فهمه.

كتبته فلورندا».

فلا تسل عن الفونس واضطرابه وخفقان قلبه. ولولا ذلك اللثام لافتضح أمره لاستغرابه قولها: «أنا هائمة على وجهي» وقد كان يظنها في مأمن عند عمه، فعظم عليه الأمر ولكنه كظم عواطفه وصبر نفسه لسماع بقية الحديث. وكذلك كان شأن يعقوب.

أما الرجل فإنه أتم حديثه قائلاً: «فلما فرغت من قراءة الكتاب أظهرت الغيظ وقلت له: (إلى متى البقاء على ولاء رجل لا يراعي

ذماماً ولا يحفظ حرمة ولا يستبقي عرضاً؟ أنت تعرض نفسك للخطر وتصبر صبر الأطفال في الدفاع عن سلطانه وهو يفعل هذا الفعل مع ابنتك!). وكان يوليان قد استولت عليه السويداء منذ أعوام على أثر مصيبة انتابته وثقل عليه حملها، فجعلت استحثه وأهيج عواطفه حتى قال: (لا بد لي أن أنتقم من هذا الخائن وأسلم هذه البلاد للعرب فإنهم أحفظ منه للجميل. ولا يكفي ذلك بل إني محرضهم على فتح إسبانيا إلى طليطلة حتى يصيبوا مقتلاً من رودريك فأشفي غليلي!) فسرّني عزمه على ذلك وهو الغرض الذي طالما تمنيته وسعيت فيه، فجعلت أقوّي عزيمته وأهوّن عليه الأمر حتى قلت: (وإذا أحببت فإني أسعى عنك في مخابرة العرب وأجعل تسليمك على سبيل الخدمة لك ولهم، وليس عن ضعف أو جبن). فرضِيَ مني بذلك وخرجت فخابرت موسى بن نصير أمير العرب فسُرّ ورحّب بيوليان وعرض عليه عبور بحر الزقاق إلى العدوة الأخرى وفتح الأندلس، على أن يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط، فرضِيَ موسى ولم يسعني عند سماعي ذلك إلا القدوم إليكم بهذا الخبر».

فلما بلغ الرجل إلى هذا القول استولت الدهشة على الجميع خصوصاً الفونس، فإنه وقع بين عاملين: عامل الغرام بفلورندا وقد انشغل خاطره بشأنها بعد أن علم أنها ليست في بيت عمه، وعامل اليأس من الملك إذا فتح العرب هذه البلاد لأنها تخرج من سلطان القوط على الإطلاق، وأدرك يعقوب ما قد يخطر ببال الفونس من هذا القبيل وخاف أن يغيّر ذلك من رأيه في مقاومة رودريك. ثم تذكر مسألة فلورندا وما في نفس الفونس على رودريك بشأنها فعلم أنه لا يمكن أن يصفو له مطلقاً خصوصاً بعد أن سمع شكاية فلورندا لأبيها. على أنه أحب أن يثبت الفونس في عزمه فقال وقد وجّه

خطابه إلى الرئيس: «إن هذا الخبر الذي جاءنا به أخونا هذا من الأهمية بمكان عظيم. ولا نظن العرب إلا فاتحين هذه البلاد خصوصاً لأن يوليان معهم يدلهم على الطريق. وطبعاً نحن نكون عوناً لهم أيضاً لأننا نخدم مصلحتنا ولا يغيّر ذلك شيئاً من غرضنا الأول في استرجاع الحكم، لأننا قد سمعنا الآن أن العرب يستبقون البلاد على ما هي عليه، وما نظنهم إذا علموا نصرة مولانا الفونس لهم إلا مسلّمين إليه الأحكام مكتفين بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية».

وكان الفونس يسمع ذلك باهتمام، وأصبح شديد الرغبة في الخروج من ذلك المجتمع للبحث عن فلورندا، على أنه أراد قبل الانصراف أن يستوثق من الأمر الذي جاء من أجله، فردّ على كلام يعقوب قائلاً: «ظن صاحبي يعقوب أن نقمتي على رودريك إنما هي لرغبتي في السلطة. ولكن الحقيقة أن الغرض الأول هو إنقاذ هذه البلاد من استبداده وإطلاق سراح اليهود الذين أجبروا على النصرانية ظلماً. فإذا حدث ذلك فليس يهمني بعده مَن يملك».

فقال الرجل: «أؤكد لمولاي أن المسلمين إذا فتحوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت، ولا أظنهم يستغنون عن مولاي في حكم هذه البلاد بعد فتحها. فقد ولوا على طنجة رجلاً بربرياً اسمه طارق مع أن البرابرة لم يذعنوا لسلطانهم إذعاناً تاماً حتى الآن. ولعلهم يفعلون ذلك لقلة عددهم بالنظر إلى سعة البلاد التي فتحوها واضطرارهم إلى الاستعانة بغير العرب في ضبط الأحكام. وعلى كل حال فإننا لا نألو جهداً في إقناعهم بذلك».

فلما سمع الفونس قوله اطمأن خاطره من هذه الناحية ولم يبق ما يشغله إلا أمر فلورندا، فالتفت إلى الرئيس وقال: «هل من كلام

يُلقى علينا أم تأذنون بانصرافنا؟». فقال الرئيس بعد أن وقف الجميع: «إذا شئت الانصراف فالأمر فيه أمرك. ولكننا نرغب إليك أن تعتقد صدق عبوديتنا في خدمتك، وأن اليهود في كل هذه البلاد يضحون بأموالهم وأنفسهم في مصلحتك، وعهد الله في ذلك بيننا وبينك». فشكره الفونس وقال: «قد ذكرت لكم غرضي، والله ولي التوفيق».

ثم تحرك يعقوب نحو الباب وأشار إلى الفونس فتبعه وخرجا من تلك الحجرة إلى الغرفة الكبرى وفيها المقاعد حول المنضدة كما تقدم، فمشيا مشية خاصة، وخرجا من باب إلى باب، حتى انتهيا إلى السرداب ومنه إلى الكهف. فلما أطلا على الخلاء رأيا الفجر قد لاحَ فعلم الفونس أنهم قضوا طول الليل هناك وأحس ببرد الخلاء. ثم نزعا الثوبين الأسودين وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة، وكان بابها قد فُتح فدخلاها وسارا يقطعانها نحو الجسر وألفونس لا يتلكم لما ازدحم في مخيلته من الأمور الجديدة. ولم يعد يدري كيف يعامل يعقوب بعد أن عرف أنه من أعيان اليهود، لكنه ظل راغباً في استطلاع بقية سره. على أنه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من السرداب إذ استقبله النسيم البارد على أثر سهره الطويل، فأصبح لا يستطيع بحثاً في شيء. ولكن صورة فلورندا لم تبرح مخيلته، وما سمعه من أقوالها إلى والدها لم يغب عن سمعه.

ووصلا إلى القلعة وهو ما زال ساكتاً، ويعقوب يراقب حركاته وسكناته، وكان قد أدرك بعض ما يجول في خاطره، ولم يشأ أن يحادثه في شيء غير الاستفهام عما يريده من طعام أو نحوه. وصعدا إلى غرفة الفونس فأعد له يعقوب كل ما يحتاج إليه وهيأ له الفراش فنام، ونام يعقوب أيضاً.

فلنتركهما نائمين بجوار استجة، ولنذهب بالقارىء إلى أفريقية وهي بلاد البربر المعبّر عنها اليوم بشمالي افريقيا وفيها: (برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) لنبحث عن أحوال العرب هناك إلى فتح الأندلس.

— ٧ —

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ فخلفه ابنه الوليد، وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشرين سنة، قضى معظمها في محاربة مناظريه عليها، وكثيراً ما خاف خروجها من يديه، ولكنه كان ذا سياسة ودهاء، وقد نصره الحجاج بن يوسف أدهى عمّال المسلمين وأشدهم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك. فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المنافسين، فانصرف همه إلى توسيع المملكة الإسلامية فبعث بقتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر فأوغل في بلاد الترك حتى أدرك حدود الصين ، وبعث أخاه مسلمة بن عبد الملك شمالاً لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها. وأنفذ موسى بن نصير إلى أفريقية فولاه إياها وأمره أن يتم فتحها.

وكانت أفريقية قد فُتحت في صدر الإسلام وأُلحقت بمصر ولكن أُهمل شأنها لبُعدها ومشقة المسير إليها. وأهل أفريقية الأصليون قبائل عديدة من البربر لهم ألسنة خاصة وعادات خاصة، وبلادهم كثيرة الماشية والمرعى. وكانوا لما اشتغل الأمويون عن أفريقية بأنفسهم أيام عبد الملك قد اغتنموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا عصا الطاعة. فبعث إليهم عبد الملك حسان بن النعمان فحاربهم وأخضعهم ونشر الإسلام فيهم، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الاضطراب. فلما تولى الوليد بلغه أنهم في

انقسام فيما بينهم فرأى أن يغتنم هذه الفرصة لتأييد سلطانه هناك وتتمة فتح تلك البلاد فبعث إليها بموسى بن نصير وهو عربي لخمي وكان قائداً باسلاً حسن الاعتقاد في الإسلام، فنزل القيروان ثم تتبع البربر إلى بلاد السوس الأدنى وهم يفرون من بين يديه حتى إذا يئسوا من النصر جاءوا إليه مستأمنين وبذلوا له الطاعة، فولى عليهم أناساً من رجاله يضبطون أحوالهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الإسلام.

وكان في جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد، وكان شجاعاً اعتنق الإسلام وأظهر غيرة عليه ورغبة في تأييده. فلما اتسعت فتوح موسى في أفريقية ولّى مولاه طارقاً على طنجة وأعمالها، وترك عنده ١٩٫٠٠٠ فارس من البربر ممن أسلموا وحسن إسلامهم. ورجع موسى إلى أفريقية ولم يبقَ في تلك البلاد غير خاضع للمسلمين إلا مدينة سبتة وهي ميناء مشرف على «بحر الزقاق» المسمى الآن بوغاز جبل طارق. وكان حاكمها هو الكونت يوليان المتقدم ذكره.

وكان جماعة البربر في المغرب يعبدون الأوثان، إلا بعض مَن خالط الروم على شواطىء البحر فإنهم اعتنقوا النصرانية. وكان لكل قبيلة أصنام وعبادات، وكهنة يديرون شؤونها ويتولون الأحكام بين أهلها كما كان يفعل الكهان عند العرب في الجاهلية، وكان البرابرة يستشيرون كاهنهم ويسمى «ماربوط» في شؤون الحرب والسِلم، ويحملون إليه الهدايا من الماشية والحنطة والرقيق الأسود والأبيض. وكان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر فيخطفون الأطفال والغلمان ويحملونهم إلى الآفاق يتجرون ببيعهم، كما كانوا يتجرون بغلمان البيض من أهل إسبانيا وغيرها ـ والغالب أن يكون هؤلاء من أسرى الحرب ـ وكان بيع الأسرى شائعاً في تلك

العصور. . واشتهر برابرة المغرب خصوصاً بركوب الخيل.

وكان طارق بن زياد ينتمي إلى قبيلة الصدف، إحدى قبائل البربر، وقد نشأ في الجبال وعاش عيشة البدو، وتدين بالوثنية مثل سائر أهله ورفاقه، وشبّ قوي البنية شديد البطش شجاعاً وكان منذ نعومة أظفاره مشهوراً بين رفاقه بالفروسية والقوة.

وكان من جملة عشرائه غلام أبيض بعكس سائر البرابرة، وكانت تقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم ـ فالبرابرة ضخام الشفاه عراض الوجوه قصار الأنوف سود الشعر والبشرة، بينما هو أبيض الوجه أشقر الشعر أزرق العينين، ولكنه بالنظر إلى معيشة البداوة في البراري وركوب الخيل والغزو اسمر لونه قليلاً وضخمت أعضاؤه كلها فأصبح غليظ العنق والذراعين، واسع الصدر خشن الكف كثّ الشعر. وكانوا يسمونه (بدر) إشارة إلى صباحة وجهه دون سائر رفاقه. وكان البرابرة يحبونه لخفة روحه وبسالته، ولا سيما أنهم كانوا يرون الشجاعة من خصائص السمر، وإن البيض ضعاف جبناء!

شبّ طارق وهو يرى هذا الغلام في بيت أبيه ويعلم أنه ليس أخاه وأن «ماربوط» قبيلتهم دفعه إلى أبيه وأوصاه برعايته والإعتناء بتربيته لأنه توسم فيه الخير. فتصاحبا وتحابا. وكان طارق لا يهنأ له عيش إلا إذا كان بدر معه، وكان بدر يُعجب بطارق ويحبه كثيراً ويعد نفسه أخاه، ولا يتخاطبان إلا بالأخوة حتى عرفا بذلك عند سائر قبيلة الصدف.

ولما جاء موسى بن نصير إلى أفريقية وصار عاملاً عليها كان في جملة مَن اتخذهم من الموالي طارق بن زياد، حتى إذا ما رأى شجاعته وحسن إسلامه رقّاه حتى جعله قائد حامية طنجة كما تقدم. وكان بدر رفيق طارق في كل أعماله، ولكنه لصغر سنه لم ينتبه له موسى

وإن كان قد أظهر في الوقائع التي شهدها بسالة الأبطال المحنكين، لأنه لم يكن يهاب الموت خصوصاً إذا كان مع أخيه طارق.

فلما عرض يوليان على موسى فتح الأندلس على أن يكون هو عوناً له في ذلك بعث موسى إلى الخليفة الوليد يستأذنه، فأذن له، على أن يخوضها بالسرايا (ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال). فرأى موسى أن يجرب ذلك برجال من الموالي المسلمين من غير العرب ولم يرَ خيراً من طارق يوليه قيادة تلك الحملة، فأعد سبعة آلاف من الموالي والبربر - وفيهم بعض العرب - وسلم قيادتهم إلى طارق، وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق إلى الأندلس، فعبره في سفن أعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلاً على شاطئه وسُمي منذ ذلك الحين (جبل طارق).

ولم يلقَ طارق مشقة في امتلاك الجبل، ثم بلغه أن رودريك صاحب طليطلة يتأهب للمجيء إليه في جند عظيم، فكتب إلى موسى فأمده بخمسة آلاف بربري فصار جنده اثني عشر ألفاً وفيهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويتجسس لهم الأخبار، ويبث في أهل البلاد أن العرب جاؤوا الأندلس لا بقصد الفتح والاستيطان وإنما ليملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا، وحبب إلى الإسبان أن يسهلوا لهم التغلب على رودريك حتى يتخلصوا منه ويعيدوا الأحكام لمن يريدون من ملوكهم الأصليين.

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح والتوفيق حليفهم، ورودريك في بلاطه على نحو ما قدمنا من اشتغاله بالترف والرخاء، وقد تركناه وهو يكاد يتمزق غيظاً من أوباس لانتزاعه فلورندا من بين يديه بعد أن كادت تكون فريسته، فلما رأى منه عند محاكمته في مجلس الأساقفة ما كاد يفضح أمره، أسرع إلى إنهاء الجلسة بحجة تأجيل النظر في تهمة أوباس إلى جلسة أخرى كما

تقدم وهو لا ينوي العود إلى ذلك، وإنما اتخذه ذريعة للحجر على أوباس في السجن ريثما يبحث عن فلورندا، حتى إذا ما انفضت الجلسة عاد إلى قصره والأب مَرْتين إلى جانبه يطنب فيما يزعم أنه انتصار على أوباس وإرغام أنفه، فكاد أن يصدق ذلك رودريك وينسى ما كان من الصواعق التي أنزلها أوباس على رأسه فكادت تسقط عرشه.

وصل رودريك إلى القصر وهو مقتنع بفظاعة ذنب أوباس وأنه يستوجب أضعاف تلك النقمة، فعزم على استبقائه في السجن ريثما يدبر وسيلة لاستطلاع خبر فلورندا ثم ينتقم منه. ولم يعجل في قتله لئلا يحتاج إليه في البحث عنها. وكان أول ما قام به أن بث العيون والأرصاد في ضواحي طليطلة وفي الطرق المتشعبة منها، ووعدهم بإجزال المكافأة لهم إذا قبضوا عليها وعلى من عساه أن يكون معها.

أما أوباس فإنه ذهب إلى سجنه منشرح الصدر، لاعتقاده ببراءة ساحته وسلامة طويته ونبالة مقصده، خصوصاً بعد أن أُتيح له كشف أعمال رودريك للمجمع ولو تلميحاً. ومع أنه لم يكن يرجو تغيّر المجمع على رودريك كان يهمه الانتصار للحق والاستجابة لصوت الضمير الحي - شأن الذين ينتظمون في سلك الرهبنة رغبة عن ملاذ هذا العالم، فهؤلاء إذا أخلصوا النية في تبتلهم لم يكن في الناس أقدر منهم على نصرة الحق لاستغنائهم عن الشهرة أو الثروة، ولاحتقارهم سائر أمجاد هذا العالم الفانية، وهم إنما تبتلوا نفوراً منها - وقد كان أوباس واحداً منهم، ولم يكن سعيه في إرجاع الملك لابن أخيه إلا من قبيل نصرة الحق.

أقام أوباس في سجنه المؤقت بضعة أسابيع وهو لا يبالي لو أقام فيه أعواماً لولا اشتغال خاطره بفلورندا، لأنه لا يعلم أين هي، ولا

أين ذهب بها أجيلا وشانتيلا، ولكنه رجح من قرائن مختلفة أنهم لم يقعوا في قبضة رودريك. وكان لثقته في ذينك الشابين وغيرتهما وصدق نيتهما في خدمته مطمئن البال على فلورندا، على أنه كان شديد الرغبة في معرفة مقرها ومصيرها، كما كان يفكر في الفونس وفي المهمة التي أنفذه رودريك فيها، وما قد يتعمده من أذيته إذا علم بسعيه في إنقاذ فلورندا وطلب الملك لنفسه. ولكنه لانطباعه على نصرة الحق لم يكن يخاف بأساً، ولاعتقاده أن الحق يعلو ولا يُعلى عليه وأن على الباغي تدور الدوائر، كان يتوقع وقوع رودريك في شرّ أعماله، ذلك ما صرّح به غير مرة حتى بين يدي رودريك نفسه!

والعاقل إذا تدبر مصير الحياة الدنيا مع ما يعتورها من الأخطار يرى الرجوع إلى غير الحقيقة ضرباً من الجنون. لأن الحقيقة هي الغالبة وهي وحدها التي تبقى. وإن كنا في الواقع لا نكاد نخطو خطوة إلا والوهم قائدنا ـ ذلك حالنا في كل علاقاتنا الأدبية والاجتماعية، وهي علاقات أساسها اعتبارات وهمية لا وجود لها في الطبيعة، وإنما هي مما صوره وَهم الإنسان مسوقاً إليه بالضعف البشري، محاولاً إثباته صوناً لمصلحته فيما تدعوه إليه عواطفه.

شريش Xeres مدينة في جنوبي إسبانيا تابعة لولاية قادس، في الطريق بينها وبين إشبيلية. تبعد عن مدينة قادس ١٧ ميلاً، وعلى مقربة منها نهر صغير هو وادي ليتةGua Dalete الذي يبدأ من جبال ولاية قادس في الشمال، ويسير نحو الجنوب والغرب، فيترك مدينة شريش إلى يمينه ويجري حتى يصب في المحيط الاتلانتيكي في خليج بالقرب من قادس. ومدينة شريش واقعة في منبسط من الأرض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب، وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس والكروم حتى لقد اشتهرت بكرمها وخمرها

المعروفة باسمها (خمر شري) الشائعة في أوربا، وهي خمر ثمينة يعتقونها ويتعاطونها على موائدهم، ومعظم ما يصدر إلى العالم منها يُعصر من كروم ضواحي هذه المدينة.

وتحتل كروم شريش مساحة كبيرة من ضواحيها إلى النهر وما وراءه، على أكمات مسطحة أو مائلة. وبين الكروم وبيوت الزراع، ومنها أبنية غريبة الشكل تتألف من غرف كبيرة قائمة على صفوف من الأساطين الدقيقة، عالية السقف، في جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء، ويستخدمونها كمستودعات يختزن خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الأعوام.

وبجوار وادي شريش مما يلي وادي ليتة سهل سماه المقري «فحص شريش» التقى فيه طارق البربري ورودريك القوطي، وفيه كانت الضربة القاضية بفتح الأندلس وتمتع العرب بغنائمها ومحصولاتها، وهانَ عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا في فتح أوربا كلها، وكانت غاية في الاضطراب والتضعضع، فلو استمروا في غزوها لما لقوا مَن يصد سيوفهم أو يقف في سبيل نبالهم، ولكنهم أجلوا المسير فضاعت منهم الفرصة.

ففي صيف سنة ٧١٠ للميلاد، أي بعد الحوادث التي ذكرناها في طليطلة ببضعة أشهر، كانت مغارس الكرم في شريش وضواحيها وعلى جانبي وادي ليتة قد نضجت أعنابها وأخذ بعض الفلاحين في قطافها والبعض الآخر في تدعيم ما ثقل حمله من الدوالي لكبر العناقيد، واشتغل آخرون في إعداد المعاصر، وغيرهم في نقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضي لاختزان خمر هذا العام.

وكان يشتغل في ذلك كله عائلات من أهل البلاد الأصليين أو ممن قضي عليهم بالأسر في بعض الحروب فأصبحوا في مصاف

العبيد، وفيهم مَن كان بين قومه من أهل الوجاهة وقد صبروا على مضض الذل، وهو غير ثقيل على أهل ذلك الزمان لأنه كان جارياً على الجميع، لكنه لم يكن يمنع تذمر أولئك الفلاحين من تلك الحال كما كان أكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة.

على أن الرأي العام لم يكن راضياً عن رودريك لأسباب تقدم ذكر بعضها، وكانوا من جهة أخرى قد سمعوا بنزول العرب بلادهم عند بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) فلم يكترثوا بنزولهم ولا علقوا عليه كبير أهمية. وكان هناك شيخ طاعن في السن قضى حياته في الأسفار متنقلاً بين إسبانيا وما يقابلها من بلاد الشاطىء الافريقي حتى وصل إلى مصر والشام، وشاهد بعض أحوال العرب في أوائل ظهور الإسلام، فكان إذا ذكروا العرب بين يديه يقول: «لا ينجينا من هذا الملك إلا هؤلاء»، فلما قيل له إنهم عبروا البحر قال: «لقد قرب الفرج!».

وكان شيخنا المذكور جالساً في كوخه في أواخر يوليو من ذلك العام (سنة ٧١٠) الموافق رمضان سنة ٩٢ هـ. وحوله أولاده وأحفاده، يشتغل النساء منهم بإعداد الطعام واصطناع الألبان والجبن، والأولاد بعلف الماشية أو صنع السلال لحمل العنب عند قطافه، ولا حديث لهم إلا تقدير محصول ذلك العام من العنب والخمر - وما لهم في تقديره فائدة لأنه ليس ملكهم، إذ لم يكن للفلاحين ونحوهم أن يقتنوا عقاراً أو يملكوا بنياناً، وإنما الملك والسيادة لطبقة الشرفاء وأكثرهم من الرومانيين والقوط، ولم يكن للفلاحين سوى حصة قليلة من النتاج. ولكن الإنسان ميال بطبعه للبحث عن المجهول، ولذا فقد اشتغل الشيخ وأولاده معظم ذلك النهار في تقدير غلة تلك السنة حتى احتدم الجدال بينه وبين أحدهم

فشغلوا بذلك عما حولهم. وكانوا جالسين في ظل دالية كبيرة قد نصبوا بأغصانها خيمة بشكل العريش، وأجروا الماء تحتها بقناة تقف عندها الماشية للشرب والناس للاستقاء، ويستظل بظلها أهل تلك القرية وما فيهم غير الشيخ وأولاده وأحفاده ونساء المتزوجين منهم.

أقبل المساء وهم على هذا الحال وقد رجع من كان غائباً أثناء النهار في إصلاح الدالية أو تدعيمها أو تنظيف المستودعات أو عمل السلال أو نقل القضبان اليابسة ليتخذوها وقوداً لهم - فربما جاء الرجل وعلى رأسه سلة، وتحت إبطه حزمة، وفي جيبه صرة، وفي يده رغيف، وفي فمه لقمة، يجر وراءه صبية: هذا يقود خروفاً، وذاك يسوق حماراً، وذلك يحمل عنقوداً قطعه قبل تمام نضجه وفيه حموضة قليلة وقد منعه أبوه عن ذلك فخبأه في جيبه وجعل يأكله اختلاساً، وأخوه بجانبه يهدده بالشكوى إلى أبيه إذا لم يطعمه بعضه، فيهرع هذا إلى والدته يختبىء في ثنايا ردائها وفي زعمه أن ذلك الرداء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان، كأنما هو راية كسرى أنو شروان - تلك عيشة السذاجة الفطرية: أن يقتات المرء من ثمار ما يغرسه، وألبان ما يرعاه، لا مطمع له إلا أن يجمع من ذلك ما يكفي أهله بقية العام للكساء والطعام - وهناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة. هناك الإخلاص وصدق اللهجة، إذا سمعت أحدهم يقول لك إنه مشتاق لرؤيتك فهو يعني ذلك حقاً، ولا يقوله على سبيل العادة التي أساسها الرياء والتملق!. والسعادة الحقيقية (إذا صح وجودها) إنما تكون في تلك المنازل المتواضعة بين تلك المغارس التي تتجدد أوراقها في كل عام وتتجدد معها قلوب أهلها - ليس هناك ضغينة ولا حقد، ولا طمع ولا نميمة ولا رياء، لقلة حاجات الإنسان وسهولة نيلها، لأن الحسد والحقد والرياء والنميمة إنما يلجأ

إليها الضعيف إذا كثرت مطالبه، وعجز عن الحصول عليها بجده وسعيه ـ ولذلك كانت الرذائل من جملة أدران المدنية.

على الفلاح الساذج إنما يكون سعيداً في ظل الأمن والعدالة، وإلا فهو من أتعس خلق الله. لأن الظلم يقضي على سعادته قضاء مبرماً إذ يسلبه ينبوع تلك السعادة وهو غلة أرضه ـ فكيف إذا لم يكن هو صاحب الأرض كما كان شأن فلاحي إسبانيا في الأجيال الوسطى؟! فهل يُلام شيخنا إذا تمنى إبدال حكومته بغيرها ولو كان غريباً؟!.

غربت الشمس وهي ترسل أشعة ذهبية تشرح الصدر، ويتطاول أهل المدن لرؤيتها فلا يتفق لهم ذلك إلا قليلاً، ولو أراد الفلاحون لرأوها كل ليلة ولكنهم في شاغل عنها وعن سواها من مناظر المساء بإعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل أو تحت بعض الأشجار. فلما غابت الشمس اجتمع أفراد تلك العائلة ـ وهم يعدون بالعشرات ـ وفيهم الأطفال والأحداث والشبان والشابات، وأصغرهم سناً أكثرهم فرحاً، وأعظمهم اهتماماً ذلك الشيخ لأنه لم يكن يهدأ له بال إلا بعد أن يرى أولاده وأحفاده تحت ذلك العريش في آخر النهار، خصوصاً بعد أن جند أمير تلك الناحية بعضهم بأمر رودريك، ليكونوا له عوناً في محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر.

فلما ظن الشيخ أن الاجتماع قد تكامل تفرس في أولاده فإذا إحدى بناته ما زالت غائبة، وكانت أعزهم على قلبه للطفها وحنوها فصبر هنيهة أخرى لعلها تأتي، فلما استبطأها نادى امرأته قائلاً: «أين مارية؟».

فبغتت الوالدة العجوز وكانت تحسبها مع إخوتها وأخواتها، ولم

تكن تهتم بمراقبة رجوع أحد لاعتمادها في ذلك على زوجها ـ فلما سمعته يسألها عنها بغتت وصاحت: «ألم تأت بعد؟».

قال: «كلا أين تركتموها؟».

قالت: «تركتها في المستودع الكبير فوق الرابية تغسل بعض الدنان والبراميل، وتنقل بعض الجرار الملآنة إلى جانب آخر ومعها أخوها بطرس». قالت ذلك والتفتت إلى ما حولها ونادت: «بطرس!» فجاء الغلام مسرعاً فابتدرته قائلة: «أين تركت مارية؟». قال: «تركتها في المستودع الكبير. ألم تأت بعد؟». قالت: «لا». ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش وأسرع نحو ذلك التل وهو يقول: «سأعود بعد قليل» وإنما حركه على تلك العجلة شعوره بأنه مخطىء برجوعه وحده دون أخته.

وكان القمر في أواخر أيامه والليل مظلم والطرق بين الكروم شاقة وعرة إلا على أهلها فإنهم كانوا يمشون بينها وأعينهم مغمضة، لا يعثرون بعود ولا حجر. ولبث الشيخ وأهله ينتظرون رجوع بطرس في قلق فلما طال غيابه وثب الوالد الشيخ كأنه شاب في عنفوان الشباب واقتص أثر ابنه عن طريق مختصر يعرفه، وصعد على السلم إلى باب المخزن وهو يلهث من التعب، فوجد الباب مقفلاً وليس عنده أحد فدقه دقات كثيرة فلم يسمع جواباً، فتأمل في الباب فرآه موصداً من الخارج على جاري عادته فترجح عنده أن مارية خرجت منه وأقفلته. فوقف في أعلى السلم ليستريح والتفت إلى ما حوله فأطل على مدينة شريش، إلى ضفاف النهر من جهة، وعلى كرومها من جهة أخرى والظلام يغشى بصره، على أنه رأى أنواراً على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من تبعثرها وتعددها أنها نيران جماعة كبيرة. ولم يكن يعهد في تلك الجهات أناساً غير الفلاحين وعملة

الحقول وهم لا يوقدون ناراً على هذه الصورة، فاشتغل خاطره ونسِيَ ضياع ابنته، ووقف هنيهة ينظر إلى تلك النيران ويرى أشعتها تتلألأ في مجرى النهر كأنها مصابيح موقدة تحت الماء تهتز أضواؤها باهتزاز أمواجه، ولولا ذلك لم يعرف أن تلك النيران موقدة على ضفاف النهر ثم ما لبث أن سمع حركة ركض ومرور أناس بين الدوالي فأنصت فسمع صوت امرأته ومعها بعض أولاده فعلم أنهم جاؤوا لاستطلاع خبر مارية فناداهم فكان أول صوت سمعه منهم صوت امرأته وهي تقول: «أين مارية؟» فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد بلباله وقال: «أين بطرس.. هل عاد إليكم؟».

وكانت العجوز قد وصلت إلى أسفل السلّم فأجابت وهي تمد يدها إلى أخمص قدمها وتستخرج شوكة أصابتها في أثناء جريها: «عاد بطرس ولم يجدها!».

فنزل الشيخ عن السلم حتى التقى بامرأته ومعها بضعة من أولاده فقال لهم: «يظهر لي أن مارية فقدت في أثناء رجوعها من هنا، فلنفترق وليسر كل منا في طريق حتى نلتقي في البيت، فمن وجدها فلينبه الباقين بالنداء حتى يكفوا عن البحث، ولتكن العلامة فيما بيننا هذه اللفظة (يا مار بطرس). أما أنا فإذا أبطأت بالرجوع فلا تقلقوا لغيابي». فأرادت امرأته أن تستفهم منه عن السبب فلم يصبر لسماع كلامها وانحدر نحو النهر، يثب بين الكروم من تل إلى تل، يعثر تارة بالعليق وطوراً بالحجارة، وهو يتطلع نحو النهر مخافة أن يخطىء الطريق لاشتداد الظلام، فإذا توارى النهر عن عينيه وراء بعض الدوالي العالية أو وراء التلال تحاشى أن ينحرف فتبعد المسافة عليه، فلما قرب منه رأى النور على ضفتيه، ثم سمع جعجعة عرف أنها أصوات الجِمال وكأن قد سمع مثلها في أثناء أسفاره - إذ لم يكن

لإسبانيا عهد بها من قبل ـ فتنسم رائحة العرب، وأدرك أنه على مقربة منهم، وتذكر ما سمعه عن نزولهم عدوة الأندلس فتحقق أنه بجانب معسكرهم، ولكنه استبعد سهولة وصولهم إلى ذلك المكان.

وبعد هنيهة وصل إلى أكمة وقف عندها وتفرس فيما بين يديه، فإذا هو مطل على سهل كبير ينتهي إلى النهر، وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران، ورأى على الضفة القريبة في طرف السهل ناراً وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام، فلبث برهة يفكر في مارية وضياعها حتى هَمّ بالرجوع للبحث عنها في مكان آخر، ثم حدثته نفسه بالنزول إلى الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ولم يخف بأساً لما علمه في أثناء أسفاره في أفريقية والشام من عدل العرب ورفقهم بأهل البلاد التي يفتحونها. وكان قد تعلم بعض الألفاظ العربية مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته. وكانت السنون قد علمته الشجاعة ورباطة الجأش فنزل من الأكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الأخرى، فلما دنا منها طرق أذنه صوت ارتعدت له فرائصه بغتة واستغراباً، إذ سمع مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق من البكاء، فلم يعد يتمالك عن الوثوب نحو الخيمة وهو لا يهاب أحداً ولا يعي شيئاً من فرط ما هاج من عواطفه خوفاً على ابنته، فاعترضه رجل واقف بباب الخيمة وقد تقلد سيفاً ورمحاً وهَمّ بالقبض عليه وهو يقول بالعربية: «مَن أنت؟». ففهم الشيخ مراده فأجابه بكلمات متقطعة أنه يريد الدخول إلى الخيمة، فاستمهله الرجل ريثما دخل ثم عاد وأشار إليه فدخل وأجال بصره في أطراف الخيمة للبحث عن ابنته فرآها جالسة في بعض جوانبها على الأرض، وحالما وقع بصرها على أبيها مع ضعف نور المصباح هناك وثبت نحوه وهي

تصيح: «أبي، أبي!»، فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناها من البغتة والفرح، ونظر إلى صدر الخيمة فإذا هناك رجل كبير الهامة عليه العمامة والجبة فعرف أنه من البربر، وبجانبه رجل بلباس القوط لم يحدق فيه إلا قليلاً حتى عرف أنه يوليان صاحب سبتة، ورجح أن يكون صاحبه هو طارق بن زياد، إذ كان قد سمع باسمه، وعرف أنه هو الذي يقود جيوش المسلمين، وأن يوليان قد اتفق معهم على القوط، وكان يحسب ذلك إشاعة كاذبة، فلما رآه تحقق الأمر وأيقن أن العرب غالبون لا محالة.

مرت كل هذه الخيالات في ذهن الشيخ في لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها، وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الاسبان: «لعل هذه الفتاة ابنتك؟».

قال: «نعم يا مولاي». قال: «لا خوف عليها فإنها في أمان على كل حال. ولا تظن مجيئك غيّر شيئاً من عزمنا في شأنها، فقد كان الأمير عازماً على إرجاعها إليك آمنة سالمة. وأما بكاؤها الذي تراه فإنما هو من خوفها، وقد ظنت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبه حاكمكم رودريك، فإن بمثل هذا الفعل الشنيع سيخرج سلطانه من يديه إن شاء الله!». قال ذلك وانقبضت سحنته للحال فلم يدرك أحد سبب ذلك الانقباض، على أنه استطرد الكلام قائلاً: «وأما سبب مجيئها إلينا فإن بعض رجال الأمير خرج في أصيل هذا اليوم، لحاجة فرآها في الطريق فجاء بها وهو يحسبها من قبيل السبايا، فلما علم الأمير بذلك أنكره عليه، وقد كانا في جدال عنيف في هذا الشأن إلى ساعة دخولك».

ولم يتم يوليان كلامه حتى وثب إلى وسط الخيمة شاب بلباس العرب وعلى رأسه عمامة صغيرة ولكن سحنته غير سحنة العرب

والبرابرة وهو في مقتبل العمر تتدفق الصحة من عينيه وجبينه ونظر إلى يوليان وهو يقول: «أراك حرمتني من غنيمتي رغبة في مرضاة أبناء جلدتك..!».

فأجابه طارق وهو يبتسم وقال: «لا تعجل يا بدر، فإنك ستصيب كثيراً من الغنائم. فنحن في أول الطريق وغداً تلتقي بجند طليطلة فما تصيبه من الغنيمة أو السبايا فهو لك. أما الآن فما نحن في حرب، ولا يمكننا أن نعد هذه الفتاة سبية. وهذا أبوها شيخ قد طعن في السن ورأيت ما كان من لهفته عليها، فهل يليق بنا أن ننغص عيشهما بلا حق، والإسلام إنما يدعو إلى العدل والرفق؟».

ثم التفت طارق إلى الشيخ وقال: «انصرف أيها الشيخ إلى منزلك وأنت في أمان حتى تبلغه. واعلم أننا لم نقدم إلى هذه البلاد إلا رحمة بأهلها، وإن ديننا يأمرنا بالرفق والإحسان، فكن على يقين أنت وكل أهل الأندلس أن من يكف يده عن حربنا فهو في ذمتنا ولا خوف عليه، وأما الذين يجسرون على مناوأتنا فما عندنا لهم إلا السيف..!». ثم نادى: «يا غلام!»، فدخل رجل بربري من أعوانه فقال له: «اصحب الشيخ وابنته حتى يصلا إلى مأمنهما..».

فهَمّ الشيخ بتقبيل يد طارق فمنعه وطيّب خاطره وصرفه، فخرج وهو يثني على ما لقيَه من طارق وقال في نفسه: «بمثل ذلك يملك الأمير الرعية ولا يملكهم بالعنف أو الظلم..».

— ٨ —

تركنا فلورندا وخالتها والرجلين أجيلا وشانتيلا هائمين على وجوههم في ضواحي طليطلة. وكان السبب في ذلك كما علمت من سياق الرواية أن أجيلا وشانتيلا كانا في انتظار فلورندا عند أسفل القصر في تلك الليلة الشاتية المرعدة، فلما تيسر لها الإفلات من بين

يديّ رودريك بعد أن بغته أوباس كما تقدم أسرعت إلى النافذة، وحملت ما استطاعت حمله من الثياب وأيقونة صغيرة للسيدة العذراء كانت شديدة الاعتقاد بكرامتها، فخبأتها بين ثيابها والتفت بالقباء وخالتها العجوز تساعدها في التأهب، فلما أتما الاستعداد بقدر الإمكان أطلت العجوز ونادت وكان الرجلان على أهبة العمل فتسلقا الشجرة وتعاونا على إنزال فلورندا سالمة، ثم العجوز وما بقي من الأمتعة الضرورية، ونزلوا جميعاً من الحديقة والرياح تهب والرعود تقصف، وهم في شاغل من الخوف عن كل ذلك حتى نزلوا إلى القارب. . وكانت فلورندا تتوقع أن ترى الفونس فيه لأنه هو الذي كتب إليها أن توافيه إليه، فلما رأته خالياً اشتغل بالها واستحيت أن تسأل عنه، فخاطبت خالتها في الأمر فالتفتت العجوز إلى الرجلين وقالت: «وأين الأمير الفونس؟». فقال شانتيلا: «لم يأت معنا يا سيدتي». قالت: «وأين هو؟». فخاف شانتيلا أن يكون في قوله ما يسيء فلورندا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل، لأن الرجلين كانا قد أدركا سرّ المهمة التي انتدبهما لها أوباس، فاشتغل بالتجديف مع أخيه لتحويل القارب إلى جهة مجرى النهر، وكان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح. على أنه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها: «نظنه في منزل المتروبوليت لأنه هو الذي أمرنا أن نذهب بك إلى هناك».

فسكن روعها ولكنها ما زالت مضطربة الخاطر إذ لم تكن تتوقع أن يكل الفونس إنقاذها إلى سواه.

سار بهم القارب وهم يطلبون ضفة قريبة من بيت أوباس لأنهم كانوا على موعد للذهاب إليه ومعهم فلورندا، ولكن طال بهم المسير في النهر لهياجه واضطرابه ومقاومة الرياح لهم فضلاً عن شدة

الظلام.. وكانت فلورندا كلما خافت خطراً استجارت بالله واستخرجت الأيقونة وقبّلتها فيرتاح خاطرها ويطمئن بالها. وتلك ثمرة من ثمار الإيمان، إذ ليس أفضل منه وسيلة لتعزية الإنسان.

مضى هزيع من الليل قبل نزولهم إلى البر، فلما نزلوه تشاوروا فيما يجب أن يفعلوه، فقال أجيلا وكان أسرع خاطراً وأكثر إقداماً من أخيه: «أرى أن تمكثوا هنا وأذهب أنا إلى بيت أوباس، ثم أعود بمن يحمل هذه الأحمال». فاستصوب الجميع رأيه فمضى حتى أشرف على المنزل فرأى حوله فرساناً من جند الملك فأجفل وتراجع وقد شغل باله بسبب وجود الجند هناك. ثم ما لبث أن رأى بعضهم يخاطب أوباس فتربص في بعض المنحنيات ليسمع ما يدور بينهما ففهم من خلال الحديث أن الملك بعث بالجند للقبض عليه. فلم يخامره خوف على أوباس لفرط اعتقاده باقتداره، ولكنه أوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده أن سبب ذلك القبض متصل بفرارها. فلما توارى الركب عنه تحول نحو القصر على أمل أن يخاطب بعض الخدم فمشى وهو يسترق الخطى استراقاً ويحسب الدخول سهلاً بعد ذهاب الحرس، فإذا هو بكوكبة أخرى قد أحدقوا بالقصر واستخدموا القوة لإخراج مَن فيه حتى علت الضوضاء وبالغوا في التخريب والتعذيب!.

فلما رأى أجيلا ذلك أيقن بالخطر الذي أصبح هو معرضاً له هناك، وبما يهدد فلورندا من الأخطار الجسيمة إذا اطلع الملك على مقرها. فهرول مسرعاً ولم يعد له شاغل سوى بذل كل ما في وسعه ووسع أخيه في سبيل إنقاذها وحمايتها!.

وكانت فلورندا جالسة على الأرض وفي حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيها والتفت بطرفها التفافاً شديداً لشدة البرد والريح. وكان التعب قد غلب على قواها حتى مالت إلى النعاس

خصوصاً بعد أن ظنت نفسها قد نجت من حبائل ذلك الرجل الشرير، فأسندت رأسها على كفها وأغمضت جفنيها فنامت. ولما رأتها بربارة نائمة أجازت لنفسها الارتياح هنيهة. أما شانتيلا فإنه ظل ساهراً قلقاً وقد استبطأ أخاه وحسب لغيابه ألف حساب، وربما لامه لإبطائه ومغادرته إياهم عرضة للهواء والبرد، وتوهم أنه لو ذهب هو في تلك المهمة لكان أقدر منه على إتمامها وملاحظة ما قد ينجم عن الإبطاء من الأضرار. على أنه ما لبث أن رآه عائداً وحده فذعر لانفراده، ثم سمعه يقول: «هلم بنا سريعاً حتى نخرج من هذه الضواحي الليلة، لأني لا أحسب الملك إلا وهو يبث علينا العيون والأرصاد من صباح الغد!».

فأفاقت فلورندا من رقادها مذعورة وصاحت: «ويلاه وإلى أين نذهب؟ نجّني يا مخلّصي، أين الفونس؟».

فقال: «ليس في المنزل أحد يا سيدتي».

قالت: «ولا أوباس؟».

قال: «لقد رأيته وهو مسوق بين أيدي الجند الملوكي إلى قصر الملك. ثم رأيت الجند دخلوا بيته وأخرجوا كل مَن كان فيه من الخدم، ولم أسمع ذكراً لسيدي الفونس بينهم، فلعله لا يزال في منزله».

فقطع شانتيلا كلام أخيه وقال: «إن سيدي الفونس لم يرجع إلى قصره قبل خروجنا منه».

قالت: «أين كان قبل خروجكم..؟».

قال: «كان قد ذهب في مهمة خاصة بأمر بالملك». فتذكرت للحال ما سمعته من رودريك في تلك الليلة عن إبعاد الفونس،

وكانت تحسبه يقول ذلك على سبيل التهديد، فأيقنت عند ذلك صدق قوله ولكنها لم تدر هل أبعده أو حبسه، فأعادت السؤال قائلة: «هل أنت واثق بذهابه، وهل تعلم إلى أين؟».

قال: «إني واثق بخروجه من قصره وحوله الحرس الملوكي، وأما إلى أين ذهب فلا أعلم. ولكن الغالب أنه سار في مهمة إلى بعض البلاد».

فعاد أجيلا وقطع كلام أخيه فقال: «أظنه أرسل في قيادة حملة إلى بعض البلاد لإخماد ثورة أو مخابرة بعض الكونتية مما يحدث كثيراً في هذه الأيام. ولا بأس عليه بإذن الله. ومتى استقر بنا المقام وأمنّا العيون والأرصاد بحثنا عن مكانه، وبذلنا كل ما يؤول إلى راحتك وراحته فإننا صنيعته وأرواحنا له. والآن لا بد لنا من مغادرة هذه الجهات حالاً، والفرار من الظلم فضيلة، ولنترك البحث في مصيرنا إلى وقت آخر. دعونا نرجع إلى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود هذه المدينة وأهلها وحراسها في شاغل عنا بالأمطار والزوابع، فإذا صرنا في مأمن نبحث في الذي نفعله». قال ذلك وتقدم إلى فلورندا يريد مساعدتها في النهوض فنهضت وتحولت إلى القارب وقد عادت إليها مخاوفها، وتبعتها خالتها وهي تحمل صرة الثياب وبقي هناك صندوق تعاون الرجلان على حمله ونزلا في القارب وأخذا في التجديف. وكان النوء قد خفّ وساعدهم مجرى الماء حتى خرجوا من ضواحي المدينة وأصبحوا في مكان لا يرون فيه أنسياً ولا يسمعون صوتاً غير نقيق الضفادع، وكان قد مضى معظم الليل فأووا بالقارب إلى منعطف وراء تلة تداروا بها من الرياح. وقال أجيلا عند ذلك لفلورندا: «نحن الآن في مأمن يا سيدتي فإذا شئت الرقاد إلى الصباح لا بأس عليك، وكذلك الخالة، وأما نحن فإننا نتناوب

الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث في الجهة التي نسير إليها».

ونامت فلورندا بقية ذلك الليل نوماً مضطرباً، فلما أصبحت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذي تقدم نصه، واستدعت أجيلا فدفعت الكتاب إليه والدمع يترقرق في عينيها من شدة تأثرها وهي تكتبه وقالت: «لقد رأيت من مروءتك ومروءة أخيك هذا ما يوجب سروري وامتناني كثيراً، وقد وعدتني بالبحث عن الفونس، وأطلب إليك فوق ذلك أن توصل هذا الكتاب إلى أبي.. هل تعرف مَن هو؟».

قال: «نعم يا سيدتي أنه الكونت يوليان صاحب سبتة. ولكنني أرى يا مولاتي قبل كل شيء أن ننزلك في مكان أمين أعرف الطريق إليه، إذا أنا عدت بالجواب إليك».

فالتفتت فلورندا إلى خالتها وقالت: «ما رأيك يا خالة؟ أين تظنين مقامنا أقرب إلى الأمن والسلامة؟».

قالت: «لا يخفى عليكم أن في هذه البلاد أديراً ينقطع فيها الرهبان عن العالم تعبداً لله تعالى، وتكون هذه الأديار غالباً في البراري أو في الجبال، ومنها ما لا يدخله الناس إلا نادراً. فالرهبان منقطعون عن العالم برمته، فإذا أقمنا في أحدها كان ذلك أستر لحالنا ريثما يتيسر أمرنا».

فتقدم أجيلا وكأنه تذكر أمراً ذا بال وقال: «لقد أذكرني كلام حضرتها أديراً للعذارى، فالإقامة فيها أولى لمولاتي لأنها تكون بين عذارى مثلها».

فقطعت العجوز كلامه وقالت: «صدقت يا أجيلا، ولكننا لا نستغني عن أحدكما معنا، وإني أعرف ديراً بين هذه الجبال (جبال طليطلة) بعضه للرهبان والبعض الآخر للراهبات، وكل طائفة منهما

في قسم من الدير لا علاقة لها بالطائفة الأخرى ولا بسائر العالم إلا نادراً. ولا يلتقي الراهبات والرهبان معاً في الكنيسة في أوقات الصلاة. وقد علمت من قواعد هذه الرهبنة أن الراهبة لا يمكنها مخاطبة أحد من الناس حتى رئيس الدير أو وكيله إلا بوجود راهبتين أخريين، وهذا التدقيق نافع في منع المحظورات. فأرى إذا استحسنت فلورندا أن نذهب إلى ذلك الدير فنقيم أنا وهي في قسم الراهبات، وأنت وأخوك في قسم الرجال، حتى نرى ما يكون».

فالتفتت فلورندا وقد أشرق وجهها وقالت: «بورك فيك يا خالة، لقد نطقت بالصواب. هلم بنا إلى ذلك الدير. هل هو بعيد من هنا؟».

قالت: «لا أظنه يبعد إلا يوماً وبعض اليوم، وطريقنا إليه غير مطروق فلا نخاف عيناً ولا رصداً. وأظنني أعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة أعوام».

قالت فلورندا: «أرى يا خالة قبل كل شيء أن يذهب أجيلا بالكتاب إلى أبي، فإذا عاد منه بخير جاءنا إلى ذلك الدير». ثم التفتت فلورندا إلى أجيلا وقالت: «سر بحراسة المولى، ومتى رجعت تعال إلى دير الجبل الذي سمعت خبره. وإذا استطعت معرفة خبر الأمير الفونس فإنك أعقل من أن أوصيك بالذي ينبغي أن تفعله».

فانشرح صدر أجيلا لهذا الإطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق. أما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله، وأوغلوا بين التلال والجبال ودليلهم العجوز وهي تسير أمامهم كأنها تلتمس منزلاً تذهب إليه كل يوم، فقضوا في سيرهم عدة ساعات لم يلتقوا في أثنائها بعابر ولا قاعد، وأكثر التلال التي قطعوها جرداء إلا ما كان على جوانب الأودية من شجر ملتف مهمل، قلما

امتدت إليه يد الإنسان. وكانت الأمطار قد أغرقتها في الليل الماضي وغمرتها السيول. فلما أشرقت الشمس في ذلك الصباح سرى في الجو بعض الدفء. على أن وعورة الطريق أتعبتهم خصوصاً فلورندا لأنها لم تتعود هذه المشاق، ناهيك بما في قلبها من لواعج الحب وما ينتابها من الهواجس والأشواق.

قضوا معظم النهار في المسير، وباتوا وشانتيلا حارسهم وعونهم في كل ما يحتاجون إليه من الطعام ونحوه، ومشوا معظم اليوم التالي ولا حديث لهم إلا تكرار ما فات، حتى إذا مالت الشمس نحو الأصيل وصلوا إلى سفح جبل أطلوا منه على بناء شامخ أشبه بالحصون منه بالأديار، وظهر لهم لأول وهلة أنه على قمة ذلك الجبل. فلما شاهدته العجوز صاحت: «هذا هو، قد وصلنا، ولكن لا بد لنا من الصعود».

قالت فلورندا: «فلنصعد»، ولملمت أطراف ثيابها وهرولت إليه مشمرة لشدة رغبتها في الوصول والاستراحة، وإرسال شانتيلا لاستطلاع الأخبار من طليطلة عن مصير الفونس، وعن حال أوباس، ورأي رودريك في فرارها.. كذلك هرولت العجوز وشانتيلا بين يديهما حتى وصلوا إلى الدير، فإذا هو في ساحة في سفح ذلك الجبل، وهو بناء قديم العهد غريب الشكل، حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة عظيم الارتفاع، ليس فيه من النوافذ سوى شقوق مستطيلة في أعلاه وباب واحد في بعض جوانبه، لا يتناسب صغره مع ضخامة ذلك السور، وفي أعلاه برج حصين كأنه قلعة، وهو مراقب يقيم فيه حارس الباب.

وقفت فلورندا وخالتها وشانتيلا وهم يلهثون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير. فلما استراحوا قال شانتيلا: «هل

تأذن مولاتي بأن أقرع الباب وأستأذن في النزول؟». قالت: «إفعل».

فتقدم حتى وقف بالباب فإذا هو مصفح بحديد سميك استدل على سمكه من ضخامة قمم المسامير التي كانت بارزة فوق سطحه ولا يزيد علوّه على قامة الإنسان إلا قليلاً. فتفرس في جوانبه لعله يرى حلقة يدق بها فلم يجد شيئاً، ثم وقع بصره على حبل مرسل من ثقب في أعلى الباب نحو الخارج فأمسكه وشدّه، فسمع جرساً يدق في الداخل فعلم أنه قد أصاب المحج. وصبر بعد الدق هنيهة فرأى رأساً قد أطل من نافذة صغيرة في البرج المذكور وقد جلّله شعر ناصع البياض حتى لم يظهر من وجهه إلا أنف بارز وعينان تتلألآن في غورين، فوقهما حاجبان بارزان، وفوق الحاجبين جبين أصبحت غضونه كالميازيب أو الأخاديد!. وأطل الشيخ برأسه ولبث برهة لا يتكلم فلم يصبر شانتيلا على سكوته لعلمه بما ألّم بفلورندا من التعب فصاح فيه: «أما مِن مأوى عندكم للغرباء ولو إلى حين؟».

وما أتم شانتيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى ولم يبدِ جواباً. ولم تمض برهة حتى سمعوا قلقلة مفتاح وراء الباب توسموا منها قرب الفرج ـ وطال زمن القلقلة ثم سمعوا صريراً فتدانوا إلى الباب يتوقعون فتحه فإذا هو لا يزال مقفلاً، فلبثوا ينتظرون، فعادت القلقلة وعاد الصرير ولكن الباب لم ينفتح فملوا الانتظار، وخافوا أن يكون وراء ذلك ما يوجب الخوف، وخصوصاً فلورندا فإنها كانت واقفة وبصرها ثابت في ذلك الباب.

وأما العجوز فقد كانت جالسة على حجر، وقد ذبلت عيناها من أثر ما نالها من التعب حتى كادت تنام، وإذا بصرير عنيف استلفت انتباهها فنظرت فرأت الباب ينفتح بتثاقل كأن فاتحه يجر ثقلاً كبيراً! فظلت فلورندا في مكانها وتقدم شانتيلا نحو الباب، فاستقبله

ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان في أبسط أحواله، وهو رداء أشبه شيء بالعباءة يستر بدنه إلى الركبة وساقاه عاريتان وقدماه حافيتان وقد أصبح أخمصاهما كالنعال لطول ما مرّ بهما من مصادمة الأحجار والاحتكاك بجذوع الأشجار!. خرج الشيخ الراهب وبيده عكاز أعقف الطرف، قبض على عقفته بأنامل كأنها عظام عارية قد تصلبت مفاصلها، ونتأت من قفا الكف حتى أصبح بسطها مستحيلاً، وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز وما زالت قابضة عليه حتى تصلّبت وهي منقبضة!

وكانت تلك العباءة قصيرة الأكمام لا تكاد تصل إلى كوع الراهب الذي تعظم جلده وخشن، حتى تحسبه إذا نظرت إليه كأنه أخمص القدم ـ وكأن الشيخ قضى عمره يدبدب على أخمصيه ومرفقيه.

ظل الشيخ واقفاً بالباب فأسرع الجميع إليه وأولهم شانتيلا، فإنه نزع قبعته عن رأسه وهَمّ بتقبيل يد ذلك الشيخ، وكذلك فعلت فلورندا وخالتها، فقال الراهب الشيخ وفي غنة صوته خشونة البرية: «ما الذي جاء بكم إلى هذا المكان؟».

قال شانتيلا: «جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير، فهل من مانع؟». قال: «كلا، ولكن هذا الدير قسمان: قسم للرهبان، وقسم للراهبات. فأيهما تريدان؟». قال: «كما تستحسنون».

قال: «وعلى كل حال فإن ذلك راجع إلى رأي الرئيس العام». ثم تحول نحو الداخل وأشار إليهم أن يتبعوه فدخلوا في أثره، فإذا بالباب يستطرق إلى ممر قصير فيه بابان آخران مصفحان بالحديد مثله، وينتهي إلى فناء واسع سقفه القبة الزرقاء. ولم يطأوا الفناء حتى سمعوا الأبواب تقفل، ونظروا إلى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع، ووجدوا أنفسهم في باحة مرصفة بالحجارة الصلبة، أو

لعلها من صخر الجبل نفسه، وأحست فلورندا كأنها في سجن حصين!

وبعد أن مشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار انتهى إلى باب يلي الجدار الذي دخلوا منه ففتحه وأدخلهم فيه، فإذا هي غرفة تستطرق إلى عدة غرف، فأشار إليها وقال: «هذه دار الأضياف، أقيموا فيها ريثما أقابل حضرة الرئيس وأخبره بأمركم، فالذي يأمر به صائر». قال ذلك وتحوّل يريد الخروج، فسمعوا جرساً يدق ورأوا الراهب حالما سمع دق الجرس ألقى العكاز من يده ورسم إشارة الصليب ثم صالب يديه على صدره ووقف وقوف الاحترام، ففعل الجميع مثل فعله وهم لم يدركوا الغرض، على أن الراهب ما لبث أن التفت إليهم وهو يقول: «لا سبيل لنا إلى مخاطبة الرئيس الآن لأن الصلاة قد آن وقتها ونزل الجميع إلى الكنيسة، وأنا ذاهب أيضاً وبعد الصلاة نرى ما يكون».

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة أيام وكيف أنقذها الله بها، فتقدمت إلى الراهب وهي تخاطبه بلسانها العذب وصوتها الرخيم: «ألا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدي؟». قال: «الصلاة لا تحتجب عن مسيحي، والكنيسة لا تقفل أبوابها في وجه أحد».

ثم مشى الراهب أمامهم وهم يتبعونه في وسط تلك الباحة حتى انتهوا في صدرها إلى باب كبير اشتموا قبل الوصول إليه رائحة البخور، فعلموا أنه باب الكنيسة. فتأدبوا ودخلوا منه في أثر الراهب، فأطلوا على مذبح في صدره وقد قسم صحن الكنيسة إلى شطرين: شطر للراهبات، وشطر للرهبان. فهداهم الراهب إلى مكان وقفوا فيه لاستماع القداس، وكانت فلورندا أكثرهم تخشعاً، فكم

قرعت صدرها وكم توسلت إلى الله وإلى السيد المسيح أن ينجّي خطيبها من المهالك ويعيده إليها سالماً. فلما انقضت الصلاة ارفضّ الجمع فخرج الراهبات من باب، والرهبان من باب آخر، وعاد الراهب العجوز بفلورندا وصاحبيها نحو دار الأضياف، ولحظ وهم خارجون أن فلورندا استخرجت من جيبها نقداً وضعته بين يديّ الأيقونة التي كانت تصلي أمامها، ورأى النقد أصفر لامعاً فاستدل من ذلك على أن الأضياف من أهل الثروة وربما تبرعوا بمال كثير لصندوق الدير، فرافقهم إلى دار الأضياف وهرول راجعاً وهو يتوكأ على عصاه حتى أتى إلى الرئيس وقصّ عليه ما كان من قدوم هؤلاء الغرباء إلى أن قال: «ويظهر من قيافتهم ولهجة لسانهم أنهم من أهل طليطلة، ويؤيد ذلك ما رأيته من كرمهم، فهل تأذن لهم بالمجيء إليك؟».

قال الرئيس: «بل أرى أن أذهب أنا إليهم».

قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط أيضاً ولكنه أرقى حالاً من رداء الراهب البواب، وهو مؤلف من عباءة أطول قليلاً من تلك وقد تمنطق عليها بحبل واحتذى نعلاً من خشب، وعلى رأسه شبه قبعة سوداء. وكان الرئيس كهلاً بادناً ربع القامة، حسن الطلعة، صحيح الجسم، نيّر البصيرة. وكان كثير المطالعة والبحث فصيح اللسان، وذلك ما رقاه إلى درجة الرياسة وهو كهل وتحت حكمه عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل راهبنا العجوز. والارتقاء في رتب الكهنوت يغلب أن يكون عن أهلية، خصوصاً في الرهبنات إذ لا تأثير هناك لدالة القرابة أو نفوذ العصبية، والكل سواء في الاغتراب والاعتزال، لا يتفاضلون بإرث ولا بصنيعة بل لكل منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه واقتداره. فإذا ارتقى راهب إلى الرياسة أو نحوها مع

صغر سنه كان ذلك دليلاً على امتيازه عن رفاقه فيما يؤهله إلى تلك الرتبة. ويغلب في هذه الأحوال أن يكون السابق محسوداً أو مكروهاً، أما رئيس دير الجبل فقد كان على الضد من ذلك بالنظر إلى ما فطر عليه من اللطف والدعة وكرم الخلق، بدليل أنه لما سُئل عن مجيء أولئك الضيوف إليه تبرع بأن يذهب هو إليهم بنفسه مجاملة وتلطفاً!

وكانت فلورندا مذ عادت من الكنيسة جالسة على مقعد في إحدى غرف الضيافة وقد هاجت أشجانها، وتنبّه ذهنها للتفكر في الفونس، فاستغرقت في الهواجس والعجوز إلى جانبها صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب. بينما ظل شانتيلا واقفاً بالباب ينتظر رجوع الراهب، وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب. ولمغيب الشمس في الجبال هيبة ورهبة، خصوصاً حيث يقل الناس.

لم تمض برهة حتى أقبل الرئيس وبيده رق كان يطالع فيه لما كلمه الراهب. فلما رآه شانتيلا مقبلاً تأدب في وقفته ولكن لم يكد يقع نظره عليه حتى توسم فيه رجلاً يعرفه، أو أنه يشبه رجلاً يعرفه، ولو أن ذاكرته لم تسعفه في تلك الفرصة الضيقة، فلما دنا الرئيس من دار الأضياف أشار شانتيلا إلى فلورندا ينبهها إلى مقدمه، وتقدم حتى جثا بين يديه وتناول أنامله فقبلها، والرئيس يظهر عدم ارتياحه إلى ذلك المجد الباطل. ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقباله وجثت وقبّلت يده، وكذلك فعلت خالتها. وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جاري العادة، على أنه ما لبث حين جلست بين يديه حتى تذكر أنه رآها قبل الآن فقال لها: «لعل هذه السيدة والدتك؟».

قالت: «كلا يا مولاي بل هي خالتي». قالت ذلك واستعاذت بالله من تلك الأسئلة وخافت أن يسألها عن اسمها ونسبها ولا مندوحة لها عن الجواب الصريح لأنها تكره الكذب كرهاً شديداً، وودت لو يوجّه الرئيس أسئلته إلى شانتيلا لأنه أقدر منها على التخلص. على أنها تذكرت ما للناس من الثقة في جماعة الكهنة حتى ليسلمون إليهم أسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيماً، فهان عليها الأمر وعزمت أن تجعل حديثها مع الرئيس من باب الاعتراف إذا رأت ما يدعو إلى ذلك.

مرّت كل هذه الخواطر بذهنها في لحظة، فلما سألها الرئيس السؤال الثاني كانت قد تهيأت للجواب.

قال لها: «ومن أين أنتم قادمون؟».

فالتفتت فلورندا إليه وقالت: «هل يأذن لي حضرة الأب المحترم في كلمة أرجو أن لا تثقل عليه؟». قال: «كلا. قولي». قالت: «إذا لم يكن لحضرتكم بد من الاستفهام عن كل ما يتعلق بنا فإني أستميح الإذن في أن تجعل ذلك على سبيل الاعتراف، لأن في حكايتنا سراً لا يمكن إيداعه عند أحد إلا عن هذا السبيل».

فحنى الرئيس رأسه وقال: «لا يهمني البحث عن أحوالكم إلا على أمل أن أستطيع خدمتكم في شيء، فأنتم مخيّرون في الكلام أو السكوت. وفي كل حال فإنكم أضياف مكرّمون».

فقالت فلورندا وقد أُعجبت بلطف الرئيس: «نشكرك في كل حال، ولا نقبل مع ذلك إلا اطلاعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف، ولأن مكاشفة أمثالك بالأسرار فرج ورحمة. فهل نقفل الباب؟».

ولما سمع شانتيلا كلام فلورندا بعُد عن الباب فخف الرئيس

بنفسه إلى الباب كأنه يهم بإقفاله، ولكنه أشار إلى العجوز ولسان حاله يقول: «وهل تبقى هذه المرأة لسماع الاعتراف؟». فأدركت فلورندا قصده وقالت: «إن هذه الخالة مستودع أسراري فلا بأس من بقائها».

وأغلق الرئيس الباب فأظلم المكان فعاد وفتحه، وصفق فجاء راهب وبيده مصباح مضيء بالزيت فوضعه على مسرجة في الحائط وانصرف، فأغلق الرئيس الباب ثانية وجلس، وأصاخ بسمعه لما تريد فلورندا أن تقصه عليه. ولم تكد تبدأ بالحديث حتى أهمه الوقوف على تمامه، على أنها لم تصرح له بكل شيء وإنما قالت له: «نحن من طليطلة، وقد خرجنا للتخلص من أناس أرادوا اغتيالنا فلم نجد فرجاً غير الفرار».

فقال الرئيس: «ولماذا لم تلجأوا إلى الملك فإنه الموكل بنصرة المظلومين». فلم تدر فلورندا بماذا تجيب وأدرك الرئيس اضطرابها فتوسم شيئاً أحب أن يقف على حقيقته فقال: «يظهر أن الملك أيضاً من جملة مَنْ تخافونه؟». فتصدت العجوز للجواب وقالت: «نعم، ولماذا الكتمان؟ بل كان خوفنا من الملك نفسه!».

فبغتت فلورندا لهذا التصريح، ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سرّ الاعتراف وهو مقدس لا يُباح به. ولحظ الرئيس بغتتها فحوَّل وجهه عنها وقال: «ومن هو الرجل الذي جاء معكما؟».

قالت فلورندا: «هو من أتباع بعض أهلنا».

فابتسم الرئيس وقال: «أليس هو من أتباع الأمير الفونس؟».

فلما سمعت فلورندا ذكر الفونس احمرّ وجهها حتى كادت تختنق، وتلعثم لسانها والتفتت إلى خالتها كأنها تتوقع مخرجاً من عندها، فإذا بالعجوز تقول: «بلى يا مولاي إنه من خدم الأمير الفونس بن غيطشة ملك الإسبان السابق. وهل تعرفه؟».

فتحول الرئيس من الابتسام إلى الانقباض حالاً ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال: «نعم أعرف غيطشة وأعرف أولاده وكل أهله. ومَن مِن كهنة إسبانيا لا يعرف أخاه الأسقف أوباس، ومَن لم يستفد من عظاته أو قدوته أو حكمته أو درايته؟ ذلك الرجل الذي لا أظن الزمان يجود بمثله، ولكن!».

فلما سمعت فلورندا إطراء أوباس اطمأن بالها إلى أن الرجل ميال إلى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرّها. ولكنها لحظت منه أنه يحاذر أن يكاشفها بما في ضميره للسبب الذي تخافه هي من مكاشفته لولا الاعتراف، فعزمت على استطلاع حقيقة رأي الرجل وهي في مأمن على ما تقوله في ظل سر الاعتراف فقالت: «ألا تدري أين هو أوباس الآن؟». قال: «كلا. وأين هو؟». قالت: «إنه سيق إلى السجن منذ يومين». قال: «ومَن ساقه، ومَن يتجرأ أن يفعل به ذلك؟». قالت: «ساقَه الملك رودريك. بعث إلى بيته بكوكبة من الفرسان أخرجوه من فراشه».

فوقف الرئيس مذعوراً وظهرت على وجهه أمارات الغضب وقال: "ساقوه إلى السجن! أمثل أوباس يُسجن؟! قبّح الله الجهل! كيف تجرأوا على مسّ يده لغير التقبيل، وكيف خاطبوه بغير الاحترام والتبجيل؟!".

فتحققت فلورندا عند ذلك أن الرئيس من مريدي أوباس وأهله، فتاقت نفسها إلى استنجاده أو مشورته في أمر الفونس، ولكنها استحيت فأطرقت، فتناولت خالتها الحديث نيابة عنها وقالت: «وألفونس؟ هل تعرفه؟».

قال: «كيف لا وقد عرفته منذ طفولته، وكثيراً ما كنا نلتقي به في طليطلة أيام المواسم والأعياد على عهد المرحوم أبيه».

فوقفت العجوز ونظرت إلى الرئيس نظر المتفرس وقالت: «أما وقد برح الخفاء فأخبرك أن الفتاة التي تراها بين يديك هي خطيبة الفونس، فأراد ملك طليطلة أن يحرمه منها بالقوة فقذفه في مهمة إلى أقصى بلاد الإسبان. فلما رأت عزمه وفهمت مراده خرجت من قصره فراراً، ثم علمنا أن رودريك ألقى القبض على أوباس لأنه ساعد في إنقاذها من بين مخالبه! هذه واقعة الحال كما هي، وأنت وشأنك».

فتفرس الرئيس في فلورندا وقال: «أليست هذه بنت يوليان حاكم سبتة خطيبة الفونس؟ إني أول الشاهدين على خطبتها، وقد كان أهلها يتحدثون بخطبتها إلى الفونس وهما طفلان، ثم خطبها وأوباس واسطة ذلك العقد، فكيف يتجرأ رودريك على حله؟!».

فلما سمعت العجوز كلامه تذكرت أنها كانت تراه يتردد إلى قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هذا اللباس فقالت: «ألستَ الأب سرجيوس؟».

قال: «أنا سرجيوس، وكنت كاهناً أتردد على طليطلة بالنيابة عن هذا الدير، فلما رأيت الدسائس تتعاظم ضد المرحوم غيطشة ولم أجد سبيلاً إلى نصرته أقمت في هذا الدير حتى توليت رياسته. ولو أطاعني أوباس لأقمنا هنا معاً في أمن وسلام». ثم التفت الرئيس إلى فلورندا وقال لها: «كوني مطمئنة يا ابنتي إن سرّك محفوظ في بئر عميقة، واعلمي أني نصيرك ونصير أوباس في كل شيء. سامحه الله كم طلبت إليه أن يدع طليطلة ويأتي إلى هذا الدير نعبد الله فيه ونبتعد عن دسائس العالم وشرور أهل المطامع، وعندنا من المؤونة والأموال ما يكفينا طول العمر، ولكنه أبى إلا البقاء هناك. وأظنه بقي لرعاية أبناء أخيه خصوصاً الفونس». ثم أطرق وهزّ رأسه وقال: «أوباس

في السجن الآن؟».

قالت فلورندا: «علمنا أنهم ساقوه إلى السجن ولا ندري أسجنوه أم قتلوه؟ وكان في عزمنا بعد نزولنا في هذا الدير أن نبعث هذا الشاب إلى طليطلة يتجسس الأحوال ويعود إلينا».

فقطع الرئيس كلامها قائلاً: «لا. لا يصلح هذا لذلك، لأنهم يعرفونه ويعرفون أنه من أتباع الأمير الفونس أو الأسقف أوباس، وربما قبضوا عليه وسجنوه أو قتلوه. دعوا ذلك لي، فقد أصبح البحث في هذا الأمر من واجباتي.. كونوا براحة فتأتيكم الأخبار صاغرة». قال ذلك ونهض وهو يقول: «وقد آن لكم أن تستريحوا من عناء السفر، واعلموا أن الدير ومَن فيه تحت شارتكم لأننا جميعاً صنيعة الملك غيطشة، ونحن وقف على خدمة ابنه وكل مَن يلوذ به. فهل تقيمون في شطر الدير المختص بالراهبات ويبقى خادمكم شانتيلا في هذا القسم، أم تفضلون البقاء معاً في هذه الدار ولا ندخل إليها أحداً سواكم؟».

فنهضت فلورندا وقد أحست بحمل ثقيل نزل عن عاتقها وشكرت الله لأنه استجاب صلواتها وعلقت آمالها بقرب الفرج. فأثنت على الرئيس سرجيوس وقبّلت يده واستشارت خالتها في الإقامة فقالت: «أرى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشانتيلا معنا حتى نرى ما يكون».

فقال الرئيس: «ذلك لكم». ثم خرج وكان الليل قد أسدل نقابه، وأوقد الرهبان نيراناً في بعض جوانب تلك الباحة للاستدفاء والاستنارة. وكان شانتيلا قد اختلط بالرهبان وهم يسألونه عن أحواله ولا يسمعون منه جواباً مفيداً. فلما خرج الرئيس من دار الأضياف سكنت الغوغاء وتشاغل الرهبان بإعداد الطعام، وبعث

الرئيس إلى قيّم الدير وأمره أن يعد للأضياف ما يحتاجون إليه من لوازم الراحة.

صعد الرئيس إلى غرفته وهو في هم من أمر أوباس لأنه كان يحترمه ويحبه ويغار عليه ككل معارفه لما علمت من تعقله ورزانته وإبائه، فأخذ يفكر في سبيل إنقاذه. ثم تذكر أنه ليس على يقين من حقيقة حاله فعوّل أن يتولى البحث عن ذلك بنفسه. وكان سرجيوس لم يذهب هذا العام إلى طليطلة في عيد الميلاد لحضور القداس الأعظم وتهنئة الملك لشواغل لم تكن لتقتضي تخلفه لو لم يكن هو ميالاً إلى الابتعاد عن الملك وحاشيته، لما في نفسه من النقمة لغيطشة. فقد كان حاضراً في المجمع الذي دبر تنصيب رودريك بدله، ولم يكن ذلك من رأيه ولكنهم غلبوه على أمره بالأكثرية، ثم أصبح يخاف التظاهر بما يعتقده لئلا يناله غضب الملك، ولم يكن يحتمل مشاهدة ما يغاير اعتقاده فجعل قدومه إلى طليطلة نادراً. فلما أقبل عيد الميلاد الأخير تعلل بما يمنعه عن القدوم، فلم يرَ شيئاً مما حدث لأوباس، ولو كان هناك لشهد محاكمته وسمع حجته، وإن كان حضوره لا ينفع أوباس شيئاً لأنه لا يستطيع التغلب على حزب الملك وهم الأكثرون.

فخطر لسرجيوس أن يذهب إلى طليطلة بنفسه فيعتذر للملك عن تخلفه في العيد، ولكنه خاف أن يتهمه أو يشك في سبب قدومه، وأول مَن ينبّه شكوكه الأب مَرْتين لأنه لا يغفل عن مثل ذلك. فرأى تأجيل الزيارة إلى يوم رأس السنة فيذهب لتهنئة الملك بالعيدين، ولا يكون ثمة ما يدعوه إلى الشك في سبب ذلك القدوم. ولكنه لم يكن يصبر عن استطلاع حال أوباس طول هذه المدة فعوّل على إرسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير أن يشاهد أوباس أو يسمع كلامه.

قضى سرجيوس معظم الليل في أمثال هذه الهواجس، فلما أصبح بعث إلى فلورندا وكانت قد باتت تلك الليلة في راحة على أثر ما قاسته من تعب البدن واضطراب العواطف، خصوصاً بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس مشاركته لها في شعورها وعزمه على مساعدتها ـ وأفاقت في الصباح على صوت الناقوس فنهضت وأخذت تتأهب للذهاب إلى الكنيسة، ولكنها لم تلبث أن سمعت وقع أقدام بجانب غرفتها تخالف وقع خطوات شانتيلا. ثم قرع الباب فنهضت خالتها وفتحته فرأت راهباً لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال: «إن حضرة الرئيس يدعوكما إليه».

فمضتا والراهب يسير أمامهما وفلورندا تقول في نفسها: «لم تنقض أيام شقائي بعد، أظن الرئيس غيّر عزمه على مساعدتي».

ومشى بهما الراهب في تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة إلى درجات صعدوا عليها إلى حجرة طرق الراهب بابها ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول، ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا فإذا هما في غرفة بسيطة الأثاث حسنة الترتيب، في جدرانها أصناف من صور القديسين مختلفة الأشكال والأحجام، وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصوّري رومية تمثل أهم حوادث الإنجيل مثل ولادة المسيح في بيت لحم، وتعميده في النهر، وصلبه وصعوده إلى السماء. فلما أطلت فلورندا على الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر وتأثرت لها تأثراً عظيماً لما فُطرت عليه من التقوى والورع، وقد زادتها المصائب تمسكاً بحبل الدين، فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة، فخف الرئيس لاستقبالها ودعاها إلى الجلوس فلم تتمالك قبل الجلوس من تقبيل أيقونة للمسيح المصلوب كانت قريبة منها، ثم جلست فابتدرها الرئيس قائلاً: «لم يبق بيننا حجاب

وقد اطلع كل منا على أسرار الآخر فلنبسط الكلام صريحاً. وعدتك يا فلورندا أن أستطلع لك حال أوباس، وكنت عازماً أن أتولى ذلك بنفسي ثم خطر لي أن ذهابي إلى طليطلة اليوم بعد أن تخلفت عن حفلة العيد يدعو إلى الشك، وربما آل إلى عرقلة مساعينا، فرأيت أن أؤجل ذهابي إلى رأس السنة وهو قريب، فما قولك؟!».

فخفق قلب فلورندا وعدت ذلك التأجيل فاتحة العراقيل وبدا أثر ذلك في وجهها، ولم يخف اضطرابها على الرئيس فاستأنف الكلام قائلاً: «ولكنني مرسل أحد الرهبان اليوم ليتفقد الحالة من حاشية رودريك، فإذا اطعلنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابي إلى طليلطة».

فاطمأن بال فلورندا واكتفت بانتداب الراهب وأرادت أن تبين له ما تود الاطلاع عليه من أمر الفونس فضلاً عن أوباس، وأنها تريد أن تعرف رأي رودريك في فرارها وهل هو جاد في البحث عنها، ولكن الحياء منعها من الكلام في هذا الشأن صراحة فقالت: «إذا كان الراهب الذي ستنتدبه نبيهاً وأتانا بالتفصيل اللازم كان ذلك خيراً من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شيء». فقال الرئيس: «فلنبحث فيما يطلب الاطلاع عليه».

فقالت العجوز: «لا أخفي على مولاي الرئيس المحترم أن أهم النقط التي يطلب البحث عنها إنما هي أوباس وحاله، ثم يهمنا الاطلاع على رأي رودريك في فرارنا لأننا فررنا من قصره رغم أنفه. ثم نحب الاطلاع على المكان الذي بُعث إليه الأمير الفونس». قال: «فهمت المطلوب وسأوصي الرسول به ونظنه يعود إلينا بالخبر اليقين». فنهضت فلورندا وقبّلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز، واستأذنتا في الذهاب رغبة في تفرغ سرجيوس لقضاء تلك المهمة.

فأذن لهما فانصرفتا. أما هو فإنه صفّق فجاءه الراهب الذي يتولى خدمته، فأمره أن يدعو راهباً سماه، وكان له به ثقة كبرى وكثيراً ما كان يكاشفه بما في نفسه ضد رودريك فلما جاء أوصاه بما يطلب الاطلاع عليه واستحثه أن يسرع في الرجوع.

وسافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها «الخرج» كأنه منصرف إلى المدينة على نيّة الاستبضاع مما يحتاج إليه أهل الدير من الأدوات والأمتعة. وكانت عادة ذلك الدير أن يرسل رسولاً لمثل هذا الشأن مرّتين أو ثلاثاً كل سنة، والغالب أن يكون ذلك في الصيف لأنهم يفضلون السكن في الشتاء كما يفعل سائر أهل الجبال. على أن ذلك لا يمنع شخوصهم إلى المدن في هذا الفصل.

وقضى الراهب في مهمته خمسة أيام عاد في نهايتها. وكانت فلورندا قد ملّت الانتظار وحسبت تلك الأيام أجيالاً. وكانت في أثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتيلا إلى سطح الدير تُشرف منه على الأودية والتلال لعلها تجد الرسول عائداً. واتفق صفاء الجو وإمساك المطر كل تلك المدة فكانوا إذا جلسوا على السطح أطلوا على جبال أكثرها عارٍ من النبات الأخضر، وبعض رؤوسها وكهوفها مكسو بالثلج، وكانوا يشاهدون الضباب في كل صباح يغشى الأودية يحسبه الناظر بحراً تتلاطم أمواجه، ويحسب ما يبرز في وسطه من قمم الجبال جزراً يفصل الماء بينها، فإذا حمي الجو قبل الظهر عاد الضباب بخاراً وعادت الجزر جبالاً! فكانت فلورندا تعلل نفسها في أثناء تسلط الضباب أن يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها. وكانت تستأنس بذلك الشيخ الهرم بواب الدير لأن غرفته أو برجه يستطرق إلى السطح فكان يخرج في بعض الأحيان ليجالسها ويقص عليها ما مر به من الغرائب في أثناء عمره الطويل فتستريح إلى

سماع حديثه، لأنه على شيخوخته لم يكن يكثر الكلام الذي لا يلذ السامعين ولو كانوا شباناً.

ففي أصيل اليوم الخامس رأت وهي على السطح راكباً أطل من بين أكمتين لم يكد بصرها يقع عليه حتى علمت أنه الراهب الرسول، فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة: «ها قد أتى فلنمض إلى الرئيس لنسمع حديثه». قالت: «هلم بنا إليه». وتحولتا نحو غرفة الرئيس وكان جالساً ببابها يطالع في درج باللاتينية. فلما رأى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحّب بهما فقرأ على محيّا فلورندا أمارات الدهشة والقلق، فأدرك أنها تكتم شيئاً فقال لها: «خيراً يا بُنَيّة، ما الذي حدث؟». قالت: «أرى رسولك قادماً فاستدعه لنسمع حديثه". قال: "هل أتى..؟ إني أشد قلقاً منك في انتظاره، ولا أقلب هذه الكتب إلا تعلّلاً وتشاغلاً". ونهض لساعته وأوصى خادمه أن يسرع في استقدام الرسول فهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول في أثره وهو لا يزال يعلو وجهه وثيابه غبار السفر. فلما وصل سلّم وبارك وجلس، فقال له الرئيس: «قصّ علينا ما رأيته على عجل، وابدأ بأوباس».

فقال الراهب: «أما حضرة الأسقف فإنه مسجون في حجرة على حدة». قال: «وما سبب سجنه؟». قال: «اتهموه بالتآمر على خلع الملك وحاكموه في مجمع الأساقفة». فقطع الرئيس كلامه قائلاً: «وكيف ذلك ولم نسمع بالتئام المجمع». قال: "فعلوا ذلك التماساً للسرعة، فألف الملك مجمعاً من الأساقفة كانوا في طليطلة يوم العيد».

قال: «وماذا كانت نتيجة المحاكمة؟». قال: «لا أدري ولكني سمعت أن الأسقف أبدى من البسالة والحمية في أثناء المحاكمة ما

أفحم به خصومه».

وكانت فلورندا تتطاول بعنقها لسماع أقوال الراهب وتودّ الوصول إلى خبر الفونس.

فقال الرئيس: «وهل تظن تلك التهمة في محلها؟». قال: «هل أقول كل ما سمعته؟». قال: «نعم قل». قال: «بلغني من أهل القصر الملوكي أن لمحاكمة أوباس سبباً سرياً لم يطلع عليه إلا نفر قليلون!». فقال: «وما ذلك؟». قال: «بلغني أن الأمير الفونس كان خاطباً فتاة من أهل القصر الملوكي، وإن رودريك أرادها لنفسه، فوبخه أوباس على ذلك، فغضب عليه وأراد الانتقام منه!». قال الرئيس: «وماذا تم في أمر الفونس وخطيبته؟». قال: «أما الفونس فقد أرسله الملك في مهمة حربية إلى بلد بعيد ليخلو له الجو بعده، فكان ذلك سبباً لتدخل أوباس. أما الخطيبة فقد بلغني أنها فرّت من طليطلة والناس يستغربون فرارها من القصر الذي كانت فيه والحراس من حوله. وأما الملك فقد اشتد غضبه على تلك الفتاة وعوّل على الانتقام منها حالما يظفر بها!».

ولا نظن الراهب لم يلحظ من قرائن الأحوال أن فلورندا هي الخطيبة الفارة ولكنه تجاهل مجاراة لما أراده الرئيس فقال: «أكد لي العارفون أن الملك ربط عليها الطرق وأقام الأرصاد، وبثّ العيون في كل أنحاء المملكة، ولا يكاد يمر يوم إلا ويحملون إلى قصره فتاة أو فتيات ممن يعثرن عليهن في أثناء التفتيش، فإذا وقع بصره عليهن أطلق سراحهن إذ لا يرى تلك الفتاة بينهن!».

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لأول وهلة ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير وتوفقها إلى ذلك الرئيس المحب، وعوّلت على البقاء هناك حتى يعود أجيلا من عند والدها. ولكنها

أحبت السؤال عن مقر الفونس فأومأت إلى خالتها أن تسأل عنه فقالت: «وهل عرفت المكان الذي ذهب إليه الأمير الفونس؟». قال: «لم أستطع الوقوف عليه صريحاً ولكنني سمعت أن الملك أنفذه مع فرقة من الجند إلى استجة، ولم أتحقق تماماً لأني لم أدقق في البحث عنه».

فأومأ الرئيس إلى فلورندا أن تكتفي بما تقدم ريثما يتوفق هو للذهاب إلى طليطلة والبحث عن كل ذلك. فسكتت ثم وقف الرئيس وصلى صلاة وجيزة، فلما فرغ انصرفت فلورندا وهي غارقة في لجج التأمل لما سمعته عن أوباس وسجنه، وعن تشديد رودريك في البحث عنها، فلم ترَ مندوحة عن البقاء مستترة في ذلك الدير لترى ما يأتي به القدر، معللة نفسها بالاطلاع على تفاصيل أخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة.

ولكن الطبيعة أبت إلا معاكستها فتغيّر الطقس وتوالت الأمطار وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة فمنعت الرئيس من السفر أياماً عديدة وهو قاعد على مثل الجمر، فكيف بفلورندا والجمر يتقد في قلبها وفي رأسها، خصوصاً بعد أن مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع أجيلا من مهمته إلى والدها.

وكان الرئيس يتردد إليها فيطمئنها ويعدها خيراً ويريها أبواب الفرج لثقته الكبرى بتعقل أوباس وحسن درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب. ولم تكن هي أقل إعجاباً به لأنها شبت لا تسمع اسمه إلا مشفوعاً بعبارات الإطراء والتبجيل حتى خيّل لها أنه قادر على كل شيء، ولم تصدق أن أحداً يستطيع أذيّته أو التغلب على رأيه! وكان سرجيوس يعمل فكرته في طريقة لإخراج أوباس من السجن، فإذا خرج جاء إلى الدير وأقام فيه بسلام. ولكنه لم يهتد إلى شيء، لما

بلغه من تشديد الملك في الاحتفاظ به والسهر على حراسته.

وأفاقت فلورندا ذات صباح من أواخر فبراير على هبوب العواصف وانهمار المطر وأكثره من الثلج أو البرد. واشتدت الأنواء والرعود والبروق نحو ساعتين، ثم انقطع حبل الغيث وسكنت الرياح بغتة ـ وتلك عادة هذا الشهر في البلاد المعتدلة فإن الجو ينقلب في اليوم الواحد من أيامه تقلبات شتى، بين صحو ومطر ونوء وصفاء ـ فلما كفت الأمطار أطلت فلورندا من باب الغرفة فإذا بفناء الدير قد غمرته الثلوج إلى باب غرفتها ومع ذلك أشرقت الشمس على ذلك الثلج فتكسرت أشعتها عليه وانحلّ النور في بعض الأخاديد فبدا الطيف الشمسي بألوان قوس قزح. فوقفت فلورندا وهي تتأمل ذلك المنظر الجميل، ثم ما لبثت أن رأت الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفي أيديهم المجارف والمعاول وأخذوا في جرف الثلج وحمله إلى الخارج، وبينهم الراهب الشيخ صاحب الباب، وقد استبدل بالعكاز مجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب، وكان فوق ذلك لا يزال عاري الساقين والزندين وقد اكتفى من وسائل الدفء بلف شملة من الصوف حول صدغيه وأذنيه. ورأت شانتيلا كذلك يشتغل معهم. فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح أيضاً، فلما فرغوا خرجت فلورندا وبربارة وصعدتا إلى السطح وأطلتا على الجبال على سبيل الفرجة. ولم تمض برهة حتى أثّر الزمهرير في فلورندا ولم يغنها القباء ولا الكساء، ثم تغيّر وجه السماء بغتة وتكاثفت الغيوم وأوشكت السماء أن تُمطر فهمّت فلورندا بالرجوع فرأت الشيخ الراهب في باب حجرته على السطح وهو يشير إليها أن تأتي إليه، فتحولت وتبعتها خالتها حتى أقبلتا على الغرفة وإذا هناك نار في إناء يشبه الموقدة في بعض جوانب الحجرة. فلما دخلت

أحسّت بالدفء وشعرت بلذة غريبة. فقال لها الراهب اجلسي يا بُنيّة وتدفئي فإن البرد شديد جداً اليوم. فجلست وخالتها إلى جانبها، واتفق جلوسهما بجانب النافذة، فأخذ الراهب يقص على ضيفتيه أحاديث شبابه وكهولته على سبيل التسلية، والخالة العجوز تشاركه في تحقيق بعض النقط وإن كانت هي أصغر منه سناً.

وكانت فلورندا في أثناء ذلك تنظر من تلك النافذة إلى ضواحي الدير، فإذا هناك دابة تمشي صاعدة نحو الدير وعليها راكب، فأمعنت النظر فيه وصاحت قائلة: «أجيلا، أجيلا!» فلما سمع الراهب قولها نظر إلى القادم ولم يكن يعرفه فقال: «ومَن هذا يا بُنَيّة؟!».

قالت: «هو رسول أرسلناه في مهمة وقد عاد إلينا، فهل تسرع في فتح الباب له حتى لا يضر به البرد؟».

فقال: «سمعاً وطاعة!» وتناول عكازه وتحول نازلاً وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتتحققا أمره فإذا هو أجيلا بعينه على جواد. ولما دنا من الدير وقف الجواد وأجيلا ينظر إلى الدير ويضحك ضحكاً شديداً. فلما رأته فلورندا يضحك استبشرت وانبسطت نفسها ولم تتمالك أن نادته قائلة: «أجيلا» فلم تسمع منه جواباً، فظنت هبوب الريح أضاع صوتها قبل وصوله إليه، ثم رأت الراهب الشيخ قد خرج من الدير، حتى إذا أقبل عليه شهر عكازه وأخذ في ضربه ضرباً عنيفاً وأجيلا لا يتحرك، والراهب يزداد عنفاً بالضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الآخرين، فخرج إثنان منهم وفي يد كل منهما عصا غليظة فأمسك أحدهما بزمام الفرس وعمل الآخر على ضرب الراكب حيثما اتفق وهو ساكت، فاستغربت فلورندا ذلك وتولتها الدهشة لما رأته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو إليه، فجعلت تصيح بالرهبان تستمهلهم وتستفهم عن

سبب اعتدائهم وهم لا يبالون بكلامها، فغضبت وتحولت من تلك الغرفة تريد غرفة الرئيس لتشكو إليه قسوة رهبانه، وسارت الخالة في أثرها حتى إذا نزلتا إلى باحة الدير قالت فلورندا لخالتها: «اذهبي أنتِ إلى الرئيس وأنا أخرج لمخاطبة أولئك الرهبان». ثم نادت شانتيلا فلم تسمع جواباً فأسرعت إلى باب الدير حتى خرجت منه فرأت شانتيلا عاملاً مع الرهبان على ضرب أخيه أيضاً وقد أنزلوه عن الفرس وأمسك أحدهم برجليه وآخر بيديه وأخذ الباقون يضربونه على القدمين والكتفين ضرباً موجعاً، فازدادت فلورندا دهشة واستغراباً وصاحت: «شانتيلا، ما هذا العمل؟». ولكنه لم يرد عليها، وبعد هنيهة رأهم هموا بأجيلا فحملوه وأسرعوا به إلى الدير لا يبدي حراكاً فظنته مات من شدة الضرب. فكادت تبكي لغيظها وأسفها. ولكن الاستغراب ظل غالباً عليها فلما دخلوا به سارت هي في أثرهم فصعدوا إلى غرفة صاحب الباب فتعقبتهم وهي لا تُجسِر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب، ولكنها كانت تتلفت يميناً وشمالاً لعلها تجد الرئيس قادماً لتستنجده أو تستفهمه، وإذا به مسرع على السطح من جهة أخرى والعجوز في أثره وهي تشير إلى فلورندا أن تطمئن.

فأسرعت فلورندا إلى الرئيس وسألته عن سبب ذلك فقال: «لا تجزعي، فإنهم إنما يفعلون ذلك لحفظ حياته!».

قالت: «كيف يحفظون حياته وقد أماتوه من الضرب؟».

فضحك الرئيس وقال: «يظهر أنك لم تسمعي (بالدنق)!».

قالت: «وما الدنق يا مولاي؟».

قال: «هو الموت من البرد الشديد. فالظاهر أن رسولك هذا أوشك أن يدنق من البرد، فعمدوا إلى ضربه ليتحرك دمه وتعود إليه

الحرارة فلا يموت».

قالت: «لم يكن يشكو من برد مطلقاً بل رأيته يضحك سروراً».

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال: «إن الضحك في البرد من علامات الدنق!». قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول: «اسقوه قليلاً من الخمر وادنوه من النار».

فأسرع الراهب صاحب الباب إلى إبريق في بعض أركان الحجرة صبّ منه في كأس ودنا من الرجل، وتقدمت فلورندا نحوه أيضاً وتفرست في وجهه فرأته قد فتح عينيه ولكنه لا يزال منحلّ القوى، فتحققت ما قاله الرئيس وشكرت الله على نجاته.

قضوا ساعة في معالجة أجيلا بالدفء وشرب المنبهات حتى صحا وعاد إلى رشده، فاستأذنت فلورندا في نقله معها إلى دار الأضياف فأذن لها، فنزلت به ومعها شانتيلا والخالة. فلما استقروا في الغرفة سألته عن سبب غيابه فأخبرها أنه قاسى في أثناء رجوعه عذاباً أليماً من مقاومة الطبيعة وأرصاد رودريك حتى اضطر أن ينام في النهار ويسافر بالليل خوفاً من أن يقع كتاب يوليان في أيديهم، وهذا هو السبب في وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت.

ثم سألته عن والدها فقصّ عليها ما كان من وصوله إليه وما أصابه من الغيظ واليأس لما قرأ كتابها إلى أن قال: «وقد صمم على الانتقام من رودريك انتقاماً لم يسبق له مثيل في تاريخ الإسبان».

ثم أخبرها عن اتفاق والدها مع جند العرب على المسير معهم إلى إسبانيا ليكون عوناً لهم على فتحها كلها، ومد يده إلى جيبه واستخرج أنبوباً مختوماً سلّمه إليها ففضته فرأت فيه لفافة من القباطي، وهو نسيج مصري قديم، ففتحها فإذا هي كتاب من والدها

إليها، فحالما رأت خط يده خفق قلبها وتذكرت حنوه فدمعت عيناها، ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب إلا بعد أن سكن جأشها ومسحت دموعها ثم تناولت الكتاب وقرأته فإذا فيه:

«من الكونت يوليان إلى ابنته الحبيبة فلورندا. باسم الأب والابن والروح القدس. قرأت كتابك أيتها العزيزة فسبقتني الدموع إلى تفهمه، لما هاجه لي من المصائب الكامنة. وقد ساءني ما اقترفه ذلك الوحش الكاسر من الإساءة إلى الدين وإلى الفضيلة وإلى يوليان. أما الأولان فالله كفيل بالقصاص لهما. وأما ما أراده من مسّ عرضي فأنا أتولى الانتقام له بنفسي. وابشِري فإنني حامل عليه وعلى بلاده بجند من العرب لا شك أن الله ناصرهم على ذلك الخائن، لما نعلمه من غضب الإسبان والقوط عليه. وأن العمل الذي أشرت إليه في كتابك يكفي وحده لغضب السموات والأرض على ذلك الدخيل في القوطية. ولا أطيل الشرح لأن ناقل هذا الكتاب يوضح ما يشكل عليك، وإنما كتبت هذه الأسطر تثبيتاً لأقواله ولكي أبشرك بالفرج القريب. وسوف ترين رودريك الخائن قتيلاً مضرجاً، أو أسيراً مكبّلاً، فامكثي حيث تستأمنين حتى آتي إليك. وإذا أعوزك الوصول إليَّ فأنا مع كبير جند العرب حيثما يكون، والسلام...

كُتب في سبتة»

فلما وصلت إلى آخره لم تتمالك أن نهضت تريد الرئيس وكان قد ذهب إلى غرفته فسارت وحدها وهي لا تفقه ما تمر به لفرط تأثرها من ذلك الخبر المفاجيء وقلبها يرقص طرباً لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام، والانتقام من أقوى ملذات الإنسان، فلما أقبلت على الرئيس أنكرَ ما يبدو في محياها من آثار البغتة مع شيء من الخفة فوقف لها فدخلت فحيّته وقالت: «جئتك بأمر ذي بال وفيه القضاء

المبرم على رودريك!».

فانذهل لتلك المباغتة وقال: «وما ذلك؟». قالت: «إن الشاب الذي وصل في هذا الصباح وكاد يموت من البرد إنما هو رسول كنت بعثت به إلى والدي في سبتة وبعثت معه كتاباً مختصراً شكوت فيه ما أصابني من رودريك، فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب». ومدت يدها، واستخرجت الكتاب ودفعته إلى الرئيس، فتناوله وقرأه وهو لا يصدق أنه في اليقظة، وأعاد قراءته ثانية وثالثة وفلورندا صامتة تتوقع ما يبدو منه. فلما تفهمه جيداً رفع بصره إليها وقال: «إن والدك سيعمل عملاً يغيّر به وجه هذه الجزيرة، سيعمل عملاً يقضي به على هذه الدولة. وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين، نعوذ بالله من غضب الله!». وصمت برهة ثم قال: «وهل نقل الرسول إليك شيئاً من التفاصيل؟».

قالت: «أخبرني ببعض الشيء ولم أستطع صبراً على نقل هذا الخبر إليك، فإذا أذنت بعثنا إلى أجيلا يقصّ علينا ما شاهده بعينيه». قال: «أحب سماع ذلك» ثم صفق فجاء خادمه فقال: «إلَيَّ بالرجل الذي جاءنا هذا الصباح وهو في دار الأضياف».

فمضى الرجل وعاد بأجيلا فانحنى هذا أمام الرئيس وقبّل يده ثم جلس متأدباً فجعل الرئيس يسأله عما شاهده بعينه، فقصّ عليه ما عاينه من شجاعة العرب واتحاد كلمتهم، وصبرهم في الحرب، ومواظبتهم على الصلاة، وطاعتهم لرؤسائهم، إلى أن قال: «وزد على ذلك أن مولاي الكونت يوليان عون لهم في إرشادهم إلى المسالك علاوة على ما سيلقونه من مساعدة اليهود المتسترين بأثواب النصرانية، وهؤلاء لا يدخرون وسعاً في نصرة أي داخل كان، لأنهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل».

فلما سمع الرئيس ذلك هزّ رأسه وقال في نفسه: «قد انقضت دولة هذا الباغي، وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها!». ثم التفت إلى فلورندا وقال: «فإذا ذهبت الآن إلى أوباس أخبرته بهذا الخبر الجديد، وأطلعته على هذا الكتاب، ولا أظن أهل البلاط قد علموا به بعد. ثم نحتال في إخراجه من سجنه ونأتي به إلى هذا الدير يقيم فيه معنا. وطالما كان أبوك مع العرب فنحن في مأمن منهم إذا هم غَلَبوا. وإذا غُلِبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لأننا لم نتعرض لحربه».

فتضاعف سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام أوباس إليه. وبعد بضعة أيام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق، فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه في ركابه إلى طليطلة.

— ٩ —

أما رودريك فقد جاءه كتاب من صاحب بوتيكة ينبئه بنزول العرب بلاده فأطلع الأب مَرْتين عليه قبل عرضه على رجال دولته، فأوهمه الأب المذكور أن العرب إنما يريدون الغزو لا الفتح، فإذا أصابوا غنيمة عادوا على أعقابهم، وإنهم لا يجسرون على مناوأة ملك القوط، وكثيراً ما كان العرب يسطون على ما يلي مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع في أيديهم من ماشية أو نحوها، فارتاح رودريك لذلك الرأي لقربه من المعقول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب. ثم جاء من طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم وإبلهم وقد ملكوا الجبل «جبل طارق» ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح، وأخبروا قائد الجند العام بذلك.

وكان قائد جند رودريك رجلاً باسلاً دموي المزاج حاده، اسمه

الكونت كوميس له عند رودريك وجاهة وسطوة، وكان قد لحظ فيه ميلاً إلى فلورندا فنصح له أن يتركها، فلم يكترث بقوله، فتركه وشأنه وفي نفسه شيء عليه. فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة أوباس نصح له سراً أن يعدل عن محاكمة هذا الرجل لئلا يفضحه. وكان من جملة نصائحه له ألا يصغي كبير إصغاء إلى مَرْتين وغيره من جماعة الأكليروس. فلما جاءه الخبر بنزول العرب إسبانيا ومعهم يوليان زاده ذلك جرأة على رودريك واستخفافاً به، واستغرب كتمانه نزول العرب عنه، وكان يستبعد ألا يكون عالماً بنزولهم. فذهب إليه ذات صباح وهو في مجلس حضره كبار الموظفين. وكان صاحب مناصب الدولة الكبرى عند القوط لا يزيدون على عشرة، منهم: ناظر الأراضي الملوكية واسمه «كونت الوطن» ورئيس الاصطبلات ويسمى «كونت الاصطبل» وكاتب سر المملكة واسمه «كونت السجلات» ورئيس القضاة وهو «كونت النعم» وقائد الجند، وصاحب الخزانة، وقيّم القصر الملوكي. ومن أصحاب رتبة الكونتية عندهم رئيس السقاة ونحوه ممن يخدمون الملك.

كان مجلس الملك حافلاً بهؤلاء والأب مَرْتين بجانبه، فدخل الكونت كوميس وسلم كالعادة وأمارات الغضب بادية في وجهه، وبعد أن استقر به الجلوس سأل الملك إذا كان قد بلغه شيء من أخبار بوتيكة. فقال الملك: «لا أدري.. وهل سمعت شيئاً مهماً؟». قال بصوت خشن: «سألت جلالة الملك هل جاءه خبر مهم من تلك المقاطعة؟».

فغضب رودريك لهذه المراجعة بما فيها من الجسارة والقحة فقال: «ما معنى هذه المراجعة بعد ما سمعته من جوابي؟». واعتدل وتصدر وجعل يلاعب شعر رأسه المرسل على كتفيه، وقد بدا

الغضب في عينيه وأصبح سائر الكونتية ينظر بعضهم إلى بعض وإلى كوميس ورودريك ويتساءلون عن سبب هذه الجسارة.

أما كوميس فلما رأى الحضور ينتظرون ما يقوله وقد شخصت أبصارهم نحوه بعدما أبداه رودريك من الجفاء عظم الأمر عليه، وقواد الجند من أعظم الناس أنفة وشدة خصوصاً في ذلك العصر الذي كانت الكلمة النافذة فيه لصاحب الجند القوي، وكان كوميس فوق كل ذلك قد غلب على رأي الملك لما علمه من تهوره في مسألة فلورندا وأوباس، فلما سمع كلامه بتلك اللهجة الشديدة قال: «أظن جلالة الملك لا يجهل معنى سؤالي ولو تجاهله! . معنى سؤالي أيها الملك أنه حدث في المملكة ما يدعو إلى اطلاعنا عليه وقد كتمته. وهو من الأهمية بحيث يجعل المملكة في خطر!».

فضجّ الحاضرون ومالوا إلى الاطلاع على جلية الخبر، فلم يكن من الأب مَرْتين إلا أنه وقف بهيئته المعهودة وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه إلى كوميس قائلاً وهو يتكلف التأني ويظهر الاستخفاف: «أظنك تعني ما جاء من أمر أولئك العربان الذين نزلوا سواحل بوتيكة! فهؤلاء إنما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون أن يرجعوا إلى بلادهم. ولو كان هذا الخبر مهمّاً لعرضه جلالته على مجلس الأساقفة».

وكان كوميس يحتقر الأب مَرْتين ولا يعبأ بأقواله فوجه جوابه إلى الملك وقال: «أما الاستخفاف بأولئك العربان فمن الخطأ الفادح، خصوصاً إذا عرف جلالته أنهم قادمون ورائدهم الكونت يوليان صاحب سبتة، وأما اطلاع المجمع المقدس على أمثال هذه الأخبار قبلنا فللملك الرأي فيه. ولكنني أظن قائد الجند أَوْلى بالاطلاع على ذلك من سواه لأن عليه حماية المملكة، وأما السادة الأساقفة فما

عليهم إلا الصوم والصلاة!». وكان يتكلم والتهكم ظاهر في كل عباراته، فلم يشأ أحد من الحضور الدخول في هذا البحث لدقته، وفيهم مَن أدرك إشارة كوميس إلى يوليان صاحب سبتة وما وراء ذلك من التعريض والتلميح ولكنهم ظلوا ساكتين.

أما الملك فاشتد غضبه وأحسّ بما رماه به كوميس من السهام الحادة، وأدرك خطورة المركز الذي وصل إليه وأنه في حاجة إلى قائد الجند أكثر منه إلى سائر رجال الدولة، ولكن عظم عليه الإغضاء بعد مبادأته بالجفاء فقال له: «لم يكن يليق بك يا حضرة الكونت أن تخاطبني بمثل هذا الكلام، بل كان الأوْلى بك أن تأتيني من طريق آخر».

قال: «إن الملك لم يترك لنا سبيلاً نأتيه منه، وقد جعل هذا القسيس لسان حاله والمتكلم عنه، والكل يعلمون أن هذا وأمثاله لا يصلحون لغير العبادة، وقد جعلهم الملك شركاءه في مهام المملكة، ولو أخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال إلى هذا الحد».

ولا يُخفى أن مثل هذا التصريح في ذلك العصر خصوصاً في طليطلة كان يُعد ضرباً من الكفر لما علمناه من سطوة الأكليروس هناك، ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد لم يصرح بما صرح به. ففتح بهذه الجسارة باباً لاستقواء رودريك عليه فاستعلى بحجته وحول وجهه الكلام إلى الدفاع عن الأساقفة، وقد أراد بذلك أن يغطي خطأه فقال: «ألم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الأساقفة. إن ذلك خارج عن حدود منصبك».

وكان الأب مَرْتين يرتعد من شدة الغضب فلما رأى الملك لا يزال على ثباته تعرض وخاطب كوميس قائلاً: «ولا أظنك تجهل يا حضرة الكونت أن كلمة من جلالة الملك أو من أحد الأساقفة تكفي

لتجريدك من هذا المنصب!».

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه فكيف من ذلك القسيس فوقف ويده على قبضة سيفه وقال: «لقد خسرتم بهذا الكلام وهذه المعاملة سيف كوميس، وأنتم في أشد الحاجة إليه». وخرج وقد أخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً!

أما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعة ولم يكن يريد أن يغضبه في هذا المقام، ولذلك ساءته عبارة مَرْتين أكثر مما ساءت كوميس. ولم يجسر أحد من الحضور على التوسط في الأمر لئلا يتعاظم الخصام وقد وقع ما تخوفوه. ثم وقف الملك فعلموا أنه يريد فضّ الجلسة فخرجوا إلا مَرْتين. فلما انفردا التفت الملك إليه وقال: «أهكذا أغضبت قائدنا وصاحب جندنا، ونحن في أشد الحاجة إليه؟». قال: «أتلومني أيها الملك على انتهاره بعد أن أهانك وأهان السادة الأساقفة جميعاً؟ إن الصبر على ذلك ذل لا يُطاق!».

قال الملك: «أنت تعلم أن كوميس أعظم قوادنا، ولم نكن في وقت من الأوقات أشد حاجة إليه مما نحن الآن، والعدو ببابنا وولاتنا يدلونه على عوراتنا، سامحك الله على هذا الخطأ، ألا يكفي ارتكابنا الخطأ الأول بإخفاء تلك الأخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى ارتكبت خطأ آخر شراً منه؟».

فاستاء الأب مَرْتين من هذا التعريض وقال: «كأنك تقول لي أني أنا سبب ذلك الخطأ! فإذا كنت أشرت عليك مشورة فاسدة كان الأَوْلى ألا تقبلها». قال ذلك ومشى وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره، والأخرى يمسح بها ما تناثر من ريقه على شفتيه ولحيته، فشق ذلك على الملك وعدها إهانة أخرى وقال: «أتكون مخطئاً وتضيع منا أحسن قوادنا، ثم تنقم علينا وتستخف بأقوالنا ويكون الذنب مع

ذلك ذنبنا؟!».

فأجابه مَرْتين وهو يهز رأسه ويمشي ولا يلتفت إليه: «صدقت أيها الملك، إن الذنب ذنبي والخطأ كله خطئي، وكل هذه الشرور من نتائج أعمالي، لأني لو لم أسىء إلى بنت صاحب سبتة لم يكن والدها عوناً للعرب على فتح بلادي!». ثم وقف بغتة وحول وجهه إليه وقد اشتد غيظه وارتعدت أطرافه وزاد لسانه لعثمة وتمتمة وقال: «تخطىء يا رودريك ثم تلصق الخطأ بشيبتي؟ ثم إذا أهين الأساقفة لا يهمك الدفاع عنهم وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك! ألم يكونوا هم الذين دافعوا عنك بالأمس وسط المجمع واتهموا رجلاً بريئاً بتهمة لا أصل لها؟ ثم تقول إني كنت سبباً في خسارة ذلك القائد، وأنت إنما خسرته بسوء تدبيرك وانهماكك فيما لا ينفعك. وبسوء تدبيرك خسرت أيضاً الأب مَرْتين الذي لم يكن ينبغي أن تنسى تعبه في مصلحتك ودفاعه عنك!». قال ذلك والتف بردائه وخرج من القصر، فلما خلا رودريك بنفسه، وتصور عظم الخطر المحدق به جلس على كرسيه وألقى رأسه على كفيه، وراجع ما مرّ به من الحوادث في الأشهر الأخيرة، وتذكر فلورندا ووالدها فتحقق لديه أن يوليان إنما انحاز إلى العرب غضباً لها، فاشتد حنقه وتراكمت عليه الهواجس، وعظم عليه الأمر خصوصاً بعد أن فقد قائده وأساء إلى قسيسه.

واتفق وصول الرئيس سرجيوس في اليوم الثاني من هذا الخصام، فنزل في الكنيسة الكبرى على عادة الأساقفة ورؤساء الأديار إذا جاؤوا طليطلة. فعجب لوجود الأب مَرْتين بها وعهده به في قصر الملك. فسلما وتخاطبا ملياً في شؤون مختلفة والرئيس يستطلع ما في نفس مَرْتين. وكان الأب مَرْتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثر،

متسرعاً فيما يخطر له كما تبين لك من وصف أخلاقه، فلم يخف على سرجيوس شيئاً مما وقع بالأمس له وللكونت كوميس. وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الإيقاع برودريك والتنديد بفساد رأيه كأنه من ألد أعدائه، وهو انقلاب غريب لا يحدث إلا في أصحاب المزاج العصبي أو الدموي الحاد.

أما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لا يتوقع سبيلاً إلى مقابلة أوباس أو إنقاذه، فلما لقيَ مَرْتين هانَ عليه ذلك فذكر أوباس بين يديه وزعم أنه سمع بسجنه. فلما سمع مَرْتين اسم أوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وأنه سجن ظلماً أو على الأقل أسيء إليه بتهمة لم تثبت عليه. ونظراً إلى غضبه على رودريك رأى في انتصاره لأوباس ما يشفي بعض غليله انتقاماً من ذلك الملك، فقال لسرجيوس: «إن أخانا أوباس سُجن لتهمة اتهمه بها رودريك وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة، فأجلت المحاكمة وسُجن إلى أجل غير مسمى ريثما تُعاد محاكمته، ولكن يظهر أن الملك لن يطلب العودة إليها».

فقال سرجيوس: «وهل تظن أنه يبرأ إذا استأنفوا محاكمته؟». قال: «لا ريب عندي في ذلك». قال: «ولماذا لم يطلب الاستئناف؟». فابتسم مَرْتين وهز رأسه وهو يقول: «وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه في غرفة لا يرى فيها أحداً، لأن رودريك منع الناس من الدخول؟».

فقال: «وهل من سبيل إلى رؤيته بغير إذن الملك؟». فقال مَرْتين وهو يبتسم: «إن ذلك هيّن عليّ. فهل ترى أن نحرض أخانا المذكور على طلب الرجوع إلى المحاكمة؟».

قال ذلك لا رغبة في نصرة أوباس ولكنه كان يتوقع ألا تغيب الشمس قبل أن يبعث إليه رودريك ليسترضيه، فلما أصبح الصباح

ولم يأته من قبله أحد اشتد حنقه، فلما خاطبه سرجيوس في شأن أوباس أراد أن يستنهضه لاستئناف محاكمته لاعتقاده أن رودريك يخاف ذلك الطلب، خصوصاً بعد ما ظهر من غضب يوليان وكوميس، فلا يرى له مندوحة عن استرضائه لملافاة الأمر.

أما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال: «إذا أدخلتني إليه نبهت ذهنه إلى ذلك». فنهض مَرْتين للحال وأتى بدواة وقلم وكتب رقعة إلى الضابط الموكل بحراسة أوباس أن يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته. فأخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق أنه قبض عليها وسار مسرعاً إلى أوباس.

وأما أوباس فكان ما يزال في سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم، وهو يتلقى ذلك بصدر رحب ويغالب المصائب بالصبر، ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما في ذهنه من الموضوعات التي لا يستطاع التأمل فيها إلا باعتزال الناس. وكان إذا فكر فيما سجن من أجله أشفق على رودريك وأمثاله لما هم فيه من الغرور، ولما يرتكبونه من السيئات المهلكة التماساً للذة وقتية أو سعياً وراء وهم زائل. فكانت هذه التأملات وأمثالها في غرائب مجريات الطبيعة تستغرق منه الساعات والأيام، وهو سابح في عالم الفلسفة يحسب نفسه في نعيم وسائر الناس في شقاء، لولا ما كان يعترض تأملاته من أمر فلورندا وألفونس، وإن كان قد وكل أمرهما إلى الله إذ لا حيلة له في مساعدتهما أو في معرفة السبيل إليهما.

فلما كان اليوم الذي جاءه فيه سرجيوس دخل عليه حارسه وقال له إن رئيس دير الجبل يريد مقابلته. فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفوق البغتة لطول عهده بالاعتزال، وأذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الإذن في الدخول عليه. وكان

سرجيوس يتوقع أن يرى تغييراً في سحنة أوباس بعد ما سمعه من طول سجنه. فلما دخل عليه رآه مقبلاً لاستقباله بثوبه الكهنوتي - لأنه لم يبدله منذ أقام هناك إلا قلنسوته فلم يكن يلبسها - فمشى إلى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه وقد زاده مقامه في تلك الخلوة هيبة وجلالاً.

فلما تلاقت الأبصار أسرع سرجيوس وأكبّ على يد أوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك وعانقه وضمه إليه، ثم تصافحا وسرجيوس لا يستطيع إمساك دمعه، وأوباس ينظر إليه ويده على كتفيه لطول قامته بالنسبة إليه. ثم دعاه للجلوس فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس يتأهب للكلام فسبقه أوباس قائلاً: «أهلاً بصديقي وأخي سرجيوس.. من أين أنتَ آت الآن، ولماذا؟».

قال: «أتيتُ من دير الجبل ولا غرض لي إلا رؤية الأسقف أوباس فأحمَدُ الله على سلامته. ولا بأس مما قاساه من البلاء، فإن الله يجرب خائفيه».

قال: «أنت من أهل العلم والحكمة وتحسب اعتقالي في هذه الغرفة بلاء؟ أليس الناس جميعاً محبوسين على هذه الأرض، وآجالهم قصيرة، وقواهم محصورة، وأعمالهم لا تملأ أفئدتهم؟ وهل من فرج إلا في العالم الباقي لمن أحسنَ عملاً؟ وأما أهل الظلم فإنهم يشقون في الدنيا والآخرة. فلا تشفق على سجين بريء الساحة نقي السريرة، فإن سجنه وإن طال قصير، ولكن ابْكِ أناساً منحهم الله السلطة على أخوانهم من بني الإنسان ليحكموا بينهم بالعدل، ويكونوا عوناً لهم على دنياهم، فظلموا وأساؤوا إليهم، وأهرقوا دماء الألوف منهم في سبيل لقمة يلتقمونها أو لذة ينغمسون فيها، ولكنهم إنما يظلمون أنفسهم ولا يعلمون!». قال ذلك بصوت هادىء لا يتخلله اضطراب

ولا حدة ولا شيء من عواقب الانفعال النفساني، فزاد إعجاب سرجيوس بما سمعه من الحكمة والموعظة. على أنه أراد أن يؤدي المهمة التي جاء من أجلها فقال: «لقد صدق مولاي، ولكن الله كثيراً ما يعاقب الظالمين ويثيب المحسنين في هذه الدنيا ليكونوا عبرة لسواهم. وقد أتيتك الآن بأخبار جديدة لا ريب أنك مشتاق للاطلاع عليها. ألا تريد الاطلاع على ما كان من أمر فلورندا بعد فرارها من بين يدي رودريك؟».

فلما سمع أوباس ذلك تحركت فيه عاطفة الحنان، وبدا الاهتمام في وجهه، ونسِيَ ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة ـ والإنسان مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث إذا تحركت فيه عاطفة الحب أن يهتم بالحياة وأهلها ـ فقال: «وهل تعلم شيئاً عنها، وأين هي؟».

قال: «هي في دير الجبل». ثم قصّ عليه ما علمه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك في طليطلة حتى أتت الدير إلى أن قال: «وهي مقيمة عندنا في أمان وسكينة. ولكنها في قلق شديد عليك وعلى الفونس لأنها لا تعرف مقره. ولو عرفته لا تستطيع الذهاب إليه، لما أقامه رودريك في سبيلها من العيون والأرصاد».

فاطمأن بال أوباس على فلورندا ولكن ساءه تضييق رودريك عليها فقال: «ألا يزال هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة ويضيّق عليها؟».

فابتسم سرجيوس وقال: «ولكنه لا يلبث أن يقع هو في الضيق ويفرج عن الناس كافة، خصوصاً أنت». ورأى أوباس في عيني سرجيوس ما يدل على أمور مهمة يريد التصريح بها فأبدى الاهتمام وقال: «وكيف ذلك؟».

فمدّ سرجيوس يده إلى جيبه واستخرج كتاب يوليان وهو لا

يزال في أنبوبته وقال: «لما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لسيادتكم لم يسعها إلا أن تكتب إلى أبيها كتاباً تشكو فيه ما حل بها من الشقاء في قصر رودريك وما أراده منها. وبعثت بالكتاب مع أجيلا فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه، وإليك هو». ودفع الأنبوبة إليه، فتناولها أوباس واستخرج منها الكتاب ملفوفاً وفضه وقرأه وأعاد قراءته وسرجيوس ينظر إلى ما يبدو من آثار ذلك في سحنته فلم يرَ تغييراً يُذكر، فلم يستغرب ذلك لأنه من جملة أدلة رباطة الجأش وسعة الصدر. ولكنه توقع أن يسمع ما يدله على ذلك الأثر فإذا هو يقول: «هل زادكم أجيلا إيضاحاً؟».

قال: «نعم. إنه رأى جند العرب ينزلون شواطىء إسبانيا ويوليان معهم يدلهم على عورات البلاد».

قال: «وهل علم رودريك بذلك؟». قال: «نعم جاءته الأخبار منذ أيام فلم يعبأ بها ولا اطلع أهل مجلسه عليها، فآل ذلك إلى زيادة الخرق اتساعاً وبات رودريك في أشد الضيق وأصبح خروج الملك من يده أمراً محتوماً».

فقال أوباس: «وما سبب هذا الانقلاب؟». قال: «لأن الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول العرب شواطىء إسبانيا من أناس أتوا طليطلة من هناك، وتحقق أن رودريك أخفى ذلك الخبر عنه فعاتبه في مجلس حضره كبار الموظفين، فآلت المعاتبة إلى المنافرة، فخرج كوميس من الجلسة غاضباً من رودريك ومن قسيسه مَرْتين. وبعد انفضاض المجلس عاتب رودريك قسيسه، فخرج هذا وأقام في الكنيسة الكبرى حيث لقيته وفهمت منه أنه ناقم على رودريك، وساعدني من أجل ذلك في الوصول إليك برقعة كتبها إلى الحارس. ويرى الأب مَرْتين أنك لو طلبت استئناف النظر في قضيتك لا ريب

في خروجك بريئاً. وفي كل حال فإن الله ردّ كيد الظالمين إلى نحورهم. وهذا رودريك قد هجره قائد جنده وأخص أخصائه وبات هزءاً بين الناس، ألا ترى ذلك من تدبير العزيز الحكيم؟».

وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس في وجه أوباس ليتبين ما يبدو فيه، وأوباس مطرق يمشط لحيته بأنامله وهو مستغرق في الأفكار وقد قطب حاجبيه وبانَ الاهتمام في عينيه. فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع أوباس بصره إليه وهو لا يزال مستغرقاً في الأفكار وجعل يحدق ببصره في وجه سرجيوس كأنه يستطلع ضميره. فلم يستطع سرجيوس احتمال أشعة تَيْنك العينين أو الصبر على التحديق فيهما وهما كأنهما منفذ للسيال الكهربائي المتولد في الدماغ من إمعان الفكر، فكلما زاد الدماغ عملاً زاد ذلك السيال غزارة. وظل كلاهما صامتاً بضع دقائق، ثم تكلم أوباس قائلاً: «أتستحسن الانتقام من رودريك في هذه الفرصة؟». فقال سرجيوس: «وهل تتوقع فرصة أثمن منها وهو الآن متضعضع الأحوال، أعداؤه يهددونه وأصدقاؤه يتوعدونه؟».

فنهض أوباس وجعل يخطر في أرض الغرفة ذهاباً وإياباً وأنامله في لحيته يمشطها، وشعر رأسه يجلل كتفيه، وقد زاده السكوت وقاراً وهيبة، فنهض هذا وأصغى استعداداً لما سيقوله، فإذا هو يقول: «أمن المروءة يا سرجيوس أن نغتنم ضعف عدونا ونحمل عليه وهو في أشد الضنك؟ وهل من الحكمة والتعقل أن نساعد الغريب على القريب؟ إن رودريك مهما قيل فيه فهو منا ونحن منه، نشرب من ماء واحد ونقرأ في كتاب واحد، ونتكلم لساناً واحداً ونصلي صلاة واحدة، ونتناول القربان المقدس من كأس واحد، نجتمع في كنيسة واحدة، فكيف نغتنم ساعة ضعفه، ونعين عليه أناساً لا نحن منهم

ولا هم منا، ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا؟ زد على ذلك أن الانتقام من رودريك في هذه الفرصة يجر البلاء على كل بلاد الإسبان إذ نخرجها من حضن دولة ربتها وعاشرتها، إلى دولة جديدة لا نعرف شيئاً عنها. ولا ندري ما يصير إليه أمر هذه البلاد إذا فتحها العرب. ألم يسفك أجدادنا دماءهم في فتح هذه الجزيرة واستثمارها، فكيف نسلّم بذهابها هدراً؟! . أما ما في أنفسنا من إنكار حق رودريك في الملك فإنما هو من قبيل ما يحدث من التنازع بين الأخ وأخيه أو الأب وابنه، فلا يجوز أن يستعين أحدنا على الآخر بأمة غريبة جنساً ومذهباً ووطناً. وأما ما ارتكبه رودريك من الشطط في إساءتي فيكفيه من ضميره ما يعذبه، والله يتولى أمره. فنحن يا سرجيوس في موقف يقتضي أن ننبذ فيه الضغائن، ونتحد على العدو المهاجم رغبة في سلامة المملكة، ويجب أن نغضي عما أساء به أحدنا إلى الآخر. وها أنذا أبدأ بنفسي فأذهب إلى رودريك وأستحثه على الاتحاد في سبيل الوطن». قال ذلك ومشى إلى رفّ كانت قلنسوته عليه فوضعها على رأسه، وهَمّ بالخروج وقد ظهر التأثر في وجهه، ونَسِيَ أنه في سجن ولا سبيل إلى خروجه إلا بإذن الملك.

وكان سرجيوس في أثناء ذلك الخطاب يتصاغر في عيني نفسه، فما أتى أوباس على آخر أقواله حتى رأى سرجيوس نفسه أمامه كأحقر الناس، وأن أوباس من طينة أرقى من طينة البشر، ولم يتمالك أن أكب عليه فضمه إلى صدره وقبّل لحيته وعارضيه وقال له: «بورك فيك. ما أنت بشر، إنما أنت ملك كريم! لقد حقرّتني في عيني وجعلتني مرذولاً عند نفسي. فأنا تابع لك فيما تصنعه عامل بما تأمر به».

وكان أوباس في أثناء ذلك يلبس قلنسوته ويصلح شعره تحتها،

ثم مشى نحو الباب وما أدركه حتى أدرك أنه لا يستطيع الخروج بغير إذن الملك، فتراجع وقد خجل لغياب ذلك عن ذهنه وتناول لوحاً من ألواح الكتابة (مكسواً بالشمع) فكتب عليه ما يأتي:

«من أوباس الأسقف إلى رودريك ملك طليطلة

«أكتب إليك من سجني لا لرحمة أرجوها ولا لنكبة أخافها، ولكنني علمت بمصيبة تهدد المملكة فأردت أن أكون شريكاً في دفعها، وأن أضع رأسي بين رؤوس جنودها، ولي كلام أحب أن ألقيه على مسامعك، فمر بحملي إليك، والسلام».

وخرج فدفع الكتاب إلى الحارس وأمره أن يوصله إلى الملك وعاد إلى مجلسه فحمل الضابط الكتاب وسار.

وكان رودريك قد أصبح في ذلك اليوم محتاراً في أمره بعد أن هجره قائد جنده فلا هو يتنازل لاسترضائه، ولا ذاك يعود إليه من تلقاء نفسه. ولو كان الأب مَرْتين عنده لاستخدمه في فض هذا المشكل فقضى معظم اليوم في غرفته وإذا بخادمه الخاص يحمل إليه كتاب أوباس، فتلاه وهو لا يصدق أنه يقرأه فأعاد قراءته غير مرة. ولما فرغ من ذلك أمر أن يكتب باستقدام أوباس مخفوراً وخرج لانتظاره في قاعة المجلس.

وبعد هنيهة دخل أوباس بقدم ثابتة وجأش رابط فلبث رودريك صامتاً ساكناً ليرى ما يبدو منه. فبدأ أوباس بالكلام قائلاً: «إني لم آتك لعتاب أو توبيخ، إنما جئت لأمر يتعلق بمصلحة المملكة على أثر ما بلغني من نزول العرب في شواطئها وعزمهم على فتحها. وإن قائد جندك أغضب نفسه وأغضبك، واغتنم ساعة حاجتك إليه وهجرك، وهو ضعف شبيه بضعف يوليان صاحب سبتة فإنهما غضبا من أحد رجال القوط فعمدا إلى الانتقام من المملكة كلها، ومن

نفسيهما لأنهما من أفرادها! على أن خطأهما لا يبرىء الملك من الخطأ الذي اقترفه مما لا نخوض فيه الآن». قال ذلك بسكينة ورزانة والجد بادٍ في وجهه، فاستغرب رودريك ما سمعه وارتاب في إخلاص أوباس، ولم يتصور مثل هذه المناقب لبعدها عن مناقبه كما يستبعد الشهم الوفي وجود أناس يكافئون على الحسنة بالسيئة ـ فأراد أن يتبين حقيقة مراد أوباس فقال: «وما الذي تراه؟».

قال: «لقد أحسنت في اقتصارك على الموضوع الذي نحن فيه، فالذي أراه أن تبعث إلى الكونت كوميس وإلى الأب مَرْتين، فإذا حضرا أوبخهما وأحرضهما على الرجوع إليك والعمل معك في إنقاذ هذه المملكة من غارة المهاجمين!».

فأمر رودريك بعض الحرس ببابه أن يذهب في استقدامهما حالاً. فسار الرجل وأشار رودريك إلى أوباس بالجلوس وهو لا يصدق أنه يقول ما يقوله عن إخلاص وحمية، وظل صامتاً يخاف أن تبدر منه بادرة يُلام عليها لأن أوباس بهرَه بمروءته وجسارته. وأما أوباس فجلس ولم يعبأ بمن في حضرته. وبعد قليل عاد الرسول وأنبأ الملك بقرب مجيئهما. ثم أقبل كوميس فحيّا باحترام وجلس بإشارة الملك وقد استغرب وجود أوباس هناك. ثم جاء مَرْتين وعجب حالما وقع نظره على أوباس. أما أوباس فالتفت إلى رودريك واستأذنه في الكلام فأذن له فوجه كلامه إلى كوميس قائلاً: «قد بلغني يا حضرة الكونت أنك خرجت بالأمس من مجلس الملك غضباً، فكيف أنتَ الآن؟».

فقال: «لم أغضب من جلالة الملك إلا غَيرة على المملكة. ولكنني لم أبلغ منزلي وأخل بنفسي حتى رأيتني عجّلت في عملي لأننا في حالة تدعو إلى الإتحاد لدفع الأعداء».

ولم يتم كلامه حتى ابتدره أوباس قائلاً: «عوفيت من شهم صادق. ذلك رجائي فيك لعلمي بحدة مزاجك، وحاد المزاج سريع الرجوع إلى الصواب». ثم التفت إلى مَرْتين وكان جالساً مطرقاً وقال: " ولا أظن الأب مَرْتين إلاَّ فاعلاً مثل ذلك أيضاً". فظل مَرْتين مطرقاً ولم يجب. فالتفت أوباس إلى رودريك وقال: «لا ريب عندي في رغبة قداسة الأب في الوفاق والوئام ونبذ البغضاء عملاً بوصية السيد المسيح. ولذلك فإننا لا نطيل الكلام في هذا الشأن بل نبادر إلى العمل. فيأمر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار الدولة للنظر في الوسائل اللازمة».

فرفع مَرْتين رأسه عند ذلك ووجه خطابه إلى الملك قائلاً: «كيف تبرمون مثل هذا الأمر قبل عرضه على مجمع الأساقفة، وجلالة الملك يعلم أن قوانين المملكة تقضي بذلك؟!».

ولم تكن تلك القوانين خافية على أوباس ولكنه أراد السرعة لأن جمع الأساقفة يستغرق بضعة أسابيع. على أنه خاف إذا أنكر جمعهم أن يفسد مَرْتين ما أصلحه فعذر الرجل على تعنته فقال: «لم أطلب إبرام شيء دون رأي المجمع، ولكنني أردت التئام مجلس الملك للبحث فيما يعرضونه على المجمع». وقد فاته أن مَرْتين إنما أراد عرض ذلك على المجمع ليشكو إليه خروج أوباس من السجن، لأنه اغتاظ من جلوسه في حضرة الملك، وزاد غيظه لما رآه جالساً مجلس المشير!.

فاستحسن رودريك عقد مجلسه فبعث إليهم وهم الكونتية الذين تقدم ذكرهم فحضروا. وقبل عقد الجلسة طلب الكونت كوميس الجري في عقدها على القوانين الرسمية وهي تقضي بإخراج مَرْتين منها لأنه ليس من رجال الدولة فخرج وهو يتميز غيظاً!

فلما التأمت الجلسة وقف أوباس ورفع يده وبارك وصلى صلاة

حارة شفعها بالتوسل إلى الله تعالى أن يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم، ثم خاطب الحضور قائلاً: «أنتم تعلمون الإساءة التي لحقت بي من جلالة الملك ومن مجلس الأساقفة حتى سجنوني سجن المجرمين شهرين كاملين لم أرَ في أثنائهما غير الموكل بحراستي، وقد حكموا عليَّ بذلك لغير ذنب اقترفته، ومع ذلك فحالما علمت بما يهدد المملكة من الأخطار استأذنت في مقابلة الملك، وعرضت نفسي للعمل في جملة العاملين على إنقاذها. فأحرى بكم أن تكون رغبتكم في ذلك وأنتم رجال الدولة ومديرو شؤونها؟ ولست أنبهكم إلى أمر تعلمونه، ولكنني أبث لكم عواطفي في هذا الشأن وإني أصغر العاملين في هذا السبيل».

فقال الكونت كوميس: «إن شهامة أوباس ومروءته وتعقله أشهر من أن تُذكر، ولكننا لم نكن نحسب في البشر مثل هذه العواطف. فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا نتفانى نحن في خدمة الملك؟ ولكنني لا أرى تأجيل العمل إلى اجتماع الأساقفة لئلا يضيع الوقت بلا طائل».

فقال أوباس: «ولكن لا بد من استشارتهم في مثل هذا الأمر وهم كما لا يُخفى أصحاب الفضل الأكبر في تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها وأحكامها وتدبير شؤونها».

فقال رودريك: «لا يمكننا القطع في التجنيد والمحاربة إلا بعد مشورتهم". فقال كوميس: "لا بأس من استشارتهم، ولكن الوقت قصير والفرصة ثمينة».

فخاف أوباس أن يحتد كوميس فيذهب سعيه سدى وتذكر أن مَرْتين خرج من الجلسة حاقداً، وخاف إذا لم يسترضوه أن ينقلب عليهم ويهيج الأساقفة على الملك، فتنقسم المملكة على نفسها وتكون

المصيبة الثانية شر من الأولى، فعمد إلى ملافاة ذلك قائلاً لكوميس: «أراكَ ضيقت الفرصة ودققت في الطلب، فالأساقفة كما قلت لا بأس من استشارتهم بل أرى احترامهم واجباً لأنهم واضعو أساس هذه النظم كما تعلم، فضلاً عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد. زد على ذلك أن الاتحاد يقضي علينا باستشارتهم لأن غضبهم يفضي إلى الشقاق لا محالة. ولا يُخفى عليك أيضاً ما يترتب على ذلك من ضياع النتيجة التي إنما تسل سيفك وتشحذ قريحتك في سبيل الوصول إليها. فرجائي فيك أن تتلافى هذا الخطر ولا شك عندي أنك متلافيه فألتمس أن تبدأ بذلك من هنا (وأشار إلى باب القاعة حيث خرج مَرْتين) لأن حضرة الأب إذا رضيَ هانَ الأمر». ثم وجه كلامه إلى رودريك وقال: «هل يأذن مولاي في استقدام الأب مَرْتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل له حظاً من هذا البحث؟».

فكان كلام أوباس نافذاً بلا مراجعة لأنه بهرهم بما أتاه من الحمية والمروءة، فضلاً عما فطر عليه من قوة العارضة. فأمر رودريك باستقدام مَرْتين وكان منفرداً في بعض غرف القصر. فلما دخل وقف أوباس وبشّ له وقال: «ليس فينا يا حضرة الأب مَن يجهل حق سيادة الأساقفة في شؤون مملكة القوط، ولكن ولدنا الكونت كوميس رجل حرب يحب المبادرة، وغيرته على صيانة هذه الدولة هي التي حملته على التسرع، وهو مصيب بالنظر إلى قوانين الحرب. ولكنني أرى رأي حضرة الأب بالنظر إلى وجوب استشارة الأساقفة على أني أخاف أن يدعو ذلك إلى التأخير فتفوت الفرصة ويذهب سعينا ضياعاً، ولا أظن السادة الأساقفة إذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة إلى الحرب، بل أحسبهم يلومونا على تأخير التجنيد إلى اجتماعهم. فالذي أراه ـ والأمر لجلالة الملك ـ أن نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة

الأطراف في حشد القوات والأموال، ونبعث إلى الأساقفة فنجمعهم ونتلو عليهم قرار هذا المجلس، أو نبعث إليهم بخلاصة أعمالنا وهم في أبرشياتهم لأننا أحوج إليهم الآن هناك. وإذا أذن لي الملك قلت كلمة في هذا الشأن، والرأي راجع إليه في كل حال، ذلك أني أرى أن يُنتدب قداسة الأب مَرْتين لينوب عن جلالته في تبليغ الأساقفة قرار هذه الجلسة، وإذا رأيتم أني أليق بهذه الخدمة قدمت نفسي لها، أو كما تشاؤون».

فلما فرغ أوباس من الكلام لم يرَ مَرْتين سبيلاً للرد عليه لعلمه أن أمر المجلس نافذ لا محالة، وقد أعجبه رأي أوباس بانتدابه لمخابرة الأساقفة ليتمكن من بث ما في نفسه إليهم، لكنه أساء الظن في ذلك الانتداب وظن أوباس إنما يريد إبعاده عن مجلس الملك، أو أن يفر هو من محبسه لغرض له، وكلا الأمرين لم يرضه. فلم يرَ خيراً من قبول قرار المجلس، وعمد إلى المغالطة فقال وهو يحاول كظم غيظه من تغلب أوباس على رأيه: «لا أظن حضرة الملك يسيء الظن بقصدي إذا التمست جمع الأساقفة فإنه طلب قانوني. وأما الحرب فإنها كما قال أخي أوباس تدعو إلى العجلة، وللملك أن يبلغ الأساقفة بالطريقة التي يختارها. وأما أنا فإني أعد تلك المهمة شرفاً لي ولكنها تبعث إلى التطويل لما يقتضيه ذلك من الانتقال من أبرشية إلى أخرى، وكذلك انتداب حضرة الأسقف. فالأنسب أن ينتدب جلالة الملك مَن شاء من حاشيته ويفرقهم دفعة واحدة فيصل الخبر إلى السادة الأساقفة في وقت معاً».

ولم يجهل أوباس ما ينطوي تحت تلك الملاينة من الكظم والحقد، ولكنه تجاهل رغبة في النتيجة، وأغضى عن كل سيئة في سبيل الوصول إليها، فأبدى استحسانه لموافقة مَرْتين والتفت إلى

رودريك وهو يبتسم وقال: «لقد تم الاتفاق بحول الله، فما على جلالة الملك إلا أن يتحد مع مجلسه في التأهب للحرب، ونحن في كل حال في خدمة المملكة في كل ما تريدون».

فلم يسع الملك بعد ما عاينه من مساعي أوباس في نصرته إلا أن يحترمه ويتصاغر في عيني نفسه، فقال له: «بورك فيك يا أوباس». فقطع أوباس كلامه خوفاً من إثارة حسد مَرْتين، وكانت حجته في قطعه أنه لا يريد أن يسمع الثناء على نفسه، ثم وقف وطلب إلى الملك أن يأذن له في الانصراف إلى سجنه فقال رودريك: «امكث معنا يا أوباس فإنك نِعم المشير، ودع السجون لأهلها».

فقال أوباس: «أشكرك على ذلك، ولكنني أستأذن في الانصراف من هذه الجلسة على أن أعود بعد قليل».

فأذن له فخرج أوباس وقد حمدَ الله على نجاح مسعاه فلقيه سرجيوس فقصّ عليه ما كان، فازداد إعجاباً بتلك المناقب الشريفة.

وعاد سرجيوس بعد بضعة أيام إلى الدير، وكانت فلورندا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر. فلما عاد وقصّ عليها ما أتاه إلى آخر الحديث أحست بانقباض في نفسها لأنها عدت ذلك مخالفاً لما كانت تتوقعه من سقوط هذه الدولة على يد والدها، وما تخافه على نفسها وعليه إذا لم يَفِزْ العرب في هذه الحرب، فوقعت في حيرة ولكنها لم تستطع تخطئة أوباس لأن نواميس الشرف والمروءة تؤيده وتنصره، ولولا ضعف المرأة وإيثارها الانتقام لما تخيرت فلورندا غير ما أراده أوباس، ولكنها لم تكن ترى سبيلاً إلى السعادة إلا بقتل رودريك خصوصاً بعد أن جاهر والدها بحربه، فانتصار رودريك يعود بالويل والثبور عليهما. وسألت الرئيس عن الفونس فأخبرها أنه في استجة مع فرقة من الجند ينتظر أوامر رودريك. فتاقت نفسها للذهاب إليه

لعلمها أنه لو كان عالماً بمقامها لسعى إليها أو بعث في استقدامها، ولكنها خافت العيون واستشارت سرجيوس في ذلك مرة، فقال لها: «البثي عندنا ريثما نرى ما يكون من أمر هذه الحرب».

قضت فلورندا في ذلك الدير بقية فصل الشتاء وكل فصل الربيع، وهي تتنسم الأخبار بواسطة أجيلا وشانتيلا وسرجيوس، فلم تسمع إلا بانتصارات العرب ووالدها معهم، وقد دخلوا إسبانيا وأوغلوا في مقاطعة بوتيكة. وكان رودريك قد أعد جنده وتأهب للخروج إليهم، فسمعت أنه برح طليلطة بنفسه ومعه العدة والرجال، واضطربت إسبانيا بجملتها وفيها الخائف والشامت، والآسف والناقم، لاختلاف الأحزاب وتضارب الأغراض.

أما أهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الأخبار وهم يرون الخطر بعيداً عنهم لبعدهم عن ساحة الحرب. وفلورندا قد تراكمت عليها الهواجس والخوف على أبيها وخطيبها، لا تدري هل تسير إلى أحدهما، أو كليهما، أو تبقى في ذلك الدير؟ وكانت ترجح بقاءها هناك على رجاء أن يبعث والدها فيستقدمها كما قال. فلما أقبل الصيف أصبح دير الجبل عليل النسيم عذب الماء، نشيط الهواء وقد اكتست أوديته حلة خضراء.

ففي يوم من أيام يوليو استيقظت فلورندا مبكرة وهمت بالخروج من الدير للتمشي في بساتينه على عادتها، ولكنها قبل أن تخرج جاءها أجيلا يدعوها إلى الرئيس، وكانت قد مضت مدة لم يدعها إليه فاختلج قلبها وأسرعت حتى أقبلت على غرفته، فرأت عنده كهلاً لا تدل سحنته على أنه من القوط أو من الرومان، ورأت عليه لباساً تذكرت أنها كانت ترى مثله وهي عند والدها في سبتة. ولما دنت من الرجل رأت آثار السفر على وجهه بما غشِيَ لحيته

وشاربيه من الغبار، حتى حاجبيه وأهدابه فإن الغبار غلب على لونها جميعاً. فتوسمت فلورندا من ذلك القادم خبراً جديداً فدخلت وحيّت فرحّب بها الرئيس وقال: «هذا رسول من أبيك».

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها بغتة والتفتت إلى الرجل وقالت: «ما وراءك؟». قال: «إني من أصدقاء أبيك ومحبيه والمطلعين على أسراره، وقد علمت بكتابك إليه وما ترتب على ذلك كله من الانقلاب. ألا تعرفينني يا فلورندا؟».

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت أنها شاهدته غير مرة في صباها وأنه كان كثير التردد على بيت والدها في سبتة. فاستبطأها الرجل وقال: «ألا تعرفين سليمان التاجر؟».

فانتبهت فوراً وقالت: «أنت سليمان؟ نعم أعرفك جيداً وكنت تتردد وتحمل إلينا الهدايا والأحمال وتبتاع لنا الآنية والثياب. هل أنت آتٍ من عند والدي؟ وأين هو الآن؟».

قال: «هو مع جند العرب على مقربة من وادي ليتة».

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كل شيء في حضرة الرئيس فأجابته بالإشارة أن يفعل فقال: «وقد أوغلوا في بوتيكة ولم يلقوا معارضة إلا قليلاً، وقد عدّهم أهل البلاد رحمة ولا يلبثون أن يتملكوا البلاد كلها».

فبغت الرئيس وقال: «وماذا جرى لجند الإسبان؟».

قال: «لم يلتق العرب برودريك بعد، ولكننا سمعنا بخروجه من طليطلة بجند كثيف وسيعود خاسراً فأبشِرا».

فظهرت البغتة على وجه الرئيس وقال: «هل تعتقد ذلك؟ وكيف تكون حالنا إذا صح قولك؟».

قال: «تكون أحسن مما أنتم عليه الآن، لأن العرب إذا فتحوا بلداً قلما يتعرضون لأهله في شيء غير ما يفرضونه عليهم من الجزية أو الخراج. وأما الرهبان وجماعة الأكليروس فإنهم معفون من كل ضريبة يقيمون في أديارهم مستكنين آمنين. ذلك ما شاهدناه بأعيننا في البلاد التي فتحوها في مصر والشام».

فأطرق الرئيس وسكت، فقالت فلورندا: «وما الذي جئت به الآن؟».

قال: «كلفني مولاي الكونت والدك أن آتي لأتفقدك، وإذا أردت الذهاب إليه سرت في خدمتك».

فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت: «ألا تخاف علينا بأساً في أثناء الطريق؟». قال: «لا بأس علينا من أهل إسبانيا ونحن منهم، ولا من الملك وهو في شاغل من نفسه وجنده». فالتفتت فلورندا إلى الرئيس كأنها تستطلع رأيه فقال: «إذا لم يكن بدّ من ذهابك فهذه فرصة لا تضيعيها، ونحن ندعو لك بالوصول إلى والدك سالمة». فعادت فلورندا إلى خالتها واستشارتها، فأشارت عليها بالذهاب. وتأهبوا في الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه أجيلا وشانتيلا، وأما فلورندا فطلبت إلى سليمان أن يمروا في طريقهم باستجة، فساروا أياماً لا يمنع مسيرهم نوء ولا مطر، والأرض كلها مكسوة بالأشجار والأعشاب والطقس جميل حتى أطلوا على استجة، فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك المدينة وكانوا قد أشرفوا عليها من مرتفع فرأت كنيستها فتبركت بها عن بُعد، وجعلت تناجي نفسها من مقر الفونس فلم تجد بداً من سؤال سليمان فقالت له: «إذا أنفذ رودريك جنداً إلى مدينة مثل استجة فأين يقيم؟».

فقال لها: «أظنك تبحثين عن مقام الأمير الفونس؟».

فبغتت فلورندا وقالت: «نعم. وكيف عرفت ذلك؟».

قال: «عرفته منذ بضعة أشهر، إذ جئت هذه المدينة وبلغني قدوم الأمير وجنده، وكانوا يقيمون في هذه القلعة قرب الجسر. هل أبحث عنه هناك؟».

فاستأنست به فلورندا وقالت: «افعل يرحمك الله، وإتنا بالخبر».

فتركهم وتحول بأسرع من لمح البصر وترجلت فلورندا وخالتها ولبثوا جميعاً ينتظرون الخبر وفلورندا تمني نفسها بملاقاة الفونس، وكلما تصورت أنها لقيته يختلج فؤادها وهي لا تزال تذكره كما شاهدته لآخر مرة في حديقة القصر في طليطلة وعليه لباس الشتاء والفرو والمنطقة، وقد خرج من الحديقة مسرعاً مبغوتاً عند سماعه الصفير، ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لأن سليمان عاد سريعاً فلما رأته مقبلاً شخصت إليه ببصرها وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله، فلما وصل ابتدرها قائلاً: «لم أجد أحداً في القلعة».

قالت: «أتظنهم لم ينزلوا فيها؟».

قال: «لا ريب عندي أنهم كانوا نازلين فيها وقد سألت بعض حراس القلعة فأخبرني أن رودريك بعث إلى مولاي الأمير الفونس أن يوافيه إلى وادي لية بمن معه من الجند لملاقاة العرب».

فبغتت فلورندا وأطرقت وهي تتجلد وتمسك عواطفها بين يدي ذلك الرجل، ولكنها أصبحت قلقة البال على الفونس لأنه ذهب إلى ساحة الحرب، وهو في جانب وأبوها في جانب، وإذا فاز الواحد غلب الآخر، وكلاهما عزيزان عندها. وربما لم يفت سليمان ما مرّ بخاطرها من ذلك فقال لها: «أظننا نلاقي الأمير الفونس في الطريق

إذا أسرعنا، وإلا فإننا ملاقوه في وادي ليتة. فإذا وصلنا إلى هناك بحثت عنه وأتيتك بما تريدينه».

فاطمأنت فلورندا بذلك الوعد وأشارت إلى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها، وما زالوا سائرين جنوباً وهم يمرون بالكروم والبساتين وكلما اقتربوا من وادي ليتة قلّ الناس العاملون في الحقول.

وأقبلوا في صباح اليوم التالي على طريق رأوا فيها جماعة من أهل القرى يهرعون كأنهم يفرون من عدوٍ لاحق بهم، فقالت فلورندا في نفسها: «الظاهر أننا على مقربة من معسكر العرب أو أن العرب قادمون». فالتفتت إلى سليمان فإذا هو ينظر إلى الأفق ويتفرس كأنه يرى شيئاً غريباً فنظرت فرأت غباراً يتصاعد فترجح عندها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان: «يظهر أن العرب قريبون منا. أليس أبي معهم؟».

فقال: «لا أظن القادمين عرباً لأنهم سائرون من الشمال إلى الجنوب». ثم التفت إلى أحد المارة من الفلاحين وسأله عن سبب فرارهم فقال الرجل: «ألا ترى جند الملك قادمين؟ فهم إذا حلوا بمكان أوقعوا الأذى بالفقراء أمثالنا، فلا يتركون ثمراً لا يقطفونه، ولا زرعاً لا يدوسونه، ولو اكتفوا بذلك لهان الأمر ولكنهم يلحقون الأذى بالناس». قال ذلك وسار مسرعاً في طريقه لئلا يكون مخاطبه من حزب الملك فيقبض عليه!.

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال، وأرادت أن تعلم إذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسليمان: «وهل تظن رودريك مع هذا الجند؟». قال: «أظنه معهم». فلما سمعت ذلك تصورت قرب الخطر منها، وسليمان يراقب ملامحها

فلما رأى اضطرابها قال لها: «لا تخافي يا مولاتي فإنك في أمان. تعالي نختبىء في مكان ريثما يمر هذا الجند».

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من خربة مهجورة فوق تل بعيد عن الطريق فدخلوها فقالت فلورندا: «أرى أن أتنكر بثوب الرجال». فأعطوها ثوباً من أثوابهم وأعطوا مثله للخالة العجوز حتى لا يشك مَن يراهم عن بُعد أنهم رجال، ثم اختبأوا في تلك الخربة وفلورندا شديدة الميل إلى مشاهدة تلك الحملة فاهتدت إلى شق أرسلت بصرها خلاله إلى جهة الغبار فإذا هي بالبنود قد ظهرت والفرسان بينها عليهم الألبسة الملونة والدروع. ورأت في أواسط الحملة بنوداً كثيرة قد تجمعت تحملها فرسان بألبسة مرصعة، وفي وسطهم موكب يتلألأ كالشمس فعلمت أنه موكب رودريك. فلم تتمالك عن الاضطراب ولم يقترب الموكب من موقفها حتى اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها، فرسمت إشارة الصليب فتشجعت وثبتت قدميها، ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات وعليها المؤونة والذخيرة، وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها. ثم أقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين دابتين بما يشبه الهودج، وفوق رأسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدر والجوهر، في مقدمتها صليب مغروس في أحد أعمدتها، ورودريك جالس وعلى رأسه التاج يتلألأ بالحجارة الكريمة وقد ارتدى وشاحاً مزركشاً وردي اللون وجلس جلسة الملوك على عروشهم ويده في لحيته وهو يُجيل نظره ذات اليمين وذات الشمال، ينظر إلى جنوده وكثرة ما معه من العدة والرجال. وقد جلس معه في ذلك السرير الأب مَرْتين وهو يخاطبه ويشير بيده، ورودريك ينظر إلى الأعلام المحيطة بموكبه ودلائل الإعجاب بادية في وجهه.

فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك. وكان سليمان واقفاً بجانبها فلما مرّ الموكب التفت فرأى لونها من الخوف قد تغيّر، فأراد أن يشغلها عمّا بها فقال: «ما ظنك بعدد هذا الجند يا مولاتي؟».

قالت: «لا أدري ولكنني أراه كثيراً. هل تظن جند العرب أكثر منه؟».

قال: «إن العرب لا يزيد عددهم على خمس هؤلاء، ناهيك بما سينضم إلى جند رودريك من الرجال قبل التقائه بالعرب خصوصاً جند مولاي الأمير الفونس فإنه سينضم إليه». فقالت: «إذن فالعرب في خطر وضعف؟!». قال: «لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هذه البلاد فإن القوة ليست في الكثرة وإنما هي في الشجاعة. إن العرب يا مولاتي لا يزيد عددهم في هذه الجزيرة على ١٢ ألفاً ومع ذلك لم يقف في سبيلهم أحد».

فقطعت كلامه قائلة: «ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد». قال: «هذا صحيح ولكنني رأيت من شجاعتهم واتحادهم وصبرهم ما لا أخاف معه عليهم شيئاً. ومع ذلك فإن النصر من عند الله يؤتيه مَن يشاء».

وفي أثناء هذا الحديث مرت بقية الحملة فمكثوا هناك إلى آخر ذلك اليوم. وخرج سليمان وحده للبحث عن المكان الذي نزل العرب فيه ثم عاد فأخبر فلورندا أن العرب نزلوا في وادي ليتة قرب مدينة شريش، فقالت له: «وهل علمت بمعسكر الفونس؟». قال: «هو على مقربة من ذلك المكان، وإذا شئت الذهاب تواً إلى مولاي الكونت والدك أوصلتك إليه حالاً». . فأصبحت فلورندا في حيرة لا تدري كيف تسير إلى معسكر العرب قبل أن ترى الفونس وتدبر طريقة

للاجتماع به أو إنقاذه. فلبثت صامتة فأدرك سلميان سبب صمتها فقال لها: «يظهر أنك تريدين البحث عن الأمير الفونس قبل ذلك، فإذا شئت فإني أعرف كرماً من كروم شريش لعائلة من أهل هذه البلاد، وفي الكرم بناء مرتفع يطل على سهول شريش كلها، وحيثما عسكر القوم رأيناهم. فتقيمين هناك مع خالتك والخادمين، وأمضي أنا للبحث عن الفونس وآتيك بالخبر اليقين، أو أستشير والدك». فاستحسنت فلورندا رأيه وشكرته، وساروا حتى أطلوا على مدينة شريش وحولها الكروم وفي جملتها كرم صاحبنا الشيخ والد بطرس وهو الذي عناه سليمان فصعدوا إليه واخترقوه يلتسمون العريش فلم يجدوا في الكرم أحداً. وكان سليمان لا يمر من هناك إلا ويرى الشيخ وأولاده وأحفاده يسرحون في الكرم للعمل أو اللعب، فقال سليمان في نفسه إن لهذا سبباً ذا بال. ومشوا حتى أتوا العريش في بعض أطراف الكرم وقبل الوصول إليه سمعوا صوتاً يناديهم تعودوا سماع مثله من نواطير الكروم فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فرأى هناك الشيخ وكل ذريته معاً، والقلق بادٍ في وجوههم أجمعين. فلما رأوه مقبلاً ذُعِروا، ونهض له بطرس فقال: «ماذا تريد؟». ثم ما لبث أن عرفه فقال: «سليمان؟ مرحباً بسليمان التاجر!». وكان لذكر اسمه تأثير في سائر أعضاء تلك العائلة لأنهم كانوا يسمعون به وبعضهم كان يراه عند قدومه إلى شريش لابتياع الخمر في المواسم. وذهب عنهم بعض الاضطراب عند رؤيته ـ وأهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فإنهم يعتقدون فضل أهل المدن عليهم ـ فلما رآهم سليمان احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ في ملاطفتهم وتقدم إلى الشيخ فسلّم عليه وسأله عن سبب انزوائهم في ذلك العريش في أثناء النهار والكرم لا يستغني عمن يتعهده فقال الشيخ: «يظهر أنك لم تعلم بما طرأ علينا». قال: «أظنك تعني قدوم

العرب». قال: «نعم ولا ندري ما يؤول إليه حالنا بعد هذه الحرب. ورأينا بالأمس جند الملك قد عسكر مقابل جند العرب ولا تلبث الحرب أن تنشب، وعندنا أطفال لا نستطيع الفرار بهم ولا نحن قادرون على ترك مغارسنا». قال ذلك وصوته يكاد يختنق حنواً على أهله وولده.

فابتسم سليمان وقال: «لا بأس عليكم يا عماه إني كافل لكم كل ما يحميكم ويحمي أولادكم من كل شر. ومعي أناس من أهلي سيقيمون عندكم الليلة، فهل من مكان لهم؟».

قال: «على الرحب والسعة» وأشار بيده إلى جهة مستودع الخمر في قمة الجبل، ثم هرول مسرعاً ومعه بعض أولاده حتى أقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا أزمة الخيل وقادوها إلى ذلك المستودع، وكان بعضهم قد سبق إليه فكنسه ونظفه فصعدت فلورندا وهي لا تزال بلباس الرجال وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان، وظل أولاد الشيخ أسفل المكان ينتظرون، فنزل سليمان فدفع إليهم قطعاً من الذهب وطلب إليهم أن يأتوهم بالطعام، وأظهر السخاء فازداد أولئك الغلمان رغبة في خدمته.

أما فلورندا فلما صعدت إلى ذلك المستودع أطلت من بعض نوافذه فرأت تحت ذلك الكرم وإلى شرقيه سهلاً واسعاً على مدى البصر، يخترقه نهر على ضفتيه الأشجار والأعشاب، وفي أحد طرفي السهل إلى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثله، وفي وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون أمامها علم كبير، وأمام الخيام الأخرى أعلام أصغر منه. ورأت وراء تلك المضارب خياماً منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجِمال وهي لم ترها من زمن طويل. فعلمت أنها ترى معسكر العرب فتنسمت ريح والدها من هناك، وكان سليمان قد فرغ من

صرف أولاد الشيخ وصعد فلما رأته قالت: «أليسَ هذا معسكر العرب؟».

قال: «بلى يا مولاتي. والخيمة التي ترينها في وسط المعسكر هي خيمة الأمير طارق بن زياد. ومولاي الكونت يوليان والدك يقيم معه».

قالت: «وما تلك المضارب البعيدة؟».

قال: «هي أخبية النساء ومراتع الماشية. لأن العرب إذا ساروا إلى الحرب أخذوا معهم نساءهم وأولادهم وماشيتهم ويجعلونهم وراءهم، فإذا ضعفوا في الحرب وحدثتهم أنفسهم بالرجوع لقيهم أهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحمسوا!».

فحوّلت نظرها إلى السهل من جهة اليسار فرأت هناك خياماً أخرى عرفت أنها مضارب الإسبان، وفيها خيمة رودريك وخيمة الفونس. أما فسطاط رودريك فعرفته من كبره ومما فوقه من الأعلام والبنود وما أمامه من الخدم والأعوان، وإن كانوا لا يظهرون لبُعد المسافة. وأما خيمة الفونس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القواد وهم كثيرون فأشارت إلى خيمة رودريك وقالت: «أليست هذه خيمة الملك؟».

قال: «بلى وأظنك تريدين معرفة خيمة الأمير الفونس فهذا لا سبيل إليه إلا بالبحث. وقد عقدت النيّة على أن أبحث عن ذلك بنفسي لما لوالدك من الفضل عليَّ».

فشكرت له فضله ثم قالت: «ومتى تذهب للبحث؟».

قال: «في هذه الساعة، بعد أن أهيىء لك ما تحتاجين إليه من الطعام. ولا بأس عليك هنا ومعك خالتك والشابان وهما نشيطان».

قالت: «ومتى تعود إلينا؟».

قال: «أما الرجوع فلا يمكن تحديد موعده، وسأبذل الجهد في الإسراع». وبعد أن دبر كل شيء ودعهم ونزل والشمس قد دنت من المغيب.

وكان سليمان كثير الاختلاط بالإسبان يتكلم لسانهم مع لسان القوط، وكان يعرف العربية والبربرية ويحسن التكلم خصوصاً بالإسبانية والقوطية فإذا كلم أحداً بإحداهما ظنه من أهلها. ونظن القارىء أدرك مما تقدم أنه هو الرجل الذي جاء الجمعية اليهودية في استجة منذ أشهر وألفونس فيها، وأنبأهم بما عزم عليه يوليان.

فلما فارق فلورندا عاد إلى الطريق التي جاء منها ونزل إلى معسكر الإسبان من ورائه، لئلا يشك أحد في قدومه من بعض القرى أو المدن. وما زال يتجسس وهو لا يتوقع أن يرى الفونس باقياً هناك فطال تجسسه دون أن يقف على أثره، فسأل بعض العارفين فدلوه عليه فإذا هو في الطرف وراء معسكر رودريك، فجعل همه البحث عن يعقوب وعنده كل الأسرار. وكانت الشمس قد غابت قبل وصوله إلى المعسكر، فجعل يمر بين الخيام حتى إذا ما دنا من خيمة الفونس وجد ببابها بعض الحراس ولم يرَ يعقوب بينهم فمرّ من ورائها وتظاهر أنه شرق بريقه وتنحنح نحنحة خاصة ما لبث أن سمع جواباً عليها من الداخل. فعلم أن يعقوب هناك، وأنه علم بقدومه فظل ماشياً في طريقه، فلم يلبث حتى سمع نحنحة دلته على مكان يعقوب والتقيا فسلّما وتحدثا بلغة خاصة فقال سليمان: «أراكم لا تزالون هنا ألم تنجح في إقناعه؟».

قال يعقوب: «كدت أنجح لولا أوباس وكتابه».

قال: "أتعني الأسقف أوباس الذي كان رجاؤنا في النجاة من

هذه الدولة موقوفاً عليه؟».

قال: «بلى، هو بعينه وقد أطلعتكم على ما دبرناه منذ بضعة أشهر، ورأيتم الفونس نفسه في تلك الجلسة يوم أريناه الدنانير في ذلك التابوت».

قال سليمان: «وقد رأيت من الفونس اتحاداً معنا على هذا الأمر. فما الذي حدث بعد ذلك؟». قال يعقوب: «خرجنا من تلك الجلسة وكله اقتناع بنجاح مشروعنا، وقد أفهمته أن العرب إذا أخذوا البلاد أبقوا له كل أمواله وأعادوا الحكم إليه، وإن سعادته في انتصارهم على رودريك. وأخبرته أن سقوط رودريك يتوقف على أمر واحد لا يقدر عليه أحد سواه وذلك أن ينضم هو ومن معه إلى جانب العرب يوم المعركة الأولى، فاقتنع وتواثقنا على ذلك».

فقال سليمان: «ثم ماذا؟». فمد يعقوب يده إلى جيبه واستخرج لوحاً مشمعاً من ألواح الكتابة عندهم في ذلك العصر ودفعه إلى سليمان وقال: «وفيما نحن مطمئنون بذلك جاءه هذا الكتاب من عمه أوباس». فتناول سليمان اللوح ونظر إليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابتدره يعقوب قائلاً: «لا تتعب نفسك في قراءته فإني حفظته حرفاً حرفاً، لكثرة ما أعدت قراءته من شدة غيظي من أوباس مع فرط إعجابي به..! إنه يقول فيه:

«من المطران أوباس إلى الابن المحبوب بالرب ولدنا الفونس

«باسم الأب والابن والروح القدس، سلام. أما بعد فقد بلغني ما ارتكبه ولدنا الكونت يوليان من الخطأ في حملته على رودريك بجند العرب، ولا أظنه فعل ذلك إلا انتقاماً لابنته. وكأني بك لما بلغك الخبر سررت به لأنه يشفي ما في نفسك من هذا القبيل. فأخاف أن يسوقك الضعف البشري إلى ما ساق إليه ولدنا

المذكور، فتوافقه على ما يضيع هذه المملكة، ويبيد هذه الدولة، فتهدمون في يوم ما بناه أجدادكم في أجيال، وتدور الدوائر علينا وعليكم جميعاً. فإذا كان قد خطر ببالك شيء من ذلك فانزعه عنك فإنه من حبائل الشيطان، واتحد مع ملك القوط للدفاع عن مملكة القوط. وأما ما بيننا وبين رودريك من التباغض فإننا نتنازع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء. فرجائي أن تصغي إلى نصحي، ولا تقبل قول سواي والسلام».

فلما سمع ذلك سليمان قال: «والله إنه لقول رجل عاقل. ولكنه إذا عمل به فلا شك أن الضربة تعود علينا نحن اليهود، خصوصاً إذا فاز رودريك واستنطق بعض الأسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده. والذي أراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم أن الفونس إذا لم ينضم إليهم فالكفة راجحة في جانب رودريك. والعياذ بالله».

فقال يعقوب: «ذلك هو اعتقادي ولكنني قد استنفدت الحيل في سبيل اقناعه. وأنت تعلم يا سليمان كم بذلت من الوقت والسعي من أيام غيطشة لإنقاذ شعب الله من هذا الجور، فتركت منصبي، وتجاوزت عن أموالي، وتظاهرت بالنصرانية، وجعلت نفسي خادماً أهيىء الأطعمة وأخدم على المائدة، وصبرت على ذلك أعواماً حتى إذا خلت صبح الفرج قد أقبل أغلقه أوباس، بعد أن كان أكبر نصير لنا، بل المحرك الأعظم لمشروعنا!».

فقال سليمان: «أما أوباس فإنه يحمد على هذا العمل بالنظر إلى العدل والحق، فهو لا يريد أن تخرج هذه المملكة من يد ابن وطنه ودينه ولغته ويسلمها إلى أناس غرباء عنه ديناً ووطناً ولغة. أما نحن فيهمنا إخراجها من هؤلاء القوط على الإجمال، لأن المسلمين خير لنا

منهم نظراً إلى ما عاينته من معاملتهم لليهود والنصارى في الشام ومصر، فإنهم يطلقون لهم الحرية فيمارس كل منهم طقوس ديانته كما يشاء، على أن يدفع مالاً قليلاً يسمونه الجزية. زد على ذلك أن اليهود أقرب نسباً للعرب، لأننا وإياهم من جد واحد هو إبراهيم كما تعلم، فهم يرفقون بنا بنوع خاص، فيجدر بنا والحالة هذه أن نكون عوناً لهم في تملكهم هذه البلاد. نفعل ذلك حباً لمصلحتنا، ولا يهمنا كلام أوباس ولا غيره».

فقال يعقوب: «هذا هو الأمر الذي نتمناه، ولا سبيل إليه إلا بانحياز الفونس إلى العرب لأن ذلك يقلل جند رودريك ويضعف عزيمته. ولا يخفى عليك أن معظم رجال هذه الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونه. فإذا رأوا ابن ملكهم ينحاز إلى العدو يهون عليهم أن يتبعوه، أو أن يتقاعدوا عن الدفاع على الأقل». قال ذلك ويده في لحيته يلاعب طرفيها بأنامله وشعرها لا يزال متلبداً بالأوساخ. وسكت هينهة ثم عاد فقال: «فالخلاصة أننا إن لم نستطع إغراء الفونس بالخروج إلى معسكر العرب، ذهبت مساعينا وأرواحنا وأموالنا أدراج الرياح».

فقال سليمان: «هذا هو الصحيح، ولو كان هذا الوطر ينقضي بالمال لهان علينا أمره، ولكن الرشوة لا مدخل لها في هذا المشروع، إذ لا نستطيع أن نرشو الفونس ولا أوباس، وإذا رشونا أحداً من رجاله لا يستطيع التغلب على رأيه، وأنت أقرب الناس إليه ولم تستطع شيئاً مع كثرة دهائك ومكرك». قال ذلك وابتسم.

فأجابه يعقوب: «دعنا من المجون فإننا في معرض جد وخطر والوقت قد داهمنا». قال سليمان: «ومتى ينوي رودريك القتال؟». قال: «سمعت أنه ينوي مهاجمة العرب غداً».

فبغت سليمان وقال: «غداً؟! لقد داهمنا الوقت وفاتتنا الفرصة. ألا تستطيع تأجيل الهجوم يوماً أو يومين؟». قال: «لا أظنني أستطيع ذلك. وما الفائدة من التأجيل؟». قال: «سأسعى في طريق أظنني أبلغ منه المراد».

قال: «وما هو؟». قال: «لا أقول لك إلا بعد قليل، فاسعفني أنت بتأخير المعركة يوماً أو يومين».

قال: «لا أظنني قادراً على ذلك يا سليمان، لأن رودريك يرى العجلة في مهاجمة العرب قبل أن تأتيهم نجدة فيقوى ساعدهم، وقد أشار عليه بذلك أوباس».

فقطع سليمان كلامه وقال: «سبحان الله، ما أوباس هذا؟ كيف انقلب هذا الرجل من الشيء إلى ضده..؟».

فقال يعقوب: «إذا كانت عندك حيلة فهاتها قبل فوات الوقت».

قال: «إني ذاهب الساعة وسأعود غداً صباحاً بالأمر الذي دبرته فإذا استطعت سبيلاً لتأخير المعركة فافعل أستودعك الله». قال ذلك وتحوّل راجعاً إلى حيث أتى، ويعقوب واقف حتى توارى سليمان عن نظره، فتحول إلى خيمة الفونس وقد مضى هزيع من الليل.

أما سليمان فإنه سافر تواً إلى معسكر العرب والليل حالك حتى أتى خيمة يوليان، فلم يعترضه أحد لأنه كان عارفاً بشعار الليل عندهم. وكان يوليان قد أوى إلى خيمته للرقاد وقلما كان يستطيعه لما تراكم في مخيلته من الشواغل القديمة والحديثة، فلما وصل سليمان كان يوليان جالساً في الفراش وقد زاده الأرق انقباضاً. ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأى السوداء مرسومة في وجهه بخطوط

واضحة خصوصاً بعد أن رأى جنود رودريك بالأمس، وهاله ما رآه من كثرتهم واستعدادهم بينما جند العرب لا يزيدون على خمسهم، فخاف أن يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليه وعلى ابنته وسائر أهله، فيما هو في ذلك إذ قيل له: «سليمان بالباب». فأذن في دخوله ثم ابتدره بالسؤال: «أين فلورندا؟». قال: «هي في خير، وستأتي في صباح الغد أو بعد الفرار من المعركة». وأخبره بمقامها وطمأنه.

فقال: «وما الذي حملك على المجيء الآن؟» قال: «حملني عليه أمر ذو بال لا أظنه غاب عن بصيرة مولاي».

قال: «ما في بصيرتي شيء الآن غير جنود رودريك فإني أستكثرتهم وخفت على جند العرب منهم. وإذا غلب العرب عادوا ولا يهمهم شيء وتقع المصيبة على رؤوسنا ورؤوس أهلنا وكل مَن قال بقولنا!».

قال: «ذلك ما جئتك من أجله. ولكن اعلم يا مولاي أن الأمر على وعورته يتوقف حله على أمر هين». ثم قص عليه حال الفونس وما دار بينه وبين يعقوب بشأنه إلى أن قال: «وقد جئت الآن ألتمس منك كتاباً إلى الفونس تدعوه فيه إلى التسليم وتضمن له أمواله وأملاكه وأملاك أهله أجمعين، وتوغر صدره على رودريك بما لا يُخفى عليك، ثم تعطيني الكتاب فأبعثه بطريقة أختارها».

فأطرق يوليان هنيهة ثم قال: «عد إليَّ في الصباح فأعطيك ذلك الكتاب».

قال: «سمعاً وطاعة». وخرج يلتمس مستودع الخمر وكانت فلورندا في انتظاره على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس وتترامى بها الأوهام لم يغمض جفنها إلا قليلاً. وكيف يزورها النوم وحبيبها على قيد خطوة منها ولا تستطيع الوصول إليه.

وأمر ما لاقيت من ألم الجوى قرب الحبيب وما إليه وصول

مضى معظم الليل وهي في هذه الهواجس، وكلما هبّ النسيم وسمعت حفيف الورق توهمت سليمان قادماً، وكان شوقها يحدثها أنه سيأتي وألفونس معه. وبينما هي تفكر في نحو ذلك إذ سمعت وقع الخطى وخشخشة الأعشاب اليابسة بقرب المستودع، فأصاخت بسمعها وقد أسرعت دقات قلبها وتعاظمت حتى كادت تسمعها بأذنها فإذا هي بالخطوات تقترب، ثم سمعت همساً فلم تتمالك عن الوقوف ودنت من النافذة وأطلت فرأت سليمان يخاطب أجيلا. ثم صعد سليمان السلم ففتحت له فلورندا واستقبلته وهي تقول: «ما وراءك يا سليمان؟».

قال: «ما ورائي إلا الخير»، ولكن غنة صوته كانت تدل على شيء في نفسه فاضطربت فلورندا وابتدرته قائلة: «يظهر أنك تضمر شيئاً. قل لي ما الخبر؟». فاستيقظت خالتها على هذا الصوت فقعدت وهي تمسح عينيها بأطراف أناملها وقالت: «ما الخبر يا سليمان، هل رأيت الأمير الفونس؟».

قال: «كلا يا مولاتي».

فلما سمعت فلورند ذلك انشغل خاطرها وقالت: «وأين هو إذن؟». قال: «هو في هذا المعسكر». قالت: «وكيف عدت من هناك ولم تره؟». قال: «لأن رؤيتي إياه لا تفيدني ولا تفيدك شيئاً، لأنه في حال لا تساعده على سماع كلام أحد غير عمه أوباس وهو يأمره أن يتفانى في سبيل رودريك».

فلما سمعت ذلك تصاعد الدم إلى وجهها، واقشعر بدنها وصمتت برهة ثم قالت وهي تبتسم استخفافاً بما قاله سليمان، ووثوقاً بانصياع الفونس لقولها دون سائر العالمين: «أظنه يسمع قولي.

لكن ما علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلته؟».

قال: «إن لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتي وحياة مولاي الكونت يوليان، وحياة كل قوطي ينتمي إلى غيطشة، وكل مَن لا يرضى أن يعيش ذليلاً بين يدي رودريك، لأن بقاءنا جميعاً يتوقف على انتصار العرب، وذلك لا يكون إلا إذا انضم إليهم الفونس هو ومَن معه، فينخذل رودريك لا محالة وتخلص البلاد من شره».

فأعظمت فلورندا أمر الفونس ولكنها ما زالت ترجو أن ينصاع لقولها فعزمت أن تكتب إليه كتاباً شديد اللهجة تستجمع فيه كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت لسليمان: «سأكتب إليه كتاباً هل تأخذه إليه؟».

قال: «نعم يا مولاتي إني رهين هذه الخدمة». قالت: «إذا أصبَحْتَ تعال فأدفع إليك الكتاب فتحمله إليه وأرجو أن يكون نافذاً بعون الله».

فاستبشر سليمان بذلك ومضى وكان الفجر قد دنا فتوسد حصيراً في عريش صاحب الكرم التماساً للراحة فغمضت عيناه، ولم يستيقظ إلا على صوت الطبول والأبواق، فنهض وقد أجفل وأطل على المعسكرين فرأى معسكر القوط يتماوج بالرجال وقد أخذوا في الاصطفاف للقتال وأمامهم الرايات والأعلام، وفي وسطهم موكب الملك رودريك بمظلته وسريره وفرسانه وأعوانه. والتفت إلى معسكر العرب فإذا هم في حركة كأنهم يهمون بالدفاع فأسقط في يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال في نفسه: «فاتت الفرصة». وقد زاد في تشاؤمه ما شاهده من الفرق العظيم بين عدد جند القوط وجند العرب، ومقدار ما عند القوط من العدة والخيل والمؤونة، فوثب من مكانه وثوب النمر وأسرع منحدراً نحو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان

إلى الفونس فوصل إلى المعسكر وهو يلهث من التعب، فرأى المسلمين وأكثرهم من البربر قد اصطفوا للحرب وعلى رؤوسهم العمائم البيض تقيهم حر الشمس وتتلقى عن رؤوسهم مواضي السيوف وحداد السهام كأنها درع للرأس، وفيهم حملة الرماح وحملة الحراب ونقلة القسي العربية. وأما الفرسان فقد كانت عليهم دروع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذ لا يظهر من وجوههم غير الحدق، وفي مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها الآيات القرآنية. ولم يصل إلى الخيام حتى سمع أصوات التكبير والتهليل وما فيهم إلا مَن قرأ الفاتحة والتفت سليمان في وجوه الناس فلم يرَ بينهم مَن يبالي بما سيلاقي في تلك المعركة من خير أو شر، فانشغل بذلك المنظر مدة عن يوليان، ثم تذكر ما جاء به فانخرط في صفوف الأجناد وهو يتطلع ويتشوف فلم يجد يوليان فسأله عنه بعض الوقوف فقالوا له إنه ركب في أثر طارق يستحثان الجند على الثبات. ولم يكد يتدبر ما سمعه حتى رأى فرساناً قادمين من بعض أطراف المعسكر يتقدمهم فارس عليه درع سليمانية، وعلى رأسه عمامة كبيرة وليس على وجهه درع فظهرت سحنته وبانت ملامحه.

نظر إلى هذا الفارس فإذا هو طارق بن زياد قائد ذلك الجند وكان سليمان قد رآه غير مرة ولكنه لم يره عمره مثل ما رآه في تلك الساعة، فخيّل له وهو ينظر إليه أنه جبل على فرس وقد أزاح عمامته إلى ما وراء جبينه فبانَ من تحتها جبين عريض تحته حاجبان غليظان، تحتهما عيناه احمرّ بياضهما من الجهد في الذهاب والإياب. وله شفتان غليظتان ولحية شعرها شديد السواد إلا شعرات قد وخطها الشيب. وكان العرق يتصبب من جبينه إلى لحيته وهو لا يبالي بمسحه، ولا يلتفت إلى شيء أو يتفرس في رجل، ولكنه كان ينظر إلى الجند إجمالاً

كأنهم رجل واحد. وقد أمسك عنان جواده بيساره، واستل حسامه بيمينه، وحسر عنها كمّه، فبانَ زنده الشديد السمرة، ولم يكن جواده أقل حماسة منه بل كان يستوقفه طارق فلا يقف إلا وهو يتحفز للجري وقد بلل العرق صدره ورأسه.

فتهيب سليمان من منظره، ثم رأى بجانبه فارساً يختلف عنه لوناً وسحنة ويشبهه حماسة وإقداماً وبسالة ولكنه اصغر منه سناً وأقل جسماً. فتنحى سليمان جانباً ريثما يمر طارق ورفاقه لعله يرى يوليان بينهم فينفرد به ويطلب منه الكتاب، فإذا بطارق قد وقف وتحول بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه، ورفع يمناه والسيف مشرع في قبضته، فأدرك الناس أنه يهم بالكلام فأصغوا إليه فإذا هو يقول بعد حمد الله والثناء عليه، وحثّ المسلمين على الجهاد:

«أيها الناس، أين المفر؟ إن العدو أمامكم، والبحر وراءكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وأن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا أبدأ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالارفه الألذ طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه

الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة. وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا اليوم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون».

وما فرغ طارق حتى تعالت أصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم، وشعر سليمان عند سماعه ذلك الكلام بما فيه من بواعث التحميس ولكنه قلق لضياع الوقت وأوغل في الناس يسأل عن يوليان فرآه في جملة الراكبين مع طارق فأسرع إليه، فحالما رآه يوليان استدناه منه فجاءه فقال يوليان: «استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر».

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة، وتحول راجعاً إلى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا إذ كان أكبر تعويلاً عليه لما سيحويه من مثيرات العواطف. فوصل إلى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلّم والكتاب في يدها فتناوله ولم يفه بكلمة محافظة على الوقت

وهرول لا يلوي على شيء وهو في قيافة لا يشك مَن يراه فيها أنه من رجال رودريك، وكانت الشمس قد أطلت على معسكر القوط، فانعسكت أشعتها على ألبستهم وبنودهم وخوذهم خصوصاً موكب رودريك. فجعل سليمان طريقه من وراء الجند والناس في شاغل لما هم فيه من التأهب، فرأى جند القوط قد ترتب على هيئة كراديس مثل نظام جند الروم، وكان العرب إلى ذلك العهد لا يزالون ينظمون جيوشهم صفوفاً متراصة، فكان جند رودريك مؤلفاً من ميمنة وميسرة يقود الأخيرة الفونس. وأما القلب فكان قائده رودريك نفسه ومعه الكونت كوميس، وقد جلس رودريك على سريره وفوق رأسه أوراق من ديباج يظلله، وهو في غاية من البنود والأعلام وبين يديه المقاتلة بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة، وأما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والياقوت والزبرجد، حتى خفه فإنه كان من الذهب المرصع! فأعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط، وأين قعود رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد؟ على أنه رأى في موكب رودريك رجلاً طويلاً واقفاً على دكة مرتفعة عليه لباس الكهنوت وقد رفع يديه نحو السماء وفي إحداهما صليب مرصع، ورفع صوته في الصلاة ليتضرع إلى الله لينصر جند القوط، فعرف سليمان من طول قامته وقوة عارضته أنه أوباس. فوقف بالرغم عنه فرآه لما فرغ من الصلاة والتضرع أخذ في حثّ الناس على الصبر والاتحاد، وذكرهم بمجد آبائهم وشدة بطشهم وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم.

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعاً حتى أتى ميسرة الجند وكانت عيناه شائعتين للبحث عن يعقوب ليدفع الكتاب إليه فلم يجده في مصاف الجند فتحول للتفتيش عنه في الخيمة. فلما وصل

إليها رأى ببابها رجلاً في مثل زي الجند لكنه لم يكد يتفرس فيه حتى عرف أنه من رجال يوليان. فعلم أنه هو الذي نقل رسالة يوليان إلى ألفونس فلما وصل إليه كلمه بحيث لا يسمعه أحد فعلم منه أن الفونس داخل الخيمة يتلو الرسالة وعنده يعقوب.

— ١٠ —

وكان الفونس منذ أتاه كتاب أوباس يغالب عواطفه ويقدر عواقب تلك الحرب فلا يرى في الثبات خيراً، ناهيك بما فيه من الخطر على فلورندا وأبيها. وكان منذ قرأ كتابها إلى والدها في تلك الغرفة المظلمة ما يزال يبحث عنها فلا يقف على خبرها، ولم يكن يستطيع التدقيق في البحث خوفاً من رودريك. ثم سمع بقدوم العرب وإيغالهم في بوتيكة ويوليان رائدهم، وكان في عزمه أن ينضم إليهم إذا لم يكن انتقاماً من رودريك فإكراماً لفلورندا، ولكن جاءه كتاب أوباس فأثر في عقله تأثيراً عظيماً كأنه استهواه بالتنويم المغناطيسي، فأصبح كأنه في بحر لا قرار له، يشعر من جهة أنه يجب أن يفعل بمشورة عمه، ويرى ذلك من الجهة الأخرى مخالفاً لعواطفه ومناقضاً لمصلحته، حتى إذا أتاه الأمر من رودريك أن يوافيه إلى شريش رجح عنده رأي عمه، واشتغل بالحرب والاستعداد لها وصورة فلورندا مع ذلك لا تبرح مخيّلته، ولكن عواطفه كانت مقيدة بسلطان عمه فأصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر، وقد نسِيَ الابتسام وأغفل الاجتهاد وسلّم أمره إلى الأقدار!

ولما جاء رودريك بالأمس وعسكر هناك، سلم إلى الفونس قيادة ميسرة الجند وأمره أن يكون على استعداد للهجوم في صباح ذلك اليوم. فبكّر الفونس في الفجر وأمر قواده فرتب كل منهم فرقته في موضعها، ودخل خيمته ليلبس درعه وكان يعقوب يرافقه وعيناه

تترقبان مجيء سليمان أو خبراً من عنده حتى خاف ضياع الفرصة، وإذا هو برجل لا يعرفه يطلب مقابلة الفونس ويبدو من عينيه أنه يحمل خبراً سرياً فسأله: «هل معك كتاب إليه؟ وممن؟».

قال: «معي رسالة من الكونت يوليان». ومدّ يده ودفع إليه لفافة من جلد، فتناولها يعقوب ودخل وحده، ولم يكن في الخيمة غير الفونس فلم يتنبه له، فأقبل يعقوب حتى دنا منه وتنحنح نحنحة تعود الفونس أن يكون وراءها خبر مهم، وكان قد خلع قباءه ونزع قبعته وأخذ في لبس الدرع، فبدأ بالجزء الذي يكسو الصدر والظهر وهَمّ بلبسه، وقد علقت حواشيه بأطراف ضفائر شعره المسترسل على كتفيه فأخذ في تخليصها، فلما سمع نحنحة يعقوب التفت إليه فإذا هو يحمل بيمناه لفافة مختومة وقد جعل يسراه على صدره. فتناول الفونس اللفافة وفضّها فاستخرج منها ورقاً مكتوباً، فما قرأ اسم يوليان حتى خفق قلبه واستيقظت عواطفه، وتصاعد الدم إلى وجهه وظهرت عليه البغتة خصوصاً بعد أن أتم تلاوته. وكان يعقوب واقفاً أمامه وقد أسند يديه متصالبتين على صدره فدفع الفونس إليه الكتاب كأنه يستشيره في أمره، فتناوله يعقوب وقرأه فإذا فيه:

«من يوليان كونت سبتة إلى الأمير الفونس

«بسم الأب والابن والروح القدس. لا حاجة بي أيها العزيز إلى إطالة الشرح في المصائب التي توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغي، إلى ما تعلمه من تعديه على الملك وإخراجه من أيدي أهله بقتل والدكم المرحوم. فكرسي الملك لبيت غيطشة وأنت أرشدهم جميعاً. ولم يكتف بتعديه على الحقوق حتى تجاوزها إلى الأعراض، فمن كان هذا شأنه فكيف يطاع أمره؟ والعرب يا ألفونس دولة جديدة ملكت الخافقين بالعدل والرفق، وهي منتصرة على رودريك لا محالة،

لأن أهل مملكته كلهم عليه حتى أقرب أقربائه، والذي ينصره إنما ينصر الظلم والغدر. وأنت تعلم أني ضنين بك شفيق عليك، لما بيننا من رابطة النسب الصحيح، فإذا أطعتني وانضممت إلى جند العرب فإني ضامن لك كل ضياع المرحوم والدك في الأندلس وهي ثلاثة آلاف ضيعة سلبكم رودريك إياها، وترجع أنت وسائر آل غيطشة إلى ما كنتم عليه قبل استبداد هذا الطاغية. وإنما كتبت هذا إليك رفقاً بك وشفقة عليك، والسلام».

وكان يعقوب يتلو الكتاب وألفونس مطرق، وشعره لا يزال مسترسلاً على كتفيه وقد علق بعضه بهداب الدرع، فلما فرغ يعقوب من قراءته نظر إلى الفونس وقال: «وما الرأي يا مولاي؟». قال: «الرأي؟.. أنت أدرى مني بما كتب به إلينا عمي أوباس. فهل أعصي عمي وأطيع يوليان؟». فقال يعقوب وهو يحك قفاه: «لا أشير عليك بشيء فإنك أدرى بالصواب، وأنا معك إلى الممات. ولكنني أستغرب ذلك الرأي من أوباس وهو أعلم الناس بما أصابك وأصاب سائر القوط من هذا الطاغية، ولولا اعتقادي بقوة عقل أوباس وصحة بدنه لقلت إنه يتكلم عن خرف. على أني لا أحسه إلا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه، وفي كل حال فالرأي لك».

فقال الفونس: «كيف تقول إنه ندم، وأنا لا أجتمع به إلا حرضني على الثبات، ولا يزال صوت خطابه يرن في آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر في ساحة الحرب، وهو لا يتكلم جزافاً إذ لولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعني إليه؟!».

قال يعقوب: «عمك أوباس يا مولاي حكيم وفيلسوف، وواعظ ولاهوتي ولكنه لا يعرف أمور السياسة. ولعلك إذا سمعت مني ذلك نقمت عليَّ وظننت أني أخدعك، ولكن دع ذلك عنك

وانظر إلى الكونت يوليان فإنه والد فلورندا، وهو إنما ركب هذا المركب الخشن في سبيل الدفاع عن...».

فمدّ الفونس يده وسد بها فم يعقوب بلطف وهو يقول: «يكفي يا يعقوب فإني عامل برأي عمي لأنه لا يجهل شيئاً نحن نعلمه، وهو أدرى مني ومنك بالأسباب التي حملت يوليان على ذلك. وقد آن لي أن أخرج لقيادة الجند». وعاد إلى لبس الدرع فيئس يعقوب منه ولبث واقفاً يحك عثنونه بطرف سبابته، فسمع نحنحة سليمان خارج الخيمة فاستبشر وخرج، فدفع إليه سليمان كتاباً قال له إنه من فلورندا، فدخل به على ألفونس فتناوله وفضّه، وحالما وقع نظره على الخط علم أنه من فلورندا فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته، وظهرت البغتة على وجهه، وارتعشت أنامله حتى ظهر ذلك في اهتزاز الكتاب، ثم امتد الارتعاش إلى كل أطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر، ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل. أما الفونس فقرأ الكتاب فإذا فيه:

«أكتب إليك على قطعة من ردائي بمداد من دمي، وهو الرداء الذي قابلتك به في حديقة القصر، وقد تمزق تلك الليلة بين يدي رودريك دفاعاً عن جوهرة هي لألفونس أكثر مما هي لي. وقد أرسلت إليك مع حامل هذا بعض ما تناثر من شعري في أثناء ذلك الدفاع، ناهيك بما علق منه بنواتىء تلك الشجرة اليابسة تجاه نافذة قصري وأنا هاربة من الوحش الكاسر! هذا هو رودريك الذي أراك اليوم تحارب بسيفه، وتدافع عن عرشه، لتحفظ له ملكاً اختلسه من أبيك، وتستبقي له يداً سيمدها ثانية إلى خطيبتك، إلى فتاة تزعم أنك تحبها، وقد فاتك أنك ذاهب بها وبأبيها وسائر أهلك وأهلها إلى الدمار! وكأني بك لم تعلم بما ارتكبه رودريك أو عزم على ارتكابه، فاعلم أنه

اراد ابتذال عفتي وهتك ستري، فهددني وخوفني، وأملني ومناني، وأراني السعادة في طاعته والشقاء في عصيانه، ولم يصغ إلى بكائي ولم يرق لتضرعي. فعصيته وآثرت الشقاء حباً لك ومحافظة على ودادك. ولعل طول البعد أنساك عهودك على ضفة نهر التاج، يوم مسست شعر رأسك بأناملك وقلت إن بقاء هذا الشعر حرام عليك إن لم تف بقولك! أهذا هو الوفاء؟ كأنك تعهدت بقتلي وقتل والدي وسائر أهلك وأهلي، وكأنك أقسمت أن تؤيد سلطان هذا الباغي! فإذا علمت ما ذكرته لك وتذكرت ماضي عهودك ورأيت البقاء عليها، فاترك رودريك وجنده وتعال إلى فوق هذه الرابية في مستودع الخمر بين المعسكرين، أو إلى والدي في معسكر العرب. وأما إذا كنت لا تزال على نصرة ذلك الظالم وكان لحب فلورندا بقية في قلبك، فلا تتركني أموت قبل أن أراك وأشكو إليك جفاك، وأخاطبك وأعاتبك، وأتزود منك بنظرة أنسى بها ذلك الشقاء. وإذا ضننت حتى بهذا فأستودعك الله إلى أن نلتقي بين يدي الديان العظيم، ومعنا رودريك يشهد على نفسه وعليك، والسلام.

فلورندا»

وما فرغ الفونس من تلاوة ذلك الكتاب، وشاهد شعر فلورندا حتى أحس كأنه استيقظ من رقاد. أو هي عواطفه تنبهت من غفلتها، وانحلت من قيود الاستهواء، فاستولى عليه سلطان الغرام فأنساه أوباس وكتابه وحكمه وآدابه. والحب سلطان نافذ الكلمة ماضي القضاء غالب على كل سلطان، يستذل الملوك ويحطم سيوف القواد.

ظل الفونس بضع دقائق مطرقاً كأنه غائب الرشد، ولم يبقَ في مخيلته إلا صورة فلورندا بثوبها الأرجواني الذي رآها فيه آخر مرة، وبشعرها الذهبي ضمن تلك الشبكة، وفي يده بضعة من كليهما،

وتذكر مادار بينهما من التشاكي والعتاب، وما تعهد لها من أسباب السعادة بانتزاع الملك من رودريك. وتعاظم خجله واضطرابه حتى توهم أنه يسمع صوت توبيخها وتعنيفها ويرى دموعها. وكان يعقوب واقفاً بين يديه فلما رأى اضطرابه وتأثره خرج من الخيمة تأدباً ليخلو الفونس إلى نفسه، فلما خرج لقيه سليمان وكان واقفاً هناك على أحر من الجمر. فلما رأى يعقوب استفهمه بالإشارة فأجابه بإطباق عينيه أن الطبخة قاربت النضج. وفيما هما واقفان رأيا فارساً مسرعاً نحوهما وفي يده شيء فتقدم يعقوب نحوه للسؤال عن غرضه فإذا هو من أتباع أوباس، فلما تلاقيا تعارفا فسأله يعقوب عن غرضه فقال إنه قادم بكتاب من أوباس إلى الفونس، فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة أن يكون فيه ما يفسد تلك الطبخة فعمد إلى الاحتيال فقال: «إن مولاي الأمير يغيّر ثيابه ولا يستطيع أحد الدخول عليه».

قال: «إني مأمور بإيصال هذا الكتاب إليه حالاً».

قال: «هاته وأنا أدخله عليه بعد قليل». فدفعه إليه وانصرف وهو لا يشك أنه أتم مهمته. أما يعقوب فإنه تظاهر بدخوله الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فإذا هو بخط أوباس ونصه:

«لا يخدعنك اليهود بدسائسهم، فإنهم إنما يريدون مصلحتهم وليست هي في بقاء المملكة للقوط. أثبت في الدفاع عن الوطن كما هو ظني فيك، واصغ إلى قولي فإني بمنزلة أبيك». فلما قرأ يعقوب الكتاب انقلب الضياء في عينيه ظلاماً، وعجب لتيقظ أوباس وانتباهه، وأدرك أنه إذا لم تنفذ حيلته في تلك الساعة ذهبت مساعيه ومساعي سائر اليهود هباء منثوراً. فاستقدم سليمان وأطلعه على ذلك الكتاب وتفاوضا فقررا كتمانه عن الفونس، وأن يعجلا العمل قبل أن

ينشب القتال، فدخل يعقوب فرأى الفونس جالساً على وسادة هناك وهو لا يزال مطرقاً ولم يتم لبس الدرع وشعره لا يزال مسترسلاً على كتفيه، ولما رآه انتبه لنفسه، فوقف وفي خاطره أن يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعه، فابتدره يعقوب قائلاً إن الرسول لا يزال واقفاً في انتظار الجواب وقد أمره صاحب الكتاب أن يعود سريعاً.

فخطر لألفونس أن يرى الرسول ويسأله شيئاً لعله يتخلص من ذلك التردد فقال: «ادخله عليّ».

فخرج واستقدمه فدخل سليمان وسلّم متأدباً فسأله الفونس قائلاً: «هل رأيت كاتب هذا الكتاب؟».

قال: «نعم يا مولاي».

قال: «ومَن هو وماذا تعرف عنه؟».

فأشار سليمان بعينيه نحو يعقوب كأنه يُخفي أمراً لا يريد التصريح به بحضوره، فأشار الفونس إلى يعقوب فخرج. فتقدم سليمان إلى الفونس وقال: «أتسمح لي يا مولاي أن أصرح بما أعلمه؟». قال: «قل». قال: "إني من أصدقاء الكونت يوليان صاحب سبتة وقد كلفني أن أستقدم ابنته فلورندا من دير كانت فيه قرب طليطلة فوصلنا بالأمس». قال: «وأين هي الآن؟». قال: «هي على مقربة من هذا المعسكر». قال: «ولماذا لم تذهب إلى والدها؟». فأطرق سليمان وتظاهر بشيء يمنعه الحياء من ذكره، فازداد الفونس رغبة في الاطلاع عليه فقال: «قل كل ما تعرفه ولا تُخفِ شيئاً».

فرفع سليمان نظره إلى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع في عينيه وقال: «ماذا أقول يا مولاي؟» إن فلورندا أصبحت في حال يرثى لها من الضعف، ولم أرها يوماً واحداً في أثناء رجوعها غير

مبللة العينين. وكنت أظنها تفعل ذلك شوقاً إلى والدها فجعلت أمنيها بقرب لقائه فلا تزداد إلا بكاء، ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها أبت الذهاب إليه حتى كاد يُغمى عليها. ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن أخرى أنها مخطوبة لك، وسمعتها تقول إنها تريد المجيء إليك ولو كنت في ساحة الحرب. لم أرَ في حياتي مثل هذا الحب فإنها لم تبال بأبيها في سبيل لقاك. ولا أُخفي على مولاي أنني عرفت ذلك رغم كتمانها إياه عن كل البشر. وهي التي سلّمتني هذا الكتاب وأوصتني أن أعود إليها بالجواب حالاً وهي تبكي!».

قال ذلك وتساقطت عبَراته كأنه يبكي بكاء صادقاً، فلم يتمالك الفونس عن إرسال الدمع. ثم سمع دق الطبول ونفخ الأبواق في المعسكر فعلم أنهم شرعوا في القتال، فدق قلبه ورأى أنه لا بدّ له من القطع في أحد الأمرين. فتشاغل بلبس درعه وإصلاح ثيابه وقد ترجح له أن يتبع هوى قلبه ويطيع فلورندا ولكن الحياء كان يمسكه.

وبينما الفونس في تلك الحيرة إذ دخل الخيمة رجل بلباس الكهنوت وهو يهرول ويتمتم، فنظر الفونس إليه فإذا هو الأب مَرْتين بلباسه الرسمي الموشى وعلى صدره صليب مرصع، والغضب بادٍ في وجهه. ولم يكن الفونس يحبه، فلما رآه داخلاً على تلك الصورة تلقاه بالسؤال قائلاً: «كيف تدخل خيمتي قبل أن تنبهني إلى ذلك مع خادمي؟».

فقال مَرْتين وهو يتمتم كالعادة: «أي خادم تعني؟ ومتى كان الأب مَرْتين يستأذن قبل الدخول؟ أين الكتاب الذي جاءك من عمك الآن؟ ولماذا تخلفت عن القتال وأنت قائد ميسرة الجند؟». فأكبر الفونس أسئلته على تلك الصورة، وكبُر عليه أن يعتذر عن سبب

تخلفه أو أن يصرح بعدم وصول الكتاب إليه فقال: «وما شأنك وحضوري القتال، أو ما يرد عليَّ من الكتب من عمي أو من غيره؟». فحمي غضب مَرْتين ولم يعد يعي ما يقوله وقال: «إن لي فيه شأناً تعلمه. وإذا كنت لا ترى ذلك من شأني فلا أظنك تنكره على جلالة الملك، صاحب هذا الجند وقائده الأكبر». وكان سليمان واقفاً في بعض أطراف الخيمة بحيث تقع عينه على عين الفونس، وكلما قال مَرْتين قولاً أشار سليمان بشفتيه وحاجبيه إشارة الاستخفاف والاستياء، وإذا رد عليه الفونس أبدى سليمان استحسانه وإعجابه فازداد الفونس استمساكاً بحميته، فلما عرض مرتين بذكر رودريك وسلطانه زال حياء الفونس مما كانت نفسه تحدثه به، ولم يكن جوابه إلا الخروج من الخيمة مسرعاً إلى جواده فامتطاه، وحول شكيمته نحو ميسرة الجند وهو يقول: «سوف ترون مَن هو صاحب هذا الجند وما هو مصير أهل البغي! وقد كنت أتردد في الذهاب وحدي فها أنذا ذاهب مع جندي!».

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلألأت السيوف، وعلا ضجيج الرجال وصهيل الخيول وصلصلة اللجم، والملك في قلب الجيش وحوله فرسانه وأعلامه وبنوده، وأوباس يطوف الجيش على جواده وقد نزع قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره، وأمسك زمام الجواد بيسراه ورفع يمناه يحمل بها صليباً مرصعاً، وهو يستحث الجند على الثبات والصبر.

ولما ركب الفونس جواده وقعت عينه على أوباس عن بُعد، فخاف أن يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه، فساق جواده ولم يلتفت يمنة ولا يسرة حتى أتى فرقته، فلاقاه ومبا وزميله قائدا الفرقة بعده، فحدثهما ووعدهما خيراً، وقد علمت أنهما كانا يحبانه ويكرهان

رودريك فأطاعاه وأمرا الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب، فتضعضع جند القوط واضطربت جوانبه!

أما مَرْتين فإنه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات أوباس ويلقي الشكوك لدى رودريك في إخلاصه وصدق نيته، فلما نزلوا سهل شريش واصطف الجند للقتال رأى الفونس قد تأخر عن الخروج للحملة، ثم رأى أوباس دفع إلى بعض حاشيته كتاباً سار به إلى خيمة الفونس، فظن سوءاً وأسرع إلى الملك فأراه الرسول راكباً إلى تلك الخيمة وهرع هو إليها كما تقدم. فلما خرج الفونس وسليمان وبقي هو في الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به، فالتفت إلى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب أوباس، فإذا هو كتاب فلورندا وقد نسِيَه الفونس هناك لغضبه وتسرعه، ففرح مَرْتين بذلك الكتاب فرحاً شديداً وفهِم منه مقام فلورندا، ولكنه ما زال يعتقد (أو يريد أن يعتقد) أن أوباس كتب إليه بالإنضمام إلى العرب!

وخرج مَرْتين من الخيمة ونظر إلى الجند فرأى الفونس وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب، فركض إلى رودريك وكان لا يزال على سريره في وسط موكبه، فنظر إلى مَرْتين فإذا هو يشير بإصبعه إلى الفونس ورجاله، فلما رآهم رودريك يسوقون خيولهم إلى معسكر العرب استشاط غضباً وقال: «ما الذي غيّرهم؟».

قال: «غيَّرهم كتاب حضرة الأسقف. وقد قلت لك إني لم أكن أطمئن بظواهره فمر بالقبض عليه الآن واسجنه، قبل أن يفر هو أو يحرض باقي الجند على الفرار!». فأمر رودريك رئيس حرسه أن يقبض على أوباس حالاً فأسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لإنفاذ أمر

الملك!

أما مَرْتين فلم يشف غيظه بالقبض على أوباس فأراد أن ينتقم من الفونس، فاغتنم غضب رودريك ودفع إليه كتاب فلورندا فتلاه وهو ينتفض من شدة الغيظ، لما حواه من الطعن فيه والتحريض على أذيته. فلما فرغ من تلاوته أصبحت لحيته ترقص على صدره وأنامله ترتجف. وصاح في مَرْتين: «أين هو المستودع الذي تقيم فيه هذه الفاجرة؟».

فأشار مَرْتين إلى المستودع وهو يقول: «أظنه هذا».

فأمر رودريك كوكبة من فرسانه أن يذهبوا للقبض على مَن فيه، ويسوقوهم إليه أحياءً أو أمواتاً.

ظلت فلورندا بعد ذهاب سليمان من عندها في ذلك الصباح جالسة إلى النافذة تراقب حركات الجند وسكناته، وكان أكثر اهتمامها بالميسرة لعلمها أن الفونس هناك، ولا تسل عن اضطرابها وقلقها، فلما رأت الميسرة تهرع إلى معسكر العرب اطمأنت وأيقنت بالفرج، ورقص قلبها طرباً. وكانت الخالة واقفة إلى جانبها وهي لا تكاد تتبين ما يجري لقصر نظرها، فلما أخبرتها فلورندا بما رأته شاركتها الفرح، وكان أجيلا وشانتيلا واقفين على مرتفع بجانب المستودع يراقبان حركات القتال، فلما رأيا ميسرة القوط انضمت إلى العرب أسرعا إلى فلورندا فأخبراها ففرحوا جميعاً ووقفوا يتحادثون بما شاهده كل منهم في أثناء المعركة مما لم ينتبه له الآخرون.

وفيما هم في ذلك إذا بالشيخ صاحب الكرم قد أسرع ومعه بعض غلمانه وأطفاله يركضون حتى صعد المستودع وهو يصيح: «أين سليمان التاجر، فإنه وعدنا بالحماية؟».

فأطلت فلورندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان القوط

يسوقون خيولهم بين الدالية لا يبالون بتكسيرها، حتى وصلوا إلى المستودع وفي أيديهم السيوف مسلولة. فحالما رأتهم فلورندا علمت أنهم من رجال رودريك فاصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها وصاحت: «أجيلا! شانتيلا!».

وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صوتها ولم يباليا بكثرة الفرسان القادمين، وساعدهما على ذلك أولاد الشيخ ونساؤه، وعلت ضوضاء النساء والأطفال وفلورندا واقفة في النافذة مع خالتها تقرع صدرها وتصلي إلى الله أن ينجيها، وتتوسل إلى السيد المسيح وإلى العذراء مريم أن يدفعا عنها ذلك الشر. ثم نظرت إلى أسفل المستودع فرأت أجيلا وشانتيلا قد وقعا قتيلين بعد أن قتلا بضعة من رجال رودريك فحزنت عليهما حزناً شديداً ولكنها أصبحت في شاغل من نفسها ولم تجد مَن تستغيث به غير الله. فجثت في وسط المستودع وكشفت صدرها وحلّت شعرها ونظرت إلى السماء وجعلت تقول وهي تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها مختنق من شدة البكاء: «إلهي أنت نصير الضعفاء. إلهي أنت منقذ المظلومين. اللهم اشفق على صباي. احمني من هؤلاء الظالمين إكراماً لدم ابنك المسفوك على الصليب». ثم اختنق صوتها فبلعت ريقها وعادت إلى الصلاة وهي لا تبالي بوقع الأقدام على السلم الخشبي المؤدي إليها ولم تلتفت إلى شيء مما حولها، وإنما صوبت حواسها وعواطفها وأفكارها كلها إلى السماء وهي على ثقة تامة أن الله لا يتخلى عنها. وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد دعاءها وتؤمن لها.

أما الفرسان فإنهم قتلوا ذينك الشابين وبضعة من أولاد الشيخ. وصعدوا إلى المستودع صعود الذئاب الخاطفة يتقدمهم رئيسهم وهو من أهل بلاط رودريك، وكان قد شاهد فلورندا في

طليطلة غير مرة فلما رآها في المستودع لم يعرفها لما طرأ عليها من التغيّر بالأسفار، ثم ما كان من تغيير حالها في تلك الساعة وهي محلولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين، وقد توردت وجنتاها من اللطم والصفع. واحمرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء، وبلل الدمع وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلل شعرها وقميصها. فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه، فتقدم إليها وأمسكها بزندها وجذبها نحوه فالتفتت إليه فرأت بيده الأخرى سيفاً لا يزال يقطر دماً وقد تلطخت أنامله الأخرى بالدم، فلما شاهدت ذلك ازدادت رعباً ولكنها تجلدت وقالت: «ماذا تريدون؟».

قالوا: «نريد أن نمضي بك وبمن معك إلى الملك رودريك».

فلما سمعت إسم رودريك صاحت: «لا. لا. لا أذهب إليه».

فقال لها الفارس: «سيري برضاك وإلا أخذناك قهراً، ولا أظنك تستطيعين النجاة من أيدينا ونحن جماعة!». قال ذلك وصاح في رجاله فقبضوا عليها وجروها والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب، حتى نزلوا من المستودع فأركبوها فرساً وأركبوا خالتها فرساً آخر وساقوهما وفلورندا لا تزال محلولة الشعر مكشوفة الصدر، محمرة الوجه، دامعة الطرف، وهي تستغيث بالله وتستنصره على القوم الظالمين، والفرسان لا يبالون بصياحها ونحيبها حتى انحدروا من تلك الأكمة وانتهوا إلى ساحة الحرب. فوقع نظر فلورندا على رودريك في موكبه وقد حمي وطيس الحرب والتحم الجندان بين فارس وراجل واختلط المسلمون بالقوط. وقد تضعضع هؤلاء حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنفسه.

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة فودت لو أن نبلاً من النبال المتساقطة يصيب صدرها فينجيها من رؤية رودريك. ثم التفتت فرأت فارساً من جند المسلمين يجول في المعمعة على مقربة منها وهو صبوح الوجه متناسب الملامح لولا عمامته ولباسه العربي لظنته قوطياً، وقد شد عمامته على رأسه شداً وثيقاً، واستل سيفه وأخذ يهاجم صفوف القوط فيبددها، ثم التفت إلى فلورندا فلما وقعت عينه على عينها صاحت فيه واستنجدته بلغة لم يفهمها، ولكنه فهم مرادها من إشارتها وملامحها، ووقعت من نفسه موقعاً عظيماً من أول نظرة وأسرع للدفاع عنها فحول شكيمة جواده نحوها وشهر سيفه وصاح: «ابشري يا مليحة أتاكِ بدر. لا تخافي!».

وجاء في أثره بضعة من فرسان البرابرة يصيحون بكلمة التوحيد وبأيديهم السيوف، فلم يستطع فرسان رودريك الثبات أمامهم طويلاً فلما خافوا إخفاق مسعاهم أسرع أحدهم إلى الملك يستنجده فلم يتمالك أن جاء بنفسه وقد تحول عن سريره إلى جواد مثقل بالزخارف، والمجوهرات على تاجه ونطاقه وسيفه وقبائه حتى نعاله، وكذلك عدة الفرس فقد كانت مرصعة. كما كان الجواد من أجمل الخيول شكلاً وقواماً، ولكن جواد بدر يفضله خفة وسهولة مثل سائر خيول العرب.

وكان بدر قد شتت شمل الفرسان عن فلورندا حتى أوشكت أن تنجو وإذا برودريك قد أقبل بأثقاله فلما وقعت عينها على عينه صاحت هي وخالتها بصوت واحد، ناهيك بصوت يرجو به صاحبه النجاة من الموت والعار معاً: «هذا هو طاغية القوط!».

فتحول بدر إليه وعرف من قيافته أنه الملك، وتبارزا، وكان بدر أنشط بدناً وأخف مركباً فتجاولا وتصاولا إذ كان رودريك من

القواد المعروفين. وكانت فلورندا على جوادها وعيناها شاخصتان إلى الرجلين تراقب كل حركة من حركاتهما، وقد حبست أنفاسها لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها أو مماتها، فإذا هجم رودريك أشارت بيدها كأنها تشارك بدراً في تلقي ضربته، وإذا هجم بدر أحست كأنها تهجم معه وهي بالحقيقة واقفة مكانها ولكن جوارحها كانت تشارك نصيرها بكل حركة. ثم ما لبثت أن رأت رودريك يستمهل بدراً بالإشارة، وكان بدر يود أن يقبض عليه ويسوقه إلى طارق أسيراً لينال بأسره فخراً، فلما رآه يستمهله أجابه بالإشارة أيضاً أن يمضي معه إلى معسكر المسلمين، فعاد إلى استمهاله فأمهله دون أن يفكر في أنه إنما يخدعه وينوي الفرار، فقد كان بدر مستخفاً بالرجل ولكن رودريك حول شكيمة جواده نحو خيامه وأطلق له العنان، فالتفت بدر إلى رفاقه وكلمهم بالبربرية أن «خذوا هذه الفتاة إلى خيمتي» واقتفى أثر رودريك.

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما رأوا ملكهم فاراً أركنوا إلى الفرار. أما بدر فما زال يتعقب رودريك ورودريك يجول في معسكره كأنه يفتش عن ضائع، وبدر يتبعه ويعجب من مسيره على تلك الصورة، حتى انتهيا إلى خيمة خرج منها كاهن امتطى فرساً وهَمّ بالفرار، فصاح رودريك فيه «مَرْتين!» فالتفت مَرْتين واقترب من رودريك فابتدره بسيفه وهو يقول: «كل هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رأيك».

فأصابت الضربة عنقه فوقع مضرجاً بدمه، فتركه صريعاً وساقَ جواده نحو الوادي وبدر يتبعه، حتى وصل ضفة النهر، والظاهر أنه لم يقوَ على رد جماح جواده فأرسله في الماء فغرقا معاً. ويُقال إنه فعل ذلك عمداً وفضّل الموت غرقاً على أن يقتله أحد من أعدائه. فرجع بدر

وهو يصيح: «قُتل الطاغية! قُتِل الطاغية!». فازداد المسلمون جرأة وأوغلوا في معسكر أعدائهم. ولم تمل شمس ذلك اليوم إلى الأصيل حتى خلا المعسكر من القوط إلا مَن وقع قتيلاً أو أُخذ أسيراً، واستولى المسلمون على ما فيه من العدة والذخيرة والزاد والأمتعة والخيول والماشية وغير ذلك.

وكان طارق بن زياد في أثناء المعركة يجول على جواده ويحرض المسلمين على الثبات، ويكافح ويجالد ويقاتل لا يبالي بقلة رجاله بالنسبة إلى رجال القوط، ولم يكن يعلم بما كتبه يوليان إلى الفونس، ولكنه صمم على التفاني في سبيل الفتح منذ وطىء الأندلس كما رأيت من خطابه الذي ذكرناه، فأحرق سفائنه حتى ييأس رجاله من التعلق بها أو الإلتجاء إليها إذا غلبهم القوط، ولذلك لم يكن يبالي بكثرة عدوه أو قلّته وإنما كان همه وهم مَن معه الصبر والثبات.

فلما رأى الفونس ورجاله ينضمون إليه شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح، وحرّض المسلمين على الثبات حتى قضى على القوط بالفرار كما رأيت، وكانت تلك الواقعة الضربة القاضية على مملكة القوط قتل فيها ملكهم ونخبة قوادهم.

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا إلى خيامهم أمر طارق بأن يحملوا إليه الغنائم والسبايا والأسرى على العادة بعد كل قتال، فحملوا كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف، وأكثرها من الصلبان والخواتم وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع، وجاؤوا بالأسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح. فتجمع من ذلك كله شيء كثير حتى أصبحت الأسلاب ركاماً أمام الفسطاط، والأسرى جماعات مشدود بعضهم إلى بعض بأعناقهم أو أيديهم أو أرجلهم والرجال لا يزالون يأتون بهم زرافات

ووحداناً.

واجتمع قواد الجند أمام فسطاط طارق على بساط كبير من جملة الغنائم افترشوه هناك، فجلس طارق في صدر المكان وإلى يمينه الكونت يوليان وإلى يساره الأمير الفونس وبين يديه كبار القواد وفي جملتهم بدر. وكان الفونس قد لقي يوليان ساعة انضمامه إلى جند العرب وتحادثا ملياً في شأن المملكة وما كان من أمر أوباس وذكرا فلورندا وأنها مقيمة في المستودع حتى يرسلوا في طلبها، وصمما على أن يستقدماها في صباح الغد بعد الفراغ من قسمة الغنائم والأسلاب. وكان الفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس في الأسرى لعله يرى أوباس بينهم وهو لا يتوقع أن يراه أسيراً لعلمه أنه يفضل الموت على الأسر.

فلما تكامل اجتماع القواد وكَّلَ طارق إلى كبير منهم أن يخرج خمس الغنائم حسب العادة لبيت المال ويقسم الباقي بين القبائل على مقتضى تعدادها وكان يقول ذلك وأمارات الاعتزاز والافتخار بادية في وجهه، وألفونس ويوليان يتساءلان في أمر أوباس هل قُتل أو فرّ أو أُسِر، وكلاهما يستبعد وقوعه في الأسر، وإذا هم بجماعة من جند العرب يحوقون رجلاً طويلاً شعره مسترسل على ظهره وكتفيه ولما دنوا من الفسطاط تقدم أحدهم وهو يقول لطارق: «وجدنا هذا الأسير مغلولاً في مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به».

فقال: «إليَّ به».

فأقبل أوباس وهو لا يزال كما كان في أثناء القتال محلول الشعر وفي صدره صليب وبيده صليب. فلما وقع نظر الفونس عليه لم يتمالك أن نهض حتى وصل إليه فجثا أمامه وأكب على يده وجعل يقبّلها ودموعه تتساقط بلا بكاء، وفعل نحو ذلك يوليان وقد

امتزجت في وجهه أمارات السرور بالنصر بأمارات الخجل من الخيانة، فانحنى على يد أوباس فقبّلها وأمسك به ودعاه للجلوس في صدر المكان. وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت أنظارهم إلى ذلك القادم وقد زاد هيبة وجلالاً باسترسال شعره، فأخذ ينظر إلى الذين حوله بلا اكتراث. ولما دعاه يوليان للجلوس أمسك عن مجاراته وظل واقفاً في مكانه يتفرس في وجوه الناس. ولو استطاع الفونس التفرس في عيني أوباس لرآهما تتلألآن بالدمع رغم اعتقاده أن الطبيعة لا تستطيع قهره، وهي لا تستطيع قهر العاقل إذا استذل عواطفه وأخضعها لعقله، فإنه لا يرى في حوادث الطبيعة ما يدعو إلى الحزن أو إلى الفرح، والحياة بجملتها في نظره نسمة من نسمات الوجود، فما قولك بأعراضها! ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح، فلا تلومنّ أوباس على البكاء وقد رأى ذهاب دولة القوط من إسبانيا بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من ملافاة ذلك، حتى إذا كاد يدرك مراده ذهبت مساعيه أدراج الرياح وجوزي جزاء سنمار! على أن أسفه ما لبث أن تحول إلى الاعتبار، فلما دعاه يوليان للجلوس توقف هنيهة ثم قال بصوت جهوري فيه خشونة من عظم التأثر: «تدعوني يا يوليان للجلوس في مكان تحسبه بيتك وأنت قد خسرت اليوم هذا البيت؟ بعته يا يوليان بأرخص الأثمان، وأنت تزعم أنك فعلت ذلك انقاماً من رجل ساقه ضعفه إلى مس كرامتك، فسقت نفسك وأهله وسائر رجال القوط والاسبان إلى ضياع أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. حتى ابنتك التي ارتكتب هذه الخيانة غيرة على عرضها قد ذهبت سبية في يد رجل لا هو من دينك ولا أمتك ولا لغتك!».

وكان أوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب، مع أنهم

لم يكونوا يفهمون ما يقول ولكنهم هابوا صوته ومنظره، أما يوليان فإنه كان يذوب خجلاً فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وسبيها انتبه وأجفل، وكذلك الفونس، ولم يتمالكا أن قالا بصوت واحد: «أين هي؟». ولم يتسغربا اطلاعه على ذلك ولا استخفا بقوله لأنه لا يقول عبثاً. فلما سألاه عنها وجه خطابه إلى الفونس وقال: «ضاعت خطيبتك منك، وما أنت لها وقد ارتكبت ما لم يرتكبه رودريك، لأنك خنت بلدك وأهلك وأضعتهم جميعاً. فإذا كنت فعلت ذلك عقاباً لرجل أراد أن يمس عرضك، فما هو مقدار العقاب الذي تستحقه أنت وقد جعلت أعراض القوط وأموالهم وأرواحهم عرضة للسلب والقتل؟».

فلم يكن جواب الفونس غير البكاء. . وأما يوليان فإنه أحس بتبكيت الضمير خصوصاً لما سمع بضياع ابنته، وأراد أن يستفهم عنها فتهيب وظل مطرقاً.

وكان طارق وبدر يسمعان كلام أوباس ويعجبان به وهما لا يفهمان ما يقوله. فالتفت طارق إلى ما حوله يبحث عمن يترجم له أقواله. فرأى سليمان التاجر فأدرك سليمان غرض طارق قبل أن يسأله، فتقدم وفسر له كلام أوباس وهو يتوقع أن يُستاء منه فإذا هو قد زاد إعجاباً وخاطب أوباس بواسطة سليمان قائلاً: «بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل! إني لأعجب من فشل جند القوط وفيهم رجل حيكم مثلك، مع كثرتهم واستعدادهم».

فقال أوباس: «لا تعجب يا ولدي إن للدول آجالاً كما للناس. فإذا جاء أجلها خابت الحيل في استبقائها. على أني كنت أحسب أجل هذه الدولة أطول من ذلك، فعجله ضعف رأي الملك وفساد نيات أهل شوراه. وهكذا أراد الله».

قال طارق: «فإذا كانت هذه إرادة المولى فلا يسؤك خروج هذه الدولة من أيدي القوط، فإن دخولها في حوزة المسلمين من أسباب سعادتها، لأن أهلها يعيشون في ظلنا ندفع عنهم الأعداء ونضمن لهم الأمن، ولا نكلفهم عن ذلك إلا جعلاً قليلاً هو الجزية، فإذا أدوها بات كل منهم آمناً على عرضه وروحه وماله». قال ذلك وأمسك بيد أوباس ومشى به وهو يقول: «هلم بنا إلى الفسطاط ريثما يفرغ القواد من قسمة الغنائم».

فمشى أوباس ويوليان وألفونس وبدر ومعهم سليمان ويعقوب حتى دخلوا الخيمة وكانت كبيرة، فقعد طارق في صدرها وأقعد أوباس إلى يمينه ويوليان وألفونس إلى يساره، وقعد بدر في جانب من جوانب الخيمة وهو لا يزال لابساً الثوب الذي حارب به وعليه السيف والدرع. ولم يكد يوليان يراهم استقروا هناك حتى ذهب تهيبه من أوباس فعاد إلى الاستفهام عن فلورندا فقال: «سمعتك يا مولاي تقول إن فلورندا ذهبت سبية فهل تعني ذلك حقيقة؟».

قال: «ومتى كان أوباس يتكلم جزافاً؟».

فزاد اهتمام يوليان واستغرابه وأراد الاستيضاح فسبقه الفونس وقال: «وكيف ذلك؟ ومَن سباها؟».

فقال أوباس: «لا أعرف اسم الرجل ولكنني رأيتها وأنا مسجون في الخيمة محلولة الشعر تستنجد السماء لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها إليه. فجاءها فارس عربي لكنه غير بربري عليه عمامة بيضاء فأنقذها وتعقب رودريك لا أدري إلى أين، ولكنه أمر رجاله أن يحملوها فحملوها نحو هذا المعسكر - سبية بالطبع - وهي ملك للذي سباها!».

فقال يوليان: «هل تعرف ذلك الرجل إذا رأيته..؟ يظهر أنه

أخذها إليه وأخفاها عن الأمير طارق لأني لم أرها بين السبايا».

قال أوباس: «أظنني أعرفه إذ أنه يمتاز عن كل الجند ببياض لونه وشقرة شعره».

فلما سمع يوليان ذلك اتجه فكره إلى بدر فالتفت إليه وكان جالساً على عدة خطوات منه، يسمع كلامه ولا يفهمه لأنه لا يعرف القوطية. على أنه لو فهم أن سبيته ابنة يوليان لم يبال لأنه ما زال حاقداً عليه منذ حرمه بنت الشيخ صاحب الكرم ليلة نزولهم شريش. وكان يوليان خشن المعاشرة بسبب ما تسلط عليه من السوداء منذ بضعة عشر عاماً لمصيبة ألمت به فأذهبت صبره وأصبح ضيق الخلق قصير البال، فكان رفقاؤه لا يسرون بمعاشرته خصوصاً بدر لما بينهما من البون في السن. فلما نظر إليه يوليان كان يتلهى بتقليب سيفه بين أنامله وفكره عند فلورندا لأنه كان قد افتتن بجمالها، فلما رآه يوليان مشتغلاً عنه التفت إلى طارق وأفهمه خلاصة حديثه مع أوباس، وأنه يظن بدراً هو الذي سباها، ورجاه أن يطلبها منه، فالتفت طارق إلى بدر وناداه: «بدر».

وكان بدر قد سمع كلام يوليان لطارق وفهم قصده فلما سمع طارق يناديه أجابه وهو لا يزال جالساً: «نعم».

وكان طارق شديد التعلق ببدر يحبه ويدلله ويعامله معاملة الأب لابنه أو الأخ الأكبر لأخيه، فلما رآه أجابه بلا اكتراث ابتسم له وقال: «أراك لا تزال جالساً، ألم تسمع ندائي؟».

فقال: «سمعت وأجبتك».

فقال طارق: «قم إليَّ لأسألك سؤالاً».

فوقف وقال: «وما سؤالك؟ اسأل كل ما تريده. اطلب ما

شئته إلا سبيتي فإنها لي ولا حاجة إلى كثرة الكلام». قال ذلك وهو يصلح عمامته كأنه يستعد للنزال، فضحك طارق حتى بانت نواجذه وقال: «لا أدري ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك في شيء بعد. ألا سمعت قولنا ثم قلت ما تقوله؟».

قال بدر: «قل فإني سامع».

قال: «إحْكِ لنا كيف عثرت على هذه السبية».

فقص عليهم بدر الحكاية باختصار حتى انتهى إلى فرار رودريك وكيف أنه قتل الأب مَرْتين ثم غرق في النهر. وكأن الفونس وأوباس لا يفهمان ما يقول فتقاربا واستدنيا سليمان ليترجم لهما. فلما وصل إلى مقتل مَرْتين بيد رودريك قال أوباس في نفسه: «لم يكن يليق قتله بغير تلك اليد!» فلما فرغ بدر من حكايته قال له طارق: «لا شك أنك استأثرت بهذه السبية وأنت لا تعلم أنها ابنة الكونت يوليان!».

قال: «نعم إني لم أكن أعلم ذلك، ولكن علمي لا يغيّر شيئاً من عزمي!».

قال ذلك وتحول يريد الرجوع إلى مقعده فناداه طارق بلهجة الجد وقال له: «كيف لا يتغير عزمك والكونت يوليان هو الذي أكسبنا هذا النصر، ولولاه لم ندخل هذه البلاد؟ أيليق بنا أن نسبي ابنته ووحيدته؟». ارجعها إليه ولك ما شئت من سبايا هذه الجزيرة وغنائمها».

فقال: «لا أريد شيئاً غير هذه، وهي غنيمتي في الحرب. وهو الذي منعني بالأمس من غنيمتي الأولى لأنها لم تؤخذ في أثناء القتال، وهذه؟ ألم أغنمها في ساحة الوغى؟ ألم أحارب ملك القوط من أجلها؟ وقد قتلته وكان قتله سبباً في فشل جنده. أتستكثرون عليَّ فتاة

سبيتها، وقد تركت لكم نصيبي من سائر الغنيمة؟».

فقال طارق وهو لا يزال يرجو إقناعه: «إذا كنت تفعل ذلك نكاية في الكونت يوليان وانتقاماً منه فانتقم من غير هذا السبيل. وأنت تعلم يا أخي أن عملك هذا يخالف حق الجوار ومعرفة الجميل. ماذا يقول المسلمون إذا علموا فضل الكونت في هذا الفتح لو قيل لهم إننا أخذنا ابنته سبية؟ فارجع إلى ما هو أجدر بك من كرم الخلق، افعل ذلك إكراماً لي وعملاً بحقوق الأخوة».

وكان بدر شهماً لا يرضى ارتكاب هذا العار، ولكنه أحب الفتاة منذ رآها، وزاد تعلقاً بها لأنه تعب في إنقاذها فشق عليه التخلي عنها. فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وعلى وجهه دلائل البِشر وقال: «صدقت أيها الأمير إن اتخاذ هذه الفتاة سبية يعد غدراً وخيانة، ولكنني أحببتها، ولا يمكنني التنازل عنها فليزوجني الكونت إياها بشرع الله، فهل له بعد ذلك عذر؟».

فالتفت طارق إلى يوليان كأنه يستطلع رأيه فقال يوليان: «إن الفتاة مخطوبة وهذا خطيبها» وأشار إلى الفونس.

فقال بدر: «لا يهمني، فإن الخطبة يسهل حلها».

فحمي غضب يوليان لهذا الجدال وضاق صدره فقال: «لقد أطلت الكلام بلا طائل! إن ابنتي مخطوبة وهذا خطيبها. وهب أنها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها».

فوثب بدر ويده على قبضة حسامه وقال: «إنها سبيتي في ساحة الوغى، أخذتها بحد هذا السيف، فلا أتخلى عنها لأحد ولو كان أمير المؤمنين، إلا أن يأخذها مني بالسيف كما أخذتها».

وكان سليمان يترجم لألفونس وأوباس كل ما يدور من

الجدال، فلما بلغ إلى طلب المبارزة وقف الفونس ويده على قبضة سيفه وقال: «أنا أولى الناس بمنازلة هذا الشاب، وكلانا طالب، فأينا غلب فهي له!».

فوقف يوليان وأمسك الفونس وهو يقول: «بل أنا أَولى بذلك منك فإذا قتلت هذا الغلام فقد أنلته الجزاء الذي يستحقه، وإن قتلني فمَوْتي خير من وقوعي في مصيبة ثانية شر من مصيبتي الأولى. ولا طاقة لي على احتمال الاثنتين معاً». قال ذلك وتقدم ويده على قبضة حسامه، فسبقه بدر واستل الحسام فناداه طارق فلم يصغ، ونادى أوباس يوليان فلم يطعه لأنهما خرجا من طور التعقل لشدة الغضب، وأقسم كل منهما أنه لا يرجع حتى يقتل صاحبه أو يقتل هو، فعلا الضجيج في الخيمة ويعقوب وسليمان في ناحية منها يتساران!

وبدأ بدر فأطلق حسامه على يوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتله لا محالة ولكن السيف غاص في العمود ووقف فيه وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع إخراج السيف من العمود فاغتنم يوليان انشغاله بذلك وانقض عليه انقضاض الصاعقة، فخاف طارق على بدر فصاح في يوليان فلم يصغ له، وفعل ذلك أيضاً أوباس ويوليان لا يبالي. فوثب طارق للفصل بينهما بالقوة، فرأى سليمان التاجر قد سبقه وتوسط بينهما وأمسك زند يوليان وهو يقول: «تمهل يا كونت بحياة طوماس!».

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الإسم حتى رمى يوليان السيف من يده واستلقى على الأرض وأخذ في البكاء، فبغت الجميع حتى بدر، والتفتوا إلى سليمان كأنهم يستفهمون عن السبب، فأشار إليهم أن يصبروا فوقفوا جميعاً، وتقدم سليمان إلى يوليان وأمسكه بيده، وجعل يخفف عنه وهو مستغرق في البكاء. ثم التفت هذا إلى سليمان

وقال: «لماذا أذكرتني بهذه المصيبة يا سليمان؟».

فقال: «وهل كنت ناسياً إياها؟».

قال: «كلا ولكنني لم أسمع هذا اللفظ منذ أعوام، ولو لم تحلفني به لكنت قضيت على هذا الغلام وخلصت من وقاحته وحماقته!».

قال: «لا تبالغ في شتمه وانظر إلى وجهه وتفرس فيه، فإنك تذكر به حبيباً تحبه وتتوهم أنك فقدته وهو حيّ بين يديك!».

فلم يفهم يوليان مغزى الإشارة، وكان قد جلس وتحول غضبه إلى حزن. وظل أوباس وطارق وألفونس واقفين وقد علتهم البغتة مما شاهدوه، وهم ينتظرون ما يقوله سليمان. فلما سمع يوليان إشارته تنبه وتفرس في سليمان ليرى هل هو يقول الجد أو يهزل، فرأى الجد بادياً في كل جارحة من جوارحه. وقبل أن يقول كلمة نهض سليمان والتفت إلى الحضور وأشار إليهم أن يقعدوا ليسمعوا حديثاً يريد أن يقصه عليهم فقعدوا إلا بدراً، فإنه اغتنم فرصة اشتغالهم وخرج لاستبدال سيفه استعداداً لمنازلة يوليان ثانية. أما سليمان فقعد وقال: «اسمعوا أقصّ عليكم سراً حفظته منذ أعوام وفيه موعظة وحكمة». وأخذ يقص حكايته بالقوطية ويترجمها إلى العربية. قال ووجه خطابه أولاً إلى أوباس:

«لا يُخفى على مولاي الأسقف ما قاساه اليهود في إسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى أجبروهم أخيراً على النصرانية أو يرحلوا من بلادهم، فكان منهم من رحل ومنهم مَن تظاهر بالنصرانية وبقي في البلاد مَنْ يسعى إلى إفساد أمرها على الحكومة. ولا أخفي عليكم أني أحد هؤلاء المتنصرين وقد قضيت مع الكونت يوليان أعواماً وهو يحسبني نصرانياً، والحقيقة أني لا أزال

على دين آبائي وأجدادي. وأظن مولاي الأسقف يعلم أن يعقوب (وأشار إليه) حبر من أحبار اليهود وغني من كبار أغنيائهم قد تظاهر بالنصرانية وأدخل نفسه في خدمة البلاط الملوكي من أيام غيطشة المرحوم، وسعى لديه في رفع الضغط عن اليهود، وكاد ينجح لو لم يحل دون ذلك أجل غيطشة. فلما تولى رودريك عاد الضغط إلى ما كان عليه ونحن نعقد الجمعيات السرية ونبذل الأموال في مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم أركانها. ولم نكن ندخر وسعاً في معاكستها ومعاكسة رجالها من الكونتية أو القواد أو غيرهم، ولكننا لم نكن نستطيع ذلك جهاراً فكنا نفعله سراً، وأتيح لي بعد تظاهري بالنصرانية الرحلة إلى الآفاق فنزلت سبتة منذ بضعة عشر عاماً وتقربت من حضرة الكونت وبذلت ما في وسعي لاكتساب ثقته، ففزت بذلك وصرت أتردد على منزله كواحد من أهله، وكان له ولدان أحدهما أنثى وهي فلورندا، والثاني ذكر اسمه طوماس، واتفق في أثناء ذلك أن الحكومة جددت اضطهاد اليهود، وأتتنا التعليمات السرية أن ننتقم لهم بأي وسيلة كانت. فتهيأ لي أن أحرم الكونت أعز ولديه وهو الصبي، ولم تسمح نفسي بقتله فاحتلت في سرقته وحمله معي في أثناء أسفاري إلى بعض قبائل البربر وبعته لأحد كهنتها الوثنيين بيعاً رخيصاً، ولم أقل له من أين أتيت به، فاشتراه ثم سلمه إلى زياد والد الأمير طارق فرباه مع أولاده. فشب الغلام لا يعرف والده ولا أحد يعرفه سواي، وسموه بدراً لبياضه وهو هذا الشاب الذي بين يديكم. وبما أن الكونت يوليان قد انقلب على حكومته القوط الآن ونصر أعداءهم حتى أصبح من أنصارنا، فلذلك وجب علينا اطلاعه على هذا السر!».

وكان سليمان يتكلم وهم يتطاولون بأعناقهم خصوصاً يوليان

فقد حسب نفسه في حلم، وكان وهو يسمع الحديث يبحث ببصره عن بدر في جوانب الخيمة وقلبه يخفق. وكانت الشمس قد غابت وأظلمت الخيمة وأحس طارق من تلك الساعة كأن غشاوة قد أزيحت عن عينيه إذ عرف أصل هذا الغلام والتفت ونادى «بدر!» فلم يجبه أحد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد بدّل سيفه.

فلما رآه يوليان وثب وهو لا يدري ماذا يقول ونادى: «طوماس! طوماس!». وهرع نحوه، فلما رآه بدر مسرعاً إليه تراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهم أن يضربه به، فوقف سليمان وقال: «تعال يا بدر وقبّل يد الكونت ودعه يقبلك فإنه أبوك».

فبغت بدر وحسبه يهزل حتى تقدم إليه طارق وقال له: «نحمد الله أنك وجدت أباك، وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتساءل عنه». فنظر بدر إلى طارق وهو يقول: «الكونت يوليان أبي وفلورندا أختي؟ من أين أتت هذه القرابة؟».

وكان يوليان في أثناء ذلك واقفاً أمام بدر وهو يتفرس فيه على نور الشفق، ثم جاؤوا بمصباح تناوله يوليان بيده وجعل يتفرس ببدر ويتأمل ملامحه ومعاني وجهه فتذكر بعد قليل أن لتلك الصورة شبهاً في ذهنه، فثار الحنو في قلبه فأكب على بدر وضمه إلى صدره وجعل يقبّله ويتنشق ريحه ويبكي بكاء الفرح، والناس وقوف وما فيهم إلا من تحركت عواطفه لذلك المنظر الغريب، ولم يتحقق بدر أنه في يقظة إلا بعد قليل فقبّل يد والده ووقف كأنه أصيب بالجمود!

مضت دقائق قليلة وأهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده بفضل سليمان. ثم التفت أوباس وهو لا يزال إلى ذلك الحين مكشوف الرأس محلول الشعر كما جاء وقال لطارق: «يأمر الأمير طارق حفظه الله أن تأتي

ابنتنا فلورندا إلى هنا ليتم التعارف».

فقال طارق: «وأين هي فلورندا يا بدر؟». قا: «هي في خيمتي» فأمر سليمان أن يأتي بها.

وكانت فلورندا بعد أن جاءت تلك الخيمة قد أصلحت من نفسها وهي تتوقع أن يأخذوها إلى أبيها فلما أبطأوا طلبت من الحراس ذلك فلم يفهموا مرادها على أنهم أفهموها بالإشارات أنها لن تبرح الخيمة، فمكثت ومعها خالتها إلى العشاء إذ جاءها سليمان فلما رأته استأنست به وهشت له وقالت: «أين والدي؟ أين الفونس؟».

فضحك وقال: «إن والدك مشتاق إلى رؤيتك وسترينه قريباً، وأما الفونس فلا أرب لك فيه بعد الآن لأن الفارس العربي الذي أنقذك من يدي رودريك لم يقبل إلا أن تكوني له عروساً!». فبغتت وقالت: «وهل قبل والدي ذلك؟». قال: «وماذا يفعل؟». قالت: «وألفونس كيف فعل؟ لا أقبل أحداً غيره. يظهر يا سليمان أنك تمزح».

قال: «تعالي وانظري مجلس ذلك الشاب من أبيك».

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى أقبلوا على خيمة طارق، فدخل سليمان وأشار إليهم ألا يتكلموا فدخلت فلورندا والبغتة غالبة على فرحها بلقيا والدها، فسبقها سليمان إلى بدر وأخذه بيده وجاء به إليها وقال له: «قبّل فلورندا يا بدر!».

فأجفلت هي وتراجعت فصاح بها أبوها: «قبّليه يا فلورندا!».

فلما سمعت ذلك وتحققت أن أباها أراده لها زوجاً حولت وجهها عنه وأخذت في البكاء وهي تقول: «لا. لا حاجة لي بذلك».

فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته بيمينه فقبلت يده وقبّلها، ثم ضم بدراً بيساره وقبّله وقال: «قبّليه يا فلورندا. إنه أخوك طوماس الذي فقدناه منذ بضعة عشر عاماً».

وكانت فلورندا تسمع وهي طفلة أنه كان لها أخ وضاع وقطعوا الأمل من حياته، فلما قال لها أبوها ذلك تفرست في بدر وهي لا تعرف صورته وما زال الخجل يمنعها من تقبيله، حتى نهض أوباس وناداها فأجفلت لأنها لم تكن تتوقع أن تسمع صوته هناك والتفتت فلما رأته هرولت إليه وأكبت على يده فقبّلتها والعَبَرات تتسابق إلى عينيها وهي لا تعلم ماذا تقول.

أما هو فباركها وقال: «نحمد الله على سلامتك وعلى وجود أخيك بعد أن قطع الأمل من لقائه، ونحمده على التقائك بألفونس ونجاتك من الشراك».

فتصدى الفونس وقال: «إن نجاتها يا عماه يرجع الفضل فيها إليك وحدك، فإنك بركتنا ونعمة من الله لنا». واختنق صوته، فتنهد أوباس وقال: «يا ليتني استطعت ما أتمناه. ولكنني لو استطعته ما التقى بدر بأبيه وأخته، ولا التقيت أنت بخطيبتك. المرء يسعى في سبيل، والله يدبر من سبيل أخرى. هذه إرادة المولى فما علينا إلا أن نشكر الله على ما وقع».

وكانت الخالة العجوز واقفة فلما قيل لها أنهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته إلى صدرها وقبّلته وسلمت على يوليان والفونس، ثم تناولت يد أوباس فقبّلتها وقالت له: «بقي أمر لا يتم سرورنا إلا به، ولا يقدر عليه سواك».

قال: «أظنك تعنين زفاق فلورندا إلى الفونس؟ وهذا واجب عليَّ لأني واضع عربون الخطبة فامهليني إلى مساء الغد» فلم تستطع

الاعتراض.

ثم وقف طارق وقال: «يسرني أن يتم لكم هذا الاجتماع في يوم نصرنا الله فيه، وأنتم منذ الآن في ذمتي فتقيمون حيثما تشاؤون آمنين مطمئنين مكرمين، أنتم ومَن يلوذ بكم».

وقضوا برهة يتحادثون في شؤون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عيني الفونس، ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفي، حتى إذا انقضى هزيع من الليل قال يوليان: «هلم بنا ننصرف إلى مراقدنا فإننا نحتاج إلى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء في أثناء النهار». قال ذلك وخرج فتبعه أوباس وألفونس وفلورندا وبدر، ودل يوليان كلاً منهم على مكان ينام فيه. وتذكر الفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم فظنه ذهب للمنام في بعض الخيام.

باوا تلك الليلة ولا نظنهم استطاعوا رقاداً لفرط تأثرهم من ذلك الملتقى الغريب، ولما أصبحوا أحب أوباس أن يُشرف على تلك الموقعة ثم يمر بين المعسكرين ليعلم مَن مات من كبار الدولة ومَن هرب، فمشى ورافقه يوليان وبدر وألفونس، فرأوا الجثث مبعثرة هنا وهناك، وعرفوا من القتلى جماعة من القواد في جملتهم كوميس فأسفوا عليه أسفاً شديداً. ثم مروا بخيمة الملك فرأوا بالقرب منها الأب مَرْتين مجندلاً فلم يشأ أوباس أن يتفرس فيه، ولما عادوا من ذلك الطواف طلب أوباس من طارق أن يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها، فأجابه إلى طلبه فنقل جثث القواد وجثة مَرْتين وصلّوا عليها ودفنوها. فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت إلى أوباس وأخبرته بمقتل أجيلا وشانتيلا وطلبت إليه أن يصلي عليهما ويدفنهما، فأجابها إلى ما طلبت وقد أسف لمقتلهما، فدفنهما ودُفن معهما مَن قُتل من أولاد الشيخ صاحب الكرم. ولما أخبرته بما كان

من دفاع الشيخ وأولاده عنها أوصى طارقاً به وبأهله خيراً.

ولما غربت الشمس تهيأ الفونس لعقد إكليله على فلورندا في خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على أبسط الطقوس وقلوب الجميع تطفح سروراً لذلك اللقاء ووجوههم تبتسم، إلا أوباس فإنه ما زال ساكناً كعادته لم يتغلب عليه فرح ولا حزن. وبعد تمام الإكليل سألهم أوباس عن المكان الذي يفضلون الإقامة فيه فقالوا: «حيثما تريد أنت». فقال: «أما أنا فاتركوني وشأني».

فقالوا: «كيف نتركك وأنت حكيمنا ومرشدنا؟».

قال: «لو كنت كذلك لنفعتكم. إنني سأقضي بقية هذه الحياة في العبادة والصلاة منقطعاً عن هذا العالم فقد رأيت من شروره ما كفاني. وهل أتوقع أن أرى بعد هذه الواقعة غير ما يزيد أسفي ويضاعف حزني، وأنا لا أستطيع العمل بما يدعوني إليه ضميري ويستحثني عليه الواجب؟ فالأَولى بي أن أقضي بقية هذه الحياة في مكان لا أرى فيه بشراً، ولا يراجعني أحد منكم في ذلك».

فلم يستطع أحد أن يراجعه إلا رجل تصدى له من جملة الحضور وقال: «وأنا أين أذهب؟».

فتوهم الفونس أنه يسمع صوت يعقوب ولكن القيافة غير قيافته. أما أوباس فعرفه فقال: «هذا يعقوب قد وفى نذره وأصلح لحيته واغتسل!».

فتذكر الفونس شيئاً من ذلك منذ اجتمع بعمه في طليلطة، فنظر إلى يعقوب فإذا هو حسن الهندام وقد أصلح لحيته وتزيّى بزيّ حاخامي اليهود تماماً فقال له: «ما ذلك يا يعقوب؟».

قال: «قد آن لي وفاء النذر والتحرر من ربقة الذل، إذ أصبح

الناس بعد هذا الفتح أحراراً يتبع كل رجل دينه. وأنا يهودي جنساً وديناً، فأحب الرجوع إلى مذهبي، فأصلي في كنيستي وأقرأ في كتابي».

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا لم يجدوا أوباس في خيمته ولا في سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك الحين. فعلموا أنه ذهب للتنسك كما قال.

وأما الفونس ويوليان فظلا عوناً لطارق وجنده حتى أتم فتح الأندلس، وقلما لاقى مشقة بعد تلك الواقعة إلا في استجة فإنهم ساروا إليها تواً بعد واقعة شريش وحاربوها حرباً شديدة، فلما فتحوها وقع الرعب في قلوب الناس وهربوا إلى طليطلة فأشار يوليان على طارق أن يفرق جيوشه في مدائن الأندلس لأن الناس أخلوها وساروا إلى العاصمة، فبعث جيشاً إلى قرطبة، وجيشاً إلى غرناطة، وجيشاً إلى مالقة، وجيشاً إلى تدمير، وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة فوجدها خالية لأن أهلها لحقوا بمدينة خلف الجبل. أما الجيش الذي سار إلى قرطبة فقد دلهم راع على نفق دخلوا منه البلد وملكوه. والذين قصدوا تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدائن. أما طارق فلما رأى طليطلة فارغة ضم إليها اليهود وترك معهم رجالاً من أصحابه وسارَ في إتمام الفتح كما هو مفصل في كتب التاريخ.